

# الأمين والمأمون

رواية تاريخية غرامية

---

هي الحلقة الحادية عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام  
وتشتمل على مدار بين الامين والمأمون من الحلاف بعد وفاة والدهما  
الرشيد وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى فتجوا بغداد  
وقتلوا الامين وأعادوا الخلافة الى ابن اخهم (المأمون)  
ويتخلل ذلك وصف دخائل السياسة بين العرب  
والفرس وما يقتضى المقام ذكره من الآداب  
الاجتماعية والعادات والاخلاق

---

تأليف

عزيمى زيدان

منشىء الهلال

---

« الطبعة الخامسة »



# مقدمة

## الطبعة الاولى

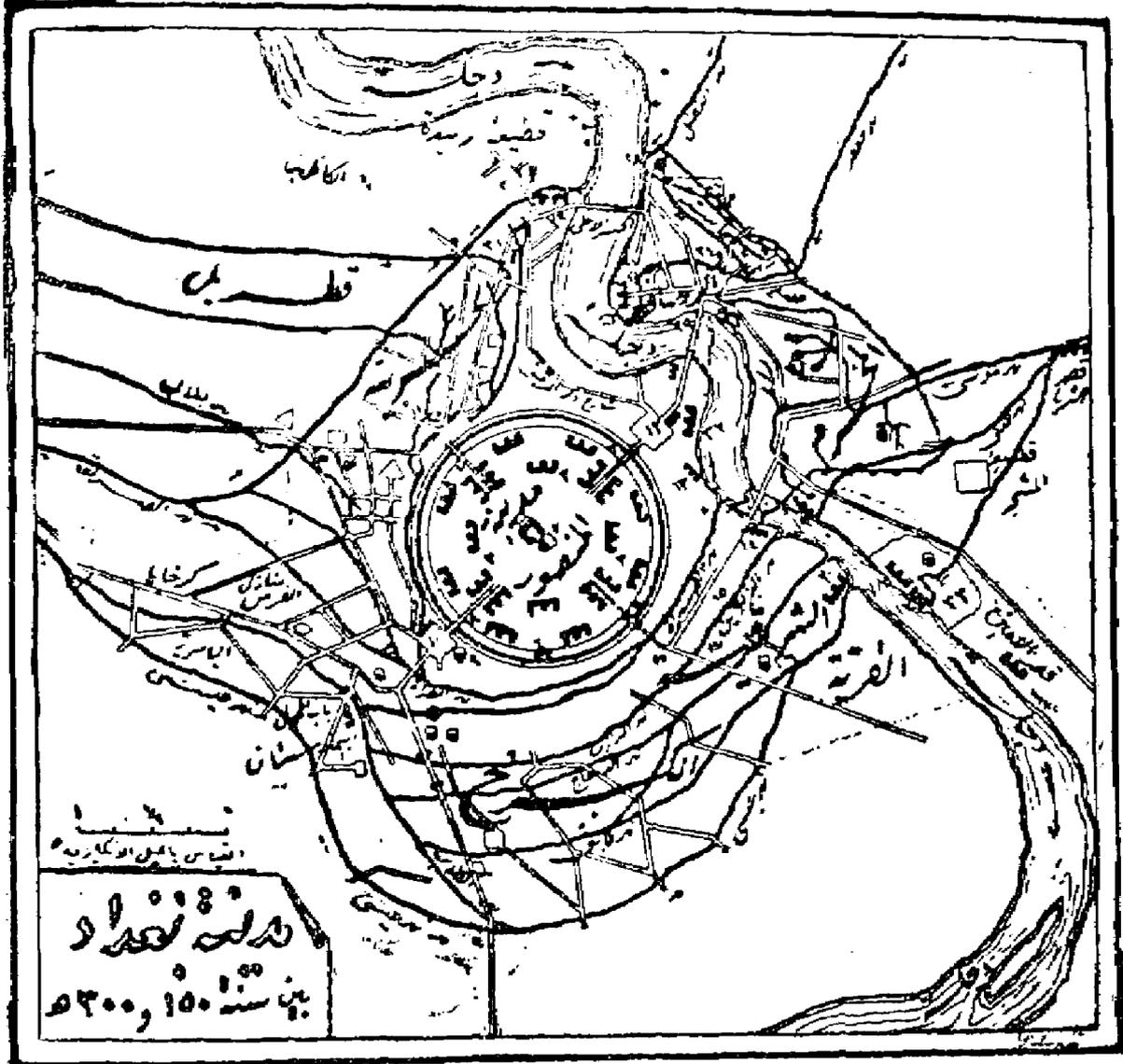
بلغنا في الحلقة الماضية وهي العاشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام الى نكبة البرامكة وفيها قضى الرشيد على سطوة الفرس بقتل زعيمهم ووجيهم جعفر بن يحيى البرمكي وعاد العرب الى نفوذ الكلمة واضطر الفرس الى الرضوخ والتربص حتى تسنح لهم فرصة يثبون فيها على الدولة ويهودون الى القبض على أزمة أمورها

وتوجهت أنظارهم الى المأمون أحد أبناء الرشيد لان أمه فارسية وفيه ذكاء وفهم وكان جعفر قبل نكبته قد رباه في حجره وغرس فيه حب الفرس والشيعه منذ نعومة اظفاره — عهد بذلك الى رجل من الفرس كبير المطامع اسمه الفضل بن سهل فلما قتل جعفر أركان الفرس الى السكون حتى مات الرشيد وكان قد بايع بالخلافة بعده لولده الامين ثم المأمون فطمع الامين بنقل الخلافة بعده الى أولاده

تخلع أخاه فخر الفرس ابن أختهم المأمون على المطالبة بالخلافة ووعدوه الفضل بن سهل أن يعيدها اليه على شرط أن يبايع بعده لعلي بن موسى الرضا زعيم الشيعة في ذلك العهد فقبل الشرط فنصروه وأعادوا الخلافة اليه فلما قبض عليها وأدرك قصدم اخراج الخلافة من بني العباس ورأى أهله قد تقموا عليه هذا الفعل وعموا بخلعه لم ير خيراً من أن يتخلص من الفضل وعلى الرضا قدس اليهما من قتلها سرّاً تخلصت الخلافة وتوارثها أهله بعده

فموضوع هذه الرواية ( وهي الحلقة الحادية عشرة ) بسط الخلاف الذي قام بين الاخوين بعد موت أبيهما الى مقتل الامين سنة ١٩٨ هـ وما تخلل ذلك من الدسائس والمساغي واختلاف الاحزاب مع بيان الاحوال السياسية والآداب الاجتماعية وطبقات الناس في ذلك العصر ونسبتها بعضها الى بعض وغير ذلك مما تلذ مطالعته وتجزل فائدته وبالله التوفيق





٢٢ قصر المعتصم	١٢ الميدان وبجانبه الاسطبل	١ قصر الذهب أو القبة
٢٣ دار الروم (البيتر كخانة)	١٣ دار القرار	الحضراء
٢٤ دار البراءة	١٤ دار حميد بن عبد الحميد	٢ جامع المنصور
٢٥ باب الطاق	وباب شعير	٣ أبنية الحكومة لمصالح الدولة
٢٦ قصر المهدي	١٥ جامع معروف السكرخي	٤ الطابق
٢٧ جامع الرصافة	١٦ مشهد علي	٥ باب البصرة
٢٨ باب الشهاسية وقصر موسى	١٧ القصر الجعفري ثم صار	٦ باب خراسان
٢٩ قصر الحرم الظاهري	القصر المأمون	٧ باب الشام
٣٠ قصر زبيده	١٨ قصر التاج	٨ باب الكوفة
٣١ دار الرقيق	١٩ قصر الفردوس	٩ جامع المسيب
٣٢ قصر الخلد	٢٠ دار عيسى	١٠ ديوان الصدقة
٣٣ حدائق المنصور	٢١ قصر ابن الخصيب	١١ سجن باب الشام



# الفصل الأول

خان سمان

بنى المنصور مدينته المستديرة سنة ١٤٥ هـ وجعلها معقلا له ولجنده ورجال دولته وبنى في وسطها قصراً له سماه قصر الذهب وأقام بجانبه جامعاً عرف باسمه وشاد الابنية في ما بقي من المدينة لرجال خاصته ومصالح حكومته وأحاط المدينة بسور مثلث الجدران فتح فيه أربعة أبواب سماها بأسماء الجهات التي تؤدي إليها . فسمى الشرقي الشمالي باب خراسان والشمالي الغربي باب الشام والشرقي الجنوبي باب البصرة والغربي الجنوبي باب الكوفة واقطع رجاله ما يحيط بالمدينة من الارباض فابتنوا فيها القصور وعرفت تلك الارباض بأسمائهم . ولم يمض زمن حتى تألف حول المدينة أحياء عرفت بأسماء خاصة بها أشهرها الحربية في الشمال والكرخ في الجنوب . وقامت الابنية في شرقي دجلة ونشأت هناك أحياء الشماسية والرصافة والمحرم وغيرها . وبنى خارج باب خراسان قصراً كبيراً عرف بقصر الخلد وجعل بينه وبين ذلك الباب ميداناً كبيراً ينشأ من بين يديه طريق متجه نحو الشمال الشرقي إلى الجسر الاوسط القائم على دجلة ويمتد ذلك الطريق شمالاً ثم شرقاً حتى يمر بين الرصافة والمحرم . يعرف بطريق خراسان ويتخلل تلك الأحياء كثير من القصور والحدايق والأنهر (أو الترعة) المنشقة من دجلة إلى كل الجهات

وكان في جملة هذه الأنهر نهر يسير من دجلة شرقاً حتى يخترق الرصافة والشماسية يعرف بنهر جعفر . وكان على جانبي هذا النهر أو الترعة وراء الرصافة بساتين فيها الأعراس والأشجار وبعض الابنية في جملتها بستان واقع على طريق خراسان من جهة وعلى ذلك النهر من جهة أخرى بيت اتخذه بعض التجارين من أنباط السواد خاناً ينزل فيه القادمون على بغداد من الغرباء . وجعل في البستان مما يلي الطريق بيتاً يبيع فيه الخمر والابنذة ويصنع فيه الاطعمة لمن شاء من الغرباء أو البغداديين . ونظراً لموقعه على

قارعة الطريق وبعده عن المهارة كان يقصده الراغبون في ترويح النفس أو طلاب المسكر من طبقات العامة لرخص الاثمان وقرب التناول . وإذا اراد بعض الخاصة شرب الخمر سراً خوفاً من رقيب أو فراراً من العار رأى في ذلك البستان مستتراً

وكان صاحب الخمار كهلاً في حدود الستين من عمره قد عركه الدهر ولانت نفسه حتى كادت تسيل رقة وعاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس المهدي والهادي والرشيد وشهد كثيراً من الاحوال آخرها نكبة البرامكة منذ ستة أعوام وظل ثلاثة منها يشاهد جثة جعفر منصوبة على جسر بغداد - والخمارون يتعودون دمائه الخلق مما يعرض لهم من مغالطة الناس في أحوال سكرهم وعربدتهم فيضطرون لمسايرتهم ومجاراتهم على طباعهم فيهنون عليهم احتمال الضيم والصبر على السب والشتم لمرضاة زبائنهم ، ولذلك كان الخمارون من أئین الناس عريكة وأطولهم بالاً وأكثرهم اطلاعا على نقائص البشر وأكتمهم لاسرارهم بما يظهر لهم من عيوبهم في أثناء سكرهم . ولهذا السبب كانت هذه الحرفة خاصة بأهل الذمة ممن ضربت عليهم الذلة والسكينة من اليهود أو الانباط سكان البلاد الاصليين فضلا عن امتناع هذه التجارة على المسلمين لتحريم الخمر عليهم

وكانت حانة ذلك النبطى عبارة عن غرفة من ذلك البيت في أرضها حصر عليه وسائد من الخيش محشوة بالقش وفي جدران الغرفة كوى كالجيوب فيها أدنان الانبذة والخمور مما صنع من العنب أو التمر أو التفاح أو غيرها من الأثمار وفوق الكوى رفوف عليها زجاجات أو أباريق وأقداح من الزجاج أو الخشب يكيل بها الخمر أو النبيذ تسع الواحدة رطلاً أو نصف رطل أو ربه . وقد علق بصدر الغرفة بربطاً وعوداً ودفاً ترغيباً للمترددین عليه في أسباب السرور . ويغلب أن يكون الخمار رخم الصوت يحسن الضرب على بعض هذه الآلات أو كلها . وكان بعض الخمارين في بغداد يعملون في حانهم قينة رخيمة الصوت حسنة الصنعة جميلة الطلعة يشرب الطلاب على صوتها

أرطالا

## الفصل الثاني

### العيار والجندي

ففي يوم من أيام سنة ١٩٣ هـ مضى على ذلك الحمار نهاره ولم يأت زبون لبعده عن مركز المدينة . وكان أكثر ارتزاقه على المارة وهو طبعاً يفضل الغرباء على أهل المدينة لما يرجوه من بيعهم بالأثمان الغالية لأنهم يجهلون الاسعار ولأن الغريب أبعد عن السوم من البلدي فلا يبالي أن يدفع ثمن الرطل النبيذ خمسة دراهم على حين أن ذلك لا يدفع غير درهمين - فلما انقضى النهار ولم يأت أحد أوقد في بعض جوانب البستان ناراً ليشوي عليها سمكة أعدها لعشائه . وفيما هو ينفخ في الوقود والدخان يتصاعد على وجهه حتى يتخلل لحيته ويغشى عمامته وقد استوفز وشمر قفطانه وشكه من أطرافه بزواره اذا هو يسمع جلبية وصوتاً من باب الحان يناديه « يامعلم سمان » فخفق قلبه سروراً وأسرع فرأى رجلاً من العيارين وم كثيرون يومئذ في بغداد ومعظمهم من أهل البطالة الذين يعيشون بالدعارة والنهب ومعه رفيق . فلما رأى العيار تراجع واستعاذ بالله ولكنه تعود الكظم في مثل هذا الموقف وعلم انه لامفر له من المسيرة أو يصيبه شر فتجلد وتقدم باسم مرحباً

وكان العيار لابساً خوذة من الخوص وعلى صدره دراعة من الجلد المدبوغ عليها نقوش ملونة وهو عاري الذراعين وقد علق بكتفه الايمن بانحراف نحو خاصرته اليسرى مخللة فيها حصى وعلى حقويه سراويل من الخيش الثخين تكسوه الى الركبتين والمقلاع معلق بكوعه وهو سلاح العيارين . وكان مكشوف الساقين حافي القدمين ويده الواحدة عصاً قصيرة غليظة وبالاخرى رغيظ قد أكل بعضه وفي فمه لقمة يمضغها وهو يقول « اسقنا يامعلم »

فرحب به الحمار وعمد الى رطل صب فيه نبيذاً وناوله ونظر الى رقيقه فاذا هو بلباس الجند وهي الدراعة على ظهرها طراز الدولة « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » وعلى رأسه قلنسوة مستطيلة مدعمة بالعيدان وقد علق السيف

بمنطقته فوق قباء أسود . فتوسم الحمار بذلك الجندي خيراً لعله أن الجنود يدفعون ثمن ما يأخذونه اذا قبضوا رواتبهم . فاذا هو يشير اليه أن يعطيه رطلا . فبادر اليه وناوله ورحب به فشرب الجندي وهو واقف . ثم تجشأ ومشى متبخترأ وأما العيار فتناول القدح وأدناه من فيه وهو يقول « بورك فيك يا معلم سمعان والله اني متى صرت عريفاً أو مقداً جعلتك عياراً عندي » فقهره الجندي وتقدم الى سمعان فوضع يده على كتفه وقال وفي لهجته - جملة لانه فرغاني الاصل من ابناء الجنود الذين استقدمهم المنصور في أيامه « وأنا أعاهدك متى حدث الانقلاب القريب وقبضنا الرواتب المعلومة أعطيك ثمن هذه الارطال وزيادة وأظني مديوناً لك بشيء من قبل . . . ولكن ما العمل لايد من الصبر . . . »

فقطع العيار كلامه قائلاً « وأنتم أيضاً تشكون القلة والفقر ولكم رواتب تقبضونها ؟ »

قال « صدقت يا صاحب اننا نقبض رواتبنا ولكنها لا تفي بالمطلوب للمرأة والاولاد وهل يقوم بالجندي غير الغنائم في الحرب أو ؟ . . . » وتوقف وهو يحاول التكلم همساً خوفاً ممن يسمعه فسبقه العيار وقال « أو عند حصول التغيير والتبديل في قصر الخلافة تقبضون الرواتب وأضعاف أضعافها غير حق البيمة . ولكن طب نفسك فان ذلك قريب »

فوضع الجندي يده على فم صاحبه يريد اسكاته حذراً من الفضيحة وكان سمعان يسمع جدالها ولا يهمه مما يسمعه الا ما يتوسم من ورائه قبض دينه . فلما رآها يحاذران الكلام وهما بالباب تقدم اليهما وقال « تفضلوا وادخلوا » وأشار الى الحصير كأنه يدعوهما للجلوس فدخلوا ومد العيار يده الى البربط المعلق على الحائط فتناوله ودفعه الى الحمار وقعد وهو يقول « بلغني انك تحسن الغناء والضرب على البربط لقراءة بينك وبين برصوما الزمار . . . فاسمعنا »

فتناول سمعان البربط وهم باصلاحه وهو يتمتم « ياليتني كنت من أقارب برصوما فانه من المقربين عند مولانا أمير المؤمنين يقبض الجوائز والرواتب . . . »

فقال الجندي « لو كنت تحسن النفع بالزمار لكنت أصبت مثل حظه أو حظ ابراهيم الموصلي المعنى أو . . . ولكن أشكر الله على حالك فان التقرب من ذلك القصر لا يخلو من الخطر على الحياة ومهما يكن من حسن حظك فهل يكون أحسن من حظ البرامكة؟ وأنت تعلم مصيرهم . . . »

فقطع العيار كلامه قائلاً « أراك يا صاحبي من الفلاسفة ورجال الزهد. أما أنا فادخلني قصر الخلد واجعلني معني الخليفة أو زامره أو شاعره ولما يأتي الخطر يفرجها الله . أو اجعلني على الأقل جندياً مثلك . تتناول الراتب وأنت قاعد وإذا ذهبت الى الحرب عدت بالغنائم والاسلاب وممك السبايا من النساء الجميلات » وتضحك مبتدئاً

فابتدعه قائلاً وهو يمز رأسه « اذا عدت حياً . . . »

فاتم العيار كلامه « لماذا لم تذهب في الحملة التي سار فيها أمير المؤمنين الى ممرقند منذ بضعة أشهر لمحاربة رافع بن الليث . ألا تتوقع منها فوزاً؟ » قال « لا يعلم المستقبل إلا الله . . . وأما ذهابنا فلا يتعلق برأينا وإنما هو يرجع الى ارادة قوادنا . وزد على ذلك أن الرشيد خرج في هذه الحملة وهو مريض وأتاب ابنه محمد الامين في بغداد والامين كما تعلم كريم الخلق جواداً لا يخشى بأسه مثل أبيه وأظن هذا من حسن حظكم أيضاً لاني أرى كبيركم الحسن الهرش مقرباً من البلاط كانه صار من رجال الدولة »

فقال العيار « يظهر كذلك . . . ولكن لا يتم حظنا الا . . . ( وتلفت يمينا وشمالا وحفض صوته ) الامني صار الامين خليفة فرما حسدتي على العيسارة كما أحسدك الآن على الجنديية . . . » ثم حول وجهه فجأة نحو البستان وصاح « اني أشم سمكا يشوى »

وكان الخمار في أثناء هذا الحديث لا يزال مشتغلاً باصلاح البربط والليل قد أسدل نقابه فظهرت النار الموقدة هناك والدخان يتصاعد عنها

فوضع الخمار البربط من يده وصاح « نسيت السمكة على النار » ولم يكن له بد من انارة السراج . . . فتقدم الى سراج من الخنزف موضوع على مسرجة مسمرة بالحائط فأصلح فتيلتها بسبابته وأخذ في انارتها فأنى بالقداحة والصوانة

والعطبة أو الصوفانة فوضع الصوفانة على طرف الصوانة وضرب عليها بالقداحة ( الفولاذ ) فخرجت شرارة أشعلت الصوفانة فأتى بعود رأسه مغموس في الكبريت وأدناه من رأس الصوفانة فاشتعل الكبريت وأشعل العود فقر به من الفتيلة فأوقدها فأضاء السراج . واغتم العيار اشتغال الخمار بهذه العملية واسرع الى السمكة فتناولها عن النار بيده وهو لا يبالي بجرارتها وهروا الى الجندي فوضعها على رغيغ بين يديه وصاح بالخمار « الى بقدحين من النبيذ القطريلي »

فقال « ليس عندي من نبيذ قطر بل ولكنني أسقيكما نبيذاً مصنوعاً من الدوشاب البستاني مع العسل » وجاءهما بخمر قوية وتناولها وهو يظهر الترحيب ويسايرها ويستعيز بالله منهما وهما يضحكان ولا يباليان وهو يشاركهما بالضحك

## الفصل الثالث

### الملفان سعدون والمهرش

وبينما هم في ضحكهم وهرجهم سمعوا رجلاً ينادى « السمك الطري أربعة أرطال عند بيطار حيان » وهي مناداتهم على السمك في ذلك العهد . فوثب وهو يقول « لقد سنحت لنا فرصة نكافئك فيها يا معلم سمعان » وتناول حصاة من الخلاة وضعها في المقلع وخرج من باب الخجارة وقال « اسرع والتقط السمك عن الارض » فعلم سمعان أن العيار سيرمي ذلك المسكين بالمقلع فأشفق عليه وأمسك العيار بيده فأوقفه عن الرمي ونظر الى البائع في الطريق وهو لا يكاد يميزه من العتمة فاذا هو فقير عارى الساقين والذراعين لا يستره الا ثوب خلق وعلى رأسه فوق العمامة طبق من القش والسمك ظاهر فوقه . فانتثر العيار من يد الخمار وقال « دعني أعوض عليك السمكة سمكتين »

فقال « أخاف أن تقتل الرجل . . لا حاجة لي بالسمك »

فضحك العيار وقال « لا تخف اني أرمي السمك فقط ولا أمس الرجل ولا طبقه وسترى » قال ذلك وأطلق الحجر من المقلع فلم تصب إلا أعلى السمك فسقط بعرضه والرجل ماش لم يشعر . وكان للعيارين مهارة عظيمة برمي الحجارة وكان بيد السمك رغيف فقال العيار للخمار « وأرمي لك الرغيف اذا شئت » فوقمت هذه الالفاظ في اذني الرجل فالتفت ولما رأى العيار ذعر ورمى الرغيف الى الارض وصاح « هذا الرغيف خذه ودعني » وولى هارباً . فأسرع العيار ومعه السمكتان والرغيف وهو يضحك فتناولها الخمار وهو يعجب من تلك الحفة ودخل ليشويهما وهو يتوسل الى الله في باطن سره أن ينقذه من تلك الورطة بالتي هي أحسن

وكان الله استجاب طلبته فانه ما علم أن سمع وقع حوافر وصلصلة لجام اتهمت عند باب بستانه وآلس سكوتاً بعد تلك الضوضاء وكان الرفيقين أصيبا بالجود فالتفت نحو الباب وعيناه تدمعان من الدخان ويكاد الدخان يحجب بصره فرأى رجلاً طويل القامة مع انحناء ذليل تدل هيئته على السكينة والوقار وعلى رأسه عمامة سوداء اللون كبيرة الحجم وقد اكتسى جبة طويلة تحتها ثوب عسلي اللون حوله زنار مشدود وهو لباس أهل الذمة في ذلك العصر وقد شك في الزناد دواة من الفضة . وكان وجهه صبوحة مع رقة ونحافة حتى يكاد يلتصق الجلد بالعظم مع بروز الوجنتين . وعيناه سوداوان براقتان تدلان على الذكاء وأنفه كبير منحرج قليلاً وله لحية كثيفة مسترسلة قد دب فيها الشيب تتصل من الجانبين بسالفين كثين . دخل الرجل وهو يتوكأ على عكاز يمينه وقد تأبط بالذراع الاخرى شيئاً تحت الجبة

فلما رآه الخمار علم انه من وجهاء الصابئة أو علماء من علمائهم فاستغرب محيئه اليه لان الحانات لا نصيب لها من أمثال هذه الطبقة من الناس فتتحنى العيار والجندى وتقدم الخمار وانحنى كأنه يستفهم عما يأمر به

فقال الرجل بصوت خشن هادئ « أليس هذا خان المعلم سمان ؟ »  
ففرح الخمار باشتهار اسمه على السنة أكرم القوم وقال « نعم يا سيدي »

قال « وهل في بستانك مكان للاستراحة ؟ »

قال « نعم يا مولاي تفضل . . . »

فدخل الخمار مهرولاً نحو البستان ودخل الرجل في أثره وهو يقول له « اذا سألك المقدم الهرش الليلة عن الملفان سعدون قل له انى في انتظاره هنا » — والملدان رتبة علمية عند السريان تقابل ( دكتور أو علامة ) اليوم وكان العيار والجندي واقفين ينظران الى الرجل فتذكر العيار أنه رآه قبل هذه المرة فلما سمعه يذكر الهرش مقدم العيارين أجفل وتذكر أنه شاهده مع الهرش غير مرة فرأى حينئذ من الحكمة ان يخرج من ذلك المكان قبل مجيء مقدمه . فتحول وخرج وأما الجندي فأحب البقاء ليطلع على ما عساه أن يكون من هذا الاجتماع وهو يندر في مثل هذا المكان خارج المدينة يجلس على وسادة فوق الحصير بقرب الحائط وجعل سيفه في حجره والحائط بينه وبين البستان

أما الخمار فسره قدوم ذلك الصابئ وما يتوقعه من قدوم الهرش فربما تعشياً هناك أو شرباً فيقبض منهما ما يعوض خسارته في ذلك المساء فأسرع بين يدي الرجل وكان هذا لطول قامته يخاف ان تعلق عمامته ببعض الاغصان فشئ مطأطئ الرأس حتى وصل الى مصطبة مطلة على نهر جعفر تظللها شجرة كبيرة وفوق المصطبة حصير عليه وسادتان فأجلسه الخمار هناك وهرولاً راجعاً حتى أتى بالسراج الذي كان في الحانة فوضعه على أرومة شجرة بجانب المصطبة كان قد قطعها منذ أيام وسأل سعدون هل يحتاج الى شيء من طعام أو شراب فقال « كلا » واتكأ على إحدى الوسادتين ووضع العصا بجانبه واستخرج من كمه جراباً صغيراً وضعه بين يديه . فتركه الخمار وعاد ومكث الرجل جالساً يتشاغل بتمشيط لحيته بأنامله ويستأنس بعينين ساقية تدور في بستان قريب

ولما رجع الخمار الى الحانة أتى بسراج آخر أضاهه فرأى الجندي وحده هناك فسأله عن رفيقه فقال « انه فر خوفاً من أميره الهرش . وما رأيك بهذا الصابئ اظنه سيعوض عليك ما خسرتة علينا . . . »

قال « إن شاء الله »

فقال الجندي « لا بد من سبب هام لالتقاء هذا والهرش هنا »  
قال سمعان إنى أرجو ذلك وهؤلاء الصابئة أهل سحر ونجامة لا تخفى عليهم  
خاية ولعل الهرش بما اشتهر به من كشف الخبآت انما يستعين على كشفها بسحر  
هذا الصابئ »

فبز الجندي رأسه وأوماً بعينه أن ( نعم ) وأصبح خائفاً من أن يطلع  
سعدون بسحره على أفواله فيؤذيه فسكت . واشتغل الخمار عنه بالتقاط ما وقع  
في أرض الخانة من آثار الأكل والشرب استعداداً للحجىء الهرش  
ثم ما لبثا ان سمعا فرس الصابئء يصهل صهيلاً قويا وكان مربوطاً بجانب  
الطريق يحرسه غلام وأجابه صهيل مثله عن بعد فاستبشر الخمار ان أناساً من  
أهل الوجاهة قادمين اليه ثم اقتربت اليه الاصوات واتضح وقع الحوافر واذا  
بفارس وقف بالباب وبين يديه غلام بلباس الميارين الذى ذكرناه وهو ينادي  
« يا معلم سمعان ... »

فاسرع الخمار وقال « نعم » ونظر الى الفارس فرأى لبسه فاخراً وعلى  
رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة وسراويله قصيرة وقد تقلد السيف وحول  
ساقيه لفائف من الجلد ( طهاقات ) الى الكعب فوق النعال فقال الغلام « هل  
جاءك الملفان سعدون ؟ »

قال « نعم هو في هذا البستان » وعلم للحال ان الفارس هو الهرش  
مقدم الميارين فتقدم وأمسك بلجام الفرس والركاب حتى ترجل الهرش ومشى  
وكان قصير القامة ممتلىء الجسم ومع ما يظهر من كهولته لا يزال سريع الحركة  
قوى البدن اذا مشى تبخرت تهاً وخيلاء وكان غليظ الشفتين خفيف  
الاجية والشاربين أشبهما وعلى جبهته ندبة غائرة من أثر جرح أصابه في صباح  
في بعض المعارك كاد يقضي عليه وهو يفاخر أقرانه بهذا الاثر . وكان كبير  
العينين لا يبرح الاحمرار ظاهراً فيهما كأن صاحبهما ناهض من رقاد  
عميق . واذا علمت ان الرجل أمير الميارين هان عليك الحكيم على اخلاقه  
والميارون يرتزقون بالسرقة والنعدى ونحو ذلك والحكومة ساكتة عنهم

لانها كثيراً ما كانت تستعين بهم في بعض الاحوال واذا أعانوها وأخلصوا لها نفعوها لانهم أقدر الناس على كشف أخبار الدعارة وتتبع اللصوص . وكانت الحكومة يومئذ تستعين بهؤلاء وأمثالهم حتى باللصوص أنفسهم وكان عندها طائفة منهم تابوا عن اللصوصية ففرضت لهم الرواتب وسمتهم التوابين تزعم أنها تستخدمهم في كشف السرقات (١) ويندر ان يخلصوا لها الخدمة والغالب أن يشتركوا مع اللصوص عليها — وتكثر أمثال هذه المفسد في الحكومات الاستبدادية اذا ضعف صاحبها وطمع رجاله بالأموال وفقدت النيات وأصبح الناس عيوناً بعضهم على بعض

## الفصل الرابع الكيمياء

أما الهرش فدخل البستان ووقف غلامه بالفرس في منعطف الطريق . وأسرع الخمار في أثر الهرش حتى أوصله الى المصطبة فوقف له الملقان ورحب به والهرش يهش له ويدش حتى جلس الى جانبه وأشار الى الخمار انهما لا يحتاجان الى شيء . ففهم أنهما يريدان الخلوة فرجع حالا وأشار على الجندي أن ينصرف لئلا يكون وجوده باعثاً على شك فانصرف آسفاً

أما الهرش فنظر إلى رفيقه وتبسم قائلاً « أظني أبطأت عليك »

قال « لم يطل انتظاري الا قليلا »

قال « اني في شوق الى رؤيتك ولولا ذلك لم أستطع الحجيء اليك ولا سيما

اليوم لغياب أمير المؤمنين الرشيد عن بغداد »

فقال « أليس ابنه الامين مكانه فيها ؟ »

قال « بلى . ولكن هذا الغلام — وأنت أعلم مني طبعاً — لا يستطيع

ضبط الامور كما يضبطها أبوه فضلاً عن اشتغاله بالجوارى والغلمان والكاس

والطاس . . فتراني لا أخرج من منزلي إلا قليلا وترى رسول صاحب الشرطة

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٤٦ ج ٥

ذاهباً جانياً يحمل الى الاسئلة عن بعض الغوامض كائني الملقان سعدون الصابي .  
الحراني أضرب المنديل واستطلع الغيب بالنجوم . . . » قال ذلك وضحك وهو  
انما أسرع الى ذكر الرجل لينقل الى الغرض الذي جاء من أجله . فادرك سعدون  
غرضه وتجاهل قائلاً « العفو أيها الامير ان ما يستطيعه مقدم العيارين يعجز عنه  
مثلي وأنا اذا عرفت شيئاً فيدلني عليه الكتاب والحساب وأما أنت فتعرفه  
بفراستك وشجاعتك »

فأعجبه ذلك الاطراء فقال « هب اني اعرف كل شيء فيكفيني عجزني  
عن معرفة مقرك لاني قلما ابحث عنك واجدك الا اذا كنا على موعد »  
قال « ذلك لا يدل على عجزك بل هو من سوء حظي لان اشتغالي بالكيمياء  
فضلا عن المنديل والنجامة يقضي علي بالانزواء معظم الايام ولذلك رأيتني تركت  
أهلي وهجرت حران لئلا يشغلوني عن عملي . وقد طال بعدي عنهم حتى  
أصبحوا لا يعرفونني ولا يدرون مقري ولو سألتهم عني لانكروا أمري »  
ففرح الهرش بتطرق الرجل الى ذكر الكيمياء ليسأله عما فعله بقطعة من  
النحاس دفعها اليه منذ أيام ليطبخها له ويحولها الى ذهب فقال له « أظنك طبخاً  
ذسيت صديقك الهرش ولم . . . »

فقطع سعدون كلامه قائلاً « كلا اني لا انسى مولاي المقدم وابشره ان  
حظه في أسنى الطوالع لاني وقتت في طبخ نحاسه توفيقاً غريباً يندر مثله . »  
فاستبشر الهرش بالغنى القريب لانه كان قد دفع اليه قطعة كبيرة من  
النحاس فاذا صارت ذهباً اعطاه غيرها حتى يصير غنياً فلم يتمالك عن القول  
« هل صحت الطبخة ؟ »

فتبسم سعدون ومد يده الى ذلك الجراب وحلله واستخرج منه سبيكة من  
الذهب الابريز وهو يقول « نعم ياسيدي وهذه هي القطعة التي جربتها ومتى  
نضج الباقي دفعته اليك » ثم قال همساً وهو يناوله السبيكة واظنني لا احتاج  
الى تنبيهك ان تكتم ذلك عن سائر الناس فاني لا أحب ان . . . وأنت تعلم  
السبب »

فتناول المرش السيكة وادناها من لبيب السراج وتفرس فيها فاذا هي ذهب لا ريب فيه . على أنه خاف أن يكون في الامر خداع لانه تعود الخادعة وانداجاة وكاتنا رايجتين في ذلك العصر لفساد النيات وتجسس الناس بعضهم على بعض . وهو أكثر أهل بغداد اطلاعاً على ذلك لان منصبه يسهل عليه كشف الاسرار فجعل يروز تلك السيكة بيده ليمتحن وزنها . فلما رأى سعدون شكه قال بهدوء ورزاقته وفي صوته لهجة العتاب « لاشك ياسيدي . فاذا بعثها في سوق الصياغ غداً تعلم صدق قولي . . ولا ألومك على الشك لان الناس لم يتعودوا الصدق ولا تحققوا نجاح الكيمياء إلا قليلا ويغلبني من يصح طبيخه أن يستأثر بالذهب لنفسه . . »

فجعل المرش لهذا التوبيخ اللطيف وزاد احتراماً للملطان سعدون وثقة به وأسرع للاعتذار فأنكر ارتيابه وقال « حاشا لي أن ارتاب بصدقك ولست حديث العهد بمعرفتكم فكيف كشفت لي من الخبثات وأطلعتني عليه من الاسرار حتى صرت أعدك أخى بل أعز من أخى »

فقال « كيف تكون مسلماً ويكون أخوك صابئاً ؟ هل ترضى ذلك لنفسك ؟ »  
وضحك وهو يلف درجاً كان يقبله في أثناء الحديث وجعله في الجراب الذي استخرج السيكة منه

أما المرش فأدرك أنه يمازحه فقال « اذا كان الصابئة كلهم مثل الملطان سعدون فانهم اخوتي جميعاً وأكرم بها من طائفة عندها علم النجوم . . و . . » ثم سكت وهو يصغى كأنه يسمع صوتاً ثم قال « كأنني اسمع قرعة لجم البريد »

وكان الصابئ قد ربط الجراب فوضعه تحت إبطه وتحفز للنهوض وهو يقول « انه بريد خراسان ومعه خبر هام . . . ألا ترى أنهياً للنهوض من قبل ؟ . . »

فازداد المرش اعجاباً بمقدرة سعدون وهمه قوله ان البريد قادم من خراسان بخبر هام . فهض وهو يصلح قلنسوته ويحمل سيفه بمنطقته ويقول « صدق من قال — ان لقرعة لجم البريد رهبة — دعني أذهب لملاقاة

صاحب البريد لعلى أستطلع منه خبراً . . . إني أسمع قرقرة اللجام تقترب من هذا المكان ،

ومشى مسرعاً وسعدون يمشي في أثره على مهل وقبل أن يصل الهرش الى باب الخان رأى بغل البريد وقف بالباب وراكبه ملثم وقد شد وسطه بهميان عريض والبغل يلهث من التعب وقد تصبب العرق عن صدره وارغى بعضه تحت اللجام وصاح الفارس بالجار « استقني يا ممان »

## الفصل الخامس

### الخبر الهام

فاسرع الرجل الى كوبة ملاءها ماء ودفعا اليه وكان الهرش قد وصل فلما وقعت عيننا حامل البريد عليه ترجل قبل ان يشرب وم يتقبل يده فأوماً اليه أن يشرب ففعل ودفعا الكوبة الى الجار واقترب من الهرش فأسر اليه كلة وجعلا يتهاसान وسعدون واقف على عتبة الخانة مما يلي البستان لا يسمع شيئاً ولكنه لحظ من بغتة الهرش عند سماع كلام الرجل ان الخبر الذي يحمله من خراسان عظيم الاهمية ولم يطل تهاسهما فاعتذر البريدي وركب البغل وأطلق له العنان . فتحقق سعدون من هذه السرعة عظم أهمية الخبر وإلا لتنى حامله ان يقف هنيهة مع مقدم الميارين . فدخل سعدون الخانة فرأى الهرش مقبلا عليه والبغته ظاهرة في وجهه يمازجها ارتياح . وآنس مع انقباض أسرته ابتسامة حول فمه فأدرك بفراسته ان الخبر يتعلق بالرشيد لأنه في خراسان وقد ذهب اليها مريضاً وكان قد علم من أخبار خصوصية ان المرض اشتد عليه ولا يرجى شفاؤه . ولذلك لما سمع قرقرة لجم البريد قال إنه من خراسان يحمل خبراً مهما فترجح عنده ان البريد انما يحمل موت الرشيد فلما رأى الهرش قادماً اليه تبسم وهز رأسه وقال « لكل أجل كتاب . . . » فبغت الهرش لقوله وعده نبوءة وأمسك بيده وتنجيا على انفراد وخاطبه همساً هل علمت بموته . . وكيف عرفت ذلك ؟

قال « رحم الله الرشيد إنه مات غريباً وقد كنت أتوقع موته منذ خرج في هذه الحملة عرفت ذلك من طالعه . . وأراك سررت بموته . ويحق لك السرور كما يحق لسائر الامراء والاجناد لانكم ستقبضون رواتب جديدة - وخصوصاً أنت فانك أوفر حظاً من سائر الامراء في هذا الشأن لان الامين اذا تولى الخلافة زاد في تقريتك . . » وتنحج وتظاهر أن السعال شغله عن آتمام كلامه

فتناول المرش الحديث عنه وقال « ولكن حامل البريد مع ثقته بي ورغبته في ارضائي كتم عني خبراً آخر قال انه في غاية الاهمية واعتذر انه لا يقدر أن يقوله لي الآن وانني سأعرفه قريباً . . »

فقطع سعدون كلامه وقال « لاشك انك ستعرفه لانه سينشر على رؤوس الملائم ولو كان كتاب المندل معي لاستطلعته في هذه الدقيقة ولكن . . » وتحفز للخروج كأنه يستعجل في الذهاب لعمل المندل ونادى غلامه أن يأتيه بالفرس فاستوقفه المرش قائلاً « أراك مسرعاً وأنا في حاجة اليك . . »

قال « اني رهين ماتريد ولكنني أحب الاطلاع على بقية الخبر . » فقال « حسناً ولكننا تواعدنا على الاجتماع هنا لتتكلّم فلم يطل مقامنا وزد على ذلك أن اخانا علي بن عيسى بن ماهان صاحب الشرطة يجب أن يراك لانني كثيراً ما ذكرتك بين يديه وحكيت له عن معجزاتك . . »

فقطع كلامه قائلاً « اخاف انك ذكرت الكيمياء . . » فضحك المرش وهو يتشاغل برفع حمائل سيفه وقال « الكيمياء ؟ . كلا ولكنني قصصت ما أنت عليه من المهارة في النجامة والمندل فرأيت فيه ميلاً لرؤيتك وأوصاني ان آتية بك واظنه يفيدك لانه صاحب شرطة بغداد وله شأن كبير ولا سيما بعد هذا الخبر فان مولانا الامين يعول عليه ويحبه . . وهذه فرصة لي ايضاً لأكافئك على حسن صنعك . . »

فاطرق سعدون هنيهة وهو ينتف عشونه وينكت الارض بعكازه ثم قال « دعني أذهب وأعود اليك بالخبر الليلة اذا شئت »

قال « اذا كنت تقدر على الرجوع الليلة فلا بأس من ذهابك ولو جئت

في منتصف الليل فانك تجدني في قاعة العيارين بالحربية وانت تعرفها . ومق  
جئتني أسير معك الى منزل صاحب الشرطة وسيكون ساهراً . ولا أظنهم  
ينامون الليلة اذا بلغهم ما بلغنا من أمر الرشيد لان موته سيحدث تغييراً مهماً  
أرجو ان يكون لي منه نفع . . . ولك أيضاً . . . » قال ذلك ومد يده الى يد  
سعدون كأنه يحياه ثم نادى غلامه فجاء وهو يحمل صندوقاً صغيراً وعصا  
وملاءة مما قد يحتاج اليه الهرش في أثناء الطريق فأشار اليه أن يدفع للخمار  
فدفع اليه صرة صغيرة فيها دراهم فأثنى الخمار وهول وأكب على يد الهرش  
يقبلها فمنعه فالتفت سعدون اليه وقال « هل جاء الامير الهرش اليك الليلة ؟  
فأدرك الخمار انه يعرض برغبته في كتمان ذلك فأجابه « كلا يا مولاي  
ولا اللفان سعدون . كن مطمئناً »

فالتفت الهرش الى سعدون وهو يضحك فقال سعدون « اركب انت  
أمامي ثم اركب أنا حتى لا نترك أثراً لاجتماعنا »  
فقال الهرش « اراك تبالغ في الكتمان يا صديقي وليس في ما فعلناه ما  
يوجب هذا التستر . . . ولا كان ثمة باعث لخروجنا الى طرف المدينة لهذا  
الاجتماع . . . »

فقال وهو يخفض صوته « يهمني التكتّم بأمر الكيمياء فقط . . . واني  
أرى للجدران آذاناً وللشوارع ألسنة فاعذرني . . . »  
فقال حسناً وركب الهرش ومشى الغلام بركابه في شارع خراسان غرباً  
نحو الجسر ومنه غرباً جنوبياً نحو الحربية  
فلما تحقق سعدون ذهابه ركب وأدار شكيمة جواده جنوباً شرقياً نحو  
المحرم يلتصق القصر المأموني

## الفصل السادس

### القصر المأموني

كان هذا القصر على عهد قصتنا هذه في جنوبي القسم الشرقي من بغداد فوق قصر الامين وكلاهما ظاهر في الخارطة . وكان يسمى قبلا القصر الجعفرى نسبة الى جعفر البرمكى وزير الرشيد . والسبب في بنائه أن جعفرأ كان شديد الشغف بالشرب والغناء كما يتضح من مطالعة رواية « العباسة أخت الرشيد أو نكبة البرامكة » وكان أبوه يحيى رجلا جليلا ذا رأي وعقل وكان يخاف على ابنه عاقبة هذا التهتك فنهاه فلم يذته فأوصاه أن يستتر عملا بالحديث المأثور فإني . فلما أعيته الحيلة في رده قال له « ان كنت لا تستطيع الاستتار فأتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقي من بغداد ( وكان لا يزال ذلك الجانب قليل العمارة ) واجمع فيه ندماءك وقيانك واقض فيه معهم زمانك وابعده عن عين من يكره ذلك منك »

فقبل جعفر هذه النصيحة وأمر ببناء قصره بالجانب الشرقي كما تقدم وبذل في بنائه مالا كثيراً . فلما تم بناؤه سار اليه في جماعة من أصحابه فيهم صديق غلص له اسمه مؤنس بن عمران وكان عاقلا فظافوا القصر كلهم واستحسنوه ولم يبق منهم أحد لم يقرظه ويمدحه بما يبلغ اليه امكانه إلا مؤنسا فإنه ظل ساكتا فقال له جعفر « مالك ساكتا لا تتكلم وتدخل معنا في حديثنا ؟ »

فقال « حسي ما قالوا »

فأدرك جعفر أن تحت قوله شيئا يكتمه فقال « لقد أقسمت لتقولن شيئا »

فقال « أما اذا أبيت إلا أن أقول فلك علي ذلك »

قال « نعم واحتصر »

فقال « أسألك بالله ان مررت بدار بعض أصحابك ورأيتها خيرا من

دارك هذه ما كنت صانعا؟ « يشير الى ما كان في نفس الرشيد علي جعفر من ا كبار ما بلغ اليه من الثروة والنفوذ دونه «

ففهم جعفر مراده فقال « حسبك قد فهمت فما الرأي ؟ »  
قال الرأي « اذا صرت الى أمير المؤمنين وسألك عن تأخرك فقل انك كنت في القصر الذي بنيت لمولانا المأمون واجعل انك بنيت له «

فاعجبه رأيه وأقام في القصر بقية ذلك اليوم ثم ذهب الى قصر الخلد ودخل على الرشيد وكان الجواسيس قد نقلوا اليه خبر بناء ذلك القصر ولم يكن في قصور الخلفاء مثله فقال له « من أين أتيت وما الذي أخرجك الى الآن ؟ »  
قال « كنت في القصر الذي بنيت لمولاي المأمون بالجانب الشرقي على دجلة «

فقال الرشيد « للمأمون بنيت ؟ »

قال « نعم يا أمير المؤمنين لأنه في ليلة ولادته جعل في حجري قبل ان يجعل في حجرك واستخدمني أبي له فدعاني ذلك الى ان اتخذت له بالجانب الشرقي قصراً لما بلغني من صحة هوائه ليصح مزاجه ويقوى ذهنه ويصفو . وقد كتبت الى النواحي باتخاذ الفرش لهذا الموضع وبقي شيء لم يتهيأ اتخاذه فعولنا به على خزائن مولانا أمير المؤمنين إما عارية أو هبة «

فلما سمع الرشيد قوله سرى عنه وأسفر وجهه ووقع منه بموقع القبول وقال مسرعاً « بل هبة . أبي الله أن يقال عنك إلا ما هو لك أو يطمئن عليك إلا ليرفعك ووالله لا يسكنه أحد سواك ولا أتم ما يعوزه من الفرش إلا من خزائننا « وزال من نفس الرشيد ما كان يخامرهم وظفر جعفر بالقصر على أهون سبيل ولم يزل يتردد اليه أيام فرحه واقبال سعده وسمى « القصر الجعفري «

فلما أوقع الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ واستباح قصورهم وأموالهم انتقل هذا القصر إلى المأمون بن الرشيد وهو ولي عهد المسلمين بعد الامين فاحبه المأمون وهو يومئذ في أوائل الشباب وصار أحب المواضع اليه وأشهاها لديه وأخذ في توسيعه من جهة البرية فأضاف اليه قطعة من الارض عملها ميدانا

لركض الخيل والحلبة في أيام السباق واللعب بالكرة والصولجان وبنى في جوانب القصر حيزاً حبس فيه أصناف الوحش من السباع وغيرها وفتح له باباً شرقياً يشرف على البرية وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى وابتنى مثله وقريباً منه منازل برسم خاصته وأصحابه وسمى القصر من ذلك الحين «القصر المأموني» وعرفت تلك الجهة بجهة المأمونية وصار فيها بعد ذلك شارع اشتهر بهذا الاسم في بغداد ولهذا القصر تاريخ طويل (١)

## الفصل السابع

### الفضل بن سهل

وكان المأمون وهو ببغداد في أثناء ولاية العهد الى سنة ١٩٢ هـ قد أسكن فيه الفضل والحسن بنى سهل ولهذين الرجلين شأن في تاريخه . فلما عزم الرشيد على خراسان لمحاربة رافع بن الليث في ما وراء النهر وكان قد ثار على الدولة وعجز العمال والقواد عن اذلاله حمل الرشيد عليه بنفسه واستخلف على بغداد ابنه الأمين والياً عليها وأمر ابنه المأمون ان يبق فيها وكان قد أوصى له بخراسان يتولاها بعد موته ريثما تفضي الخلافة اليه اذا مات الامين

والفضل بن سهل فارسي من سرخس ذو مطامع في السلطة وفي نفسه نعمة على الرشيد لأنه قتل جعفر البرمكي غدرًا كما نقم عليه سائر رجال الفرس وتعاقدوا سرًا على الأخذ بالتأر فتوجهت آمالهم الى المأمون لأن أمه فارسية وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل الى الشيعة العلوية وهي جامعة الفرس . وكان يحيى والد جعفر قد اختار الفضل بن سهل لخدمة المأمون وكان الفضل مجوسياً فأسلم على يده طمعاً بنصرة الفرس وكان المأمون يجله ويقدمه

فلما سافر الرشيد في تلك السنة وطلب الى المأمون البقاء في بغداد خاف

الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرًا فجاء الى المأمون وقال  
« لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد الامين المقدم عليك  
وان احسن ما يصنع بك ان يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواله بنو هاشم  
وزبيدة وأموالها كما تعلم فاطلب الى امير المؤمنين أن تسير معه »  
فطلب المأمون ذلك من أبيه فامتنع أولاً ثم أجاب وذهب معه الفضل  
وأخوه الحسن

وخلف المأمون بعض أهله في ذلك القصر ومعهم الخدم والعبيد وعليهم  
قيم يتولى ادارة شؤون بيت المأمون وأمواله وضياعه

وكان القصر المأموني نفسه على شاطئ دجلة الشرق واجهته تشرف على  
النهر ولها شرفات ورواشن وفي قاعات القصر أنواع الفرش المذهبة والتمارق  
المقصبية المحمولة من الانحاء البعيدة وقد زخرفت أبوابه بالستور وملئت خزائنه  
بأنواع الطرف مع ما تحتاج اليه القصور من الجوارى والخدم والحصيان وهم  
يعدون يومئذ من ادوات المنزل التي لا بد منها

وكان للقصر مما يلي دجلة مسناة من رخام ترسو عندها السفن يعدون  
اليها من الماء بدرجات من الرخام عريضة يحدها من الجانبين جدران من  
أساطين غليظة ( درابزون ) يظهر مما عليها من النقوش الفارسية أنها كانت  
لبعض الابنية الكسروية وحملت الى هناك . والمسناة عريضة تمتد من حافة  
الشاطئ الى سور القصر عند بابيه الغربي . وبين يدي الباب ردهة فسيحة  
ربما فرشوها بالطنافس ونصبوا في جوانبها المقاعد لجلوس الناس اذا أرادوا  
مشاهدة مجرى دجلة وفيه السفن تمر صاعدة أو نازلة

وكان المأمون لما سافر مع ابيه في ذلك العام قد خلف في القصر ابنته  
زينب وتكنى أم حبيبة وهي يومئذ في إبان الصبا لم تدرك الثانية عشرة من  
العمر وكانت مثل أيها ذكاء ونباهة واستقلالاً في الفكر ومثل جدها الرشيد  
أنفة وتعصباً لبني هاشم . وكانت مع صغرسنها قوية الارادة مستبدة في رأيها وكان  
أبوها يعرف فيها ذلك وهو لا يريد تلك العصبية لرغبته في اصطناع الفرس .  
فعهد بتربيتها الى الجارية التي ربته هو وأصلها من جوارى البرامكة في إبان

بجدم واسمها دنانير . وذلك ان المأمون لما جعل في حجر جعفر كما علمت عهد به في طفولته الى تلك الجارية وأوحى اليها رغبته في تربيته على حب الفرس فنشأ المأمون على ذراعيها وشب وهو يحترمها ويراعي جانبها ولما ترعرع أخذها اليه وجعلها في حمة جواريه . فلما ولدت ابنته زينب عهد بها الى دنانير وأوصاها أن تربيها على حرية الفكر وحب الفرس فبذلت جهدها في ذلك . ولكن الرشيد كان مولعاً بحفيدته هذه وهو الذي سماها زينب وكنائها أم حبيبة وكثيراً ما كان يستقدمها اليه في ساعات الفراغ ويداعبها ويهدئها العقود والاساور فكانت تشهد مجالسه الخصوصية مع امرأته زبيدة وهي كثيرة المفاخرة بنسبها الهاشمي فكانت زينب تسمع ما يدور بينهما من إعظام بني هاشم فينفرس ذلك في خاطرها عفوفاً فنشأت شديدة العصبية لهم رغم ما كانت دنانير تحاوله من نزع تلك العصبية . على أن زينب كانت تحب مربيته وتحترمها وترتاح الى حديثها ولم تكن تكتمها أمراً يخالج ضميرها

## الفصل الثامن

### أم حبيبة ودنانير

وكانت الفتاة سريعة النمو جسماً وعقلاً يحسبها الناظر اليها تناهز السادسة عشرة وهي لم تدرك الثانية عشرة . وكانت صبيحة الوجه سوداء العينين براقهما صغيرة الانف غائرة الشفتين بارزة الدقن يدل مبدعها على الثبات ورباطة الجأش وقوة العزيمة وعيناها تدلان على الذكاء وسرعة الحاظر . وكانت دنانير قد ربتهما على سداجة المعيشة ونزهتها عما كانت الرغبة منصرفة اليه يومئذ من التبرج والبذخ فكانت تقضى النهار ليس عليها من الثياب الا رداء ساذج وقد ضفرت شعرها صغيرة واحدة تسلسها على ظهرها أما دنانير فقد نشأت في منزل يحيى بن خالد البرمكي وكانت صفراء صادقة الملاحظة أصلها لرجل من اهل البصرة خرجها وأدبها ورواها الشعر ثم اتصلت بيحيى البرمكي وهي فتاة فريبت في منزله — وهي غير دنانير المغنية التي اشتهرت

بالغناء وحفظ الشعر . أما هذه فكانت مبالغة الى المسائل العقلية وكان مجلس يحيى لا يخلو من بحث أو مناظرة في علم أو أدب — وكذلك كان سائر البرامكة فانهم أول من نشط العلم في العصر العباسي . ولما لم يحيى بترجمة المجسطى الى العربية استقدم المترجمين اليه وكانت دنانير تسترق الاجتماع بهم وكثيراً ما كانوا يرونها مصغية لتستمع ما يتذاكرون فيه من المسائل الفلكية وأحكام النجوم في أثناء الترجمة ورفيقاتها الجوارى يضحكن منها ويعيرنها برغبتها في علوم يعدونها من قبيل الرموز الغامضة التي لا يقدم على حلها إلا قهارمة العلم من اهل الذمة . وكانت المسائل الفلسفية حديثة العهد يومئذ في العربية اذ لم يكن ترجم منها غير علم النجوم وبعض كتب الطب في زمن المنصور والمهدي والرشيد . على أنها كانت تستفيد تلك المسائل مما يدور بين جلساء يحيى قبل نقلها الى العربية واشتهرت بين جوارى البرامكة بحب العلم والتعقل . ولذلك فلما صار المأمون في حجر جعفر وعهد بتربيته اليها كانت وهي تلاعبه في الحديقة تحمل معها قرطاساً أو ورقاً عليه رسوم فلكية أو مسائل طيبة تراجعها وأول ما فتح عينيه وصار في سن الاستغراب والاستفهام لم يكن يبأها عن شيء إلا فسرت له بتعقل . ثم أخذت في تلقينه المسائل على قدر ما يتحمه سنه — لم تكن تفعل ذلك رغبة في تعليمه بل تلذذاً بالعلم فان حب العلم يلتذ بالقائه الحقائق كما يلتذ بتلقيها

فلم يتزعزع المأمون ويثن تسليمه الى المعلمين حتى تولد فيه الميل الى البحث عن الاسباب والتماس البرهان عن كل شيء . فجزء ذلك الى الاعتزال والتشيع مع الرغبة في العلم والفلسفة حتى كان ما كان من نقله كتب الاقدمين على ما هو مشهور

ونشأ المأمون على احترام دنانير احترام الولد لوالدته . وكثيراً ما كان يجالسها في ساعات الفراغ ويباحثها في بعض المسائل ويسر من تعقلها . فلما ولدت ابنته زينب سلمها اليها وهو على ثقة أنها تربيتها كما يحب وكانت زينب كثيرة الشبه بوالدها من حيث الرغبة في البحث واستطلاع الاسباب فلم تكن دنانير تدخر وسعاً في ترقية مداركها فشبت وقدمات والنتها فكانت

تسمى مريبتها « ماما » فلا تنادىها إلا بهذا الاسم . وربما أحبها أكثر من حبها لوالدها لاشتغال المأمون عنها بأمره . على ان الآباء يومئذ قلما كانوا يعاشرون أبناءهم وإنما يعهدون بتربيتهم الى الجواري فتربت زينب تربية فلسفية فنشأت لا تبالي الا بحقائق الامور وطرحت ما كان يتسابق اليه أترابها من اللعب والقصف وبلاط الخلفاء مسرح واسع لاسباب اللهو يومئذ حتى في القصر المأموني نفسه . فقد كان فيه كثير من وسائل اللعب يتمتع بها الجواري والخدم وزينب لا تميل الى ذلك ولا تتخالط من الخدم غير مريبتها فكانت ألزم لها من ظلها تصاحبها حينما توجهت فتخرج معها الى الحديقة لقطف الأزهار وتخرج الى بيوت السباع لتشاهدها في اقفاصها والسباعون يقدمون لها الطعام من قطع اللحم الكبيرة واذا أعوزها اللهو تشاغلت بالشطرنج وكانت هذه اللعبة حديثة العهد في بلاط الخلفاء لان الرشيد أول من لعبها منهم وكانت دنانير تجيد اللعب بها وربما شغلت بها زينب أحيانا . أو تخرجان معا نحو الباب الغربي عند المسناة فتجلسان في روشن أو شرفة تنفرجان من بين الستور بمشاهدة السفن المارة في دجلة وكثيراً ما يكون الجلوس هناك مطرباً لكثرة من يمر من اهل القصف والطرب ومعهم المغنون والعوادون

## الفصل التاسع

### الطبيب الخراساني

فاتفق في اليوم الذي بدأنا به روايتنا ان زينب كانت جالسة مع مريبتها في شرفة فوق المسناة تطل على دجلة وعليها رداء وردي اللون وفي عنقها عقد من اللؤلؤ أهداه اليها جدها الرشيد قبل سفره ودار بينهما الحديث في مسألة تتعلق بالطوالع والابراج وأشكل فهمها حتى على دنانير فقالت « ان هذه المسألة من المسائل العويصة فمضى جاء طبيبنا سألناه عنها . . . »

قالت « وهل يفهم الاطباء بالنجوم ؟ . . »  
 قالت « يغيب في الطبيب أن يعرف كل علم ولاسيا أطباء الفرس وخصوصاً  
 طيبينا فانه من نوابغ الفلاسفة وقهارمة الاطباء .. وو... »  
 فضحكت زينب مرء فيها ضحكة فتاة لا تعرف من الدنيا غير أسباب  
 السررات وقالت والاستغراب ياد في عينيها « فاذاً هو أعلم منك ؟ . » قالت  
 ذلك لاعتقادها ان مربيها أعلم أهل الارض — شأن الناس في من  
 يشبون في حجره أو يتلقون العلم عنه فالاولاد يعتقدون الكمال في والديهم  
 أو مربيهم ويتوهمون ان معلمهم من كبار الفلاسفة ولو كانوا أجهل من قاضي  
 جبل . فيروون عنهم ويستشهدون بأقوالهم ويعظمون من أمرهم فاذا كان  
 المعلم صغير العقل صدق تلميذه واعتقد في نفسه الفضل على العلماء والحكماء وقد  
 يكون علمه محصوراً في مبادئ الصرف والنحو فيتوهم انه لا يشق له غبار  
 فيزداد غروراً

أما دنائير فكانت تعلم حقيقة منزلتها فلما سمعت زينب تطرى علمها ابتسمت  
 وقالت « ويلاه يا سيدتي اني لا أعرف شيئاً وانما التقطت بعض المسائل من  
 أفواه العلماء . وأما هذا الطبيب فقد تفقه في الطب والفلسفة بمدرسة جندي  
 سابور المشهورة التي تخرج بها ابن بختيشوع طبيب أمير المؤمنين . ولكنه  
 اعلم منه بأمر كثيرة ولاسيا بالكيمياء والنجامة ولولا ذلك لم يهتم الفضل  
 ابن سهل بأمره حتى يوصي مولاي المأمون به .. »

فقطعت زينب كلامها وقالت « الفضل بن سهل أوصى به ؟ ومتى كان  
 ذلك ؟ أليس الفضل مع والدي الآن في خراسان »

قالت « نعم هما معاً هناك وأما هذا الطبيب فانه جاءنا منذ بضع سنين  
 بتوصية من الفضل بن سهل ذكر فيها انه نايغة خراسان في الطب والعلم حتى  
 انك لترين ذلك ظاهراً في وجهه . . »

فقالت « فلماذا لا يقيم عندنا دائماً ؟ هل منعه والدي من ذلك .. »

قالت « كلا ولكنه اعتذر لمولاي المأمون من يوم مجيئه انه لا يستطيع  
 الاقامة عندنا لاسباب له خصوصية فاطاعه ... »

فقلت « وأين يقيم إذا؟ ... »

قالت « بلغنى أنه يقيم في المدائن كأنه استأنس بجوار إيوان كسرى أعظم ملوك الفرس وأعد لهم . وطيبنا فارسى ... »

قالت « عرفت أنه فارسى من كلامه فانه حتى الآن لا يحسن النطق بالعربية ولو أقام هنا لتعود النطق لمخالطة البغداديين »

قالت « والمدائن قريبة منا فهى على بضع ساعات من هنا جنوبا »

قالت « قد كان ينبغي له ان يسكن هنا بعد ذهاب والدي وانتقلنا الى هذا القصر البعيد عن المدينة لتتقوى به لانه من الجبارة كما يظهر من كبر هامته . ومع كثرة ترداده علينا لا أزال الى اليوم لما يقبض على يدي ليجس نبضى أتهيب »

قالت « صدقت انه طويل القامة ولباسه المستطيل يزيد طولا وهو لطيف اللسان ؟ حسن الاسلوب قريب من القلب . لولا تغيبه عنا أحيانا بضعة أيام متوالية ربما احتجنا اليه في أثنائها ولا نجد الاطباء كثيرين عندنا لكننى شديدة الثقة بعلمه ... »

فقطعت زينب كلامها ووضعت يدها على كتفها وقالت بلحن الدلال والهدالة « قولي له يا ماما أن يسكن في أحد هذه القصور هنا . . . »

قالت « متى جاء ألتمس منه ذلك ولعله يجيب طلبى . . انى أرى سفينة صاعدة من الجنوب لعله يكون فيها »

وكانت زينب في أثناء الحديث تنظر الى مجرى دجلة وعيناها تتأملان ما على الشاطئ الآخ من النخيل القائم كالاصنام الهائلة يتراءى من خلالها في عرض الافق برفسيح تغشاء الاشجار والاعشاب تتخللها أبنية متفرقة كأنها أحجار كريمة نثرت على ديباجة خضراء . وكانت الشمس قد مالت نحو الاصيل فوقعت أظلال النخيل على الماء واستطالت وتراءت في قاع النهر معكوسة كأنها نبتت مقلوبة جذورها عند الشاطئ وسعفها غائصة في الماء وجذوعها بين ذلك تتموج بتموج سطح الماء وتظهر متعرجة كأنها مؤلفة من قطع مرصوفة بعضها فوق بعض على غير انتظام . وتوهمك اذا رأيت

تموجها ان الحياة قد دبت فيها فتلوت كالافاعي تحاول الافلات ممن قبض على أذنانها فيخيل لك أنها على وشك أن تملص جذورها من الشاطئ لتنسب في الماء

كانت زينب تتشغل بهذا المنظر في أثناء الحديث فلما استلقت دنائير انتباهها الى السفينة ظنت الطيب راكباً فيها التفتت وقالت « وهل يأتينا الطيب في الماء . . أم في البر فاني اعهدده بحيثنا على فرس ؟ . . »  
قالت « من هنا الى المدائن طريقان احدهما في البر والآخر في الماء »

## الفصل العاشر

### العجوز والفتاة

وكانتا تتكلمان وهما تنظران الى السفينة من خلال الستر فلم تعرفا من فيها . ثم توارت في أثناء جريها ببعض تمرجات النهر فاشتغلتا عنها قليلا . ثم ملت زينب الجلوس هناك وهمت بالنهوض فاذا هي تسمع قش الماء على مقربة من القصر يتخلله نقر الهواء على الشراع فالتفتت فرأت قارباً صاعداً بجانب المسناة وفيه نوتيان قد أخذوا في حل الشراع وفي صدر القارب امرأتان التفت احدهما برداء قديم قد غير الزمان لونه وسترت رأسها بنجار وظهر عياها وعليه ملامح الشيخوخة . والثانية عليها ثوب اسود فوقه خمار اسود وقد تشمت به حتى لا يظهر من وجهها الا العينان . وبعد هنيهة شد النوتيان القارب بحلقة من حلقات المسناة وألقيا خشبة بينها وبين القارب ونهضت المرأتان ومشتا وهما تتساندان حتى قطعتا الى المسناة ووقفتا في اسفل السلم والعجوز تنظر الى القصر وتجيل بصرها فيه كأنها تبحث عن مخاطبه فقال لها أحد النوتين « هذا هو القصر المأموني ياخالة »

فنهضت دنائير للحال وتقدمت حتى وقفت بالباب واطأت على القارب وهي تنفوس بالمرأتين وظلت زينب جالسة تنتظر ما يبدو منها

فما لبثت أن رأتها انحدرت على السلم مسرعة حتى دنت من العجوز واستقبلتها بين ذراعها واكبت على يدها وقبلتها بلهفة ثم اعانها في الصعود والفتاة في أثرها . وكانت زينب تتوقع كلمة تسمعها من دنائير فتعرف القادمتين فلم تسمع شيئاً فظلت صامته حتى اقبلت دنائير والعجوز تمشي في أثرها تتوكأ على عكازها ولما دنت منها تطاولت دنائير بعنقها وقالت بصوت ضعيف « هلم بنا الى الداخل يا مولاتي »

فنهضت زينب ودخلن جميعاً في دهليز بين الباب الغربي والقصر حتى وصلن الى قاعة أمرت الجوارى بالخروج منها وأشارت الى العجوز ورفيقتها بالدخول فدخلتا بعد ان خلعتا نعالهما بالباب وأومأت اليهما بالجلوس جلسنا على طنفسة وجلست زينب على وسادة واقبلت تنظر اليهما وتتفرس فيهما وقد ازاحت الخمار فظهر شعر العجوز شائباً

اما الفتاة فبان عياها فاذا هي في ابان الشباب كأنها ملاك بصورة انسان رشيقه القوام بادية الطلعة وكانت قمحية اللون متناسبة الملامح تدل خلقتها على الكرامة والوجاهة ويشف لباسها عن سداجة وفقر زادا جمالها وضوحاً ومع ما يتجلى في وجهها من الكآبة والحزن ورغم ذلك الثوب الاسود وما يتلألأ في عينيها من الدمع فنضارة الشباب كانت ظاهرة فيها وكانت وهي داخله تمشي مطرقة كأنها تحاول كتمان ما في نفسها فلما جلست رفعت عينيها وفيهما دعج وسحر فوقع بصرها على زينب وكانت هذه تتفرس فيها بلهفة فلما التقي بصراها احست زينب بجاذب شديد لم تعهد مثله في أحد تعرفه مع أنها فتاة مثلها وشعرت بميل اليها وانعطاف نحوها وتذكرت كأنها رأتها من قبل

وأما العجوز مع ما كانت فيه من مظاهر النذل والحزن فأثار الانفة كانت بادية في عياها . ولما استقر بهما الجلوس التفتت دنائير إلى زينب وقالت وهي تشير الى العجوز « ألم تعرفيها يا مولاتي ؟ »

فأجابت الفتاة بعينيها وشفيتها ان « لا »

قالت وهي تهز رأسها متحسرة « إنها مولاتي أم جعفر »

فتبادر الى ذهن الفتاة لأول وهلة أنها تعني زبيدة زوج الرشيد فظهرت الدهشة لما تعهده من شباب زبيدة وهي ترى بين يديها عجوزاً طاعنة في السن فضلاً عن الفرق بينهما بالملامح . فأدركت دنائير سبب دهشتها فقالت « إنما أعني مولاتي أم جعفر الوزير وهي عبادة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة »

وكانت زينب قد علمت أن جدها الرشيد قتل وزيره المذكور غيلة وأنه أباح منازلها ولم تسمع بخبر والدته فكانت تحسبها ماتت . وغلبت العصبية الهاشمية على زينب فانتفضت نفسها وتراجعت فابتدرتها دنائير قائلة « ان لأم جعفر دالة على سيدي المأمون لانه ربي في حجرها وكانت تخدمه وتحميه وهو يحترمها وكثيراً ما كان يذكرها بعد نكبة ابنها ويود أن يراها ليكرمها . ولو علم بوجودها في قيد الحياة لاستقدمها اليه وأكرم وفادتها . . . وعزاها على ثكلها »

وكانت أم جعفر في أثناء ذلك تمسح دموعها وتتجلد حتى تخفى بكاءها أما زينب فلما سمعت قول مربيته وشاعدت بكاء تلك العجوز رق قلبها وكادت تشاركها في البكاء لولا رباطة جأشها وما سبق الى فؤادها من كره البرامكة . وكانت دنائير تعلم ما في نفس زينب فأحبت ان تبالغ في استعطافها فقالت « حتى مولاي أمير المؤمنين الرشيد مع ما تعلمينه من أمره مع ابنها فهو يحترمها ويعلي قدرها لانها ارضعته وربته بعد ان ماتت أمه عن مهده . وكان الرشيد يشاورها ويكرمها ويتبرك برأيها وطلما سمعته يناديها يا أم الرشيد . . . »

فما سمعت الفتاة ذلك قالت « فبهي إذا جدتي ؟ »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « بل أنا امتك يا سيدي وانما أكرمني أمير المؤمنين بذلك تفضلاً منه . . . ولم يصبنا ما أصابنا بعدئذ الا بتقدير العزيز الحكيم » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فرق قلب زينب لحالها وقالت مسكينة . . . أم جعفر . . . لماذا لم يراع  
 جدي خاطرك ويعف عن ابنك ؟ »  
 فقالت « ان مولانا الرشيد فعل ما فعله بوشاية الاعداء لان بعض  
 الحساد وشى بولدي وحسن له قتله والرشيد حفظه الله إذا عزم على أمر بادر  
 إلى إنفاذه ولا يسمع فيه رجاء ولا استرحاما . . . ولكن ما يفعله أمير المؤمنين  
 مقدر وينبغي القبول به قبلنا واطعنا » ثم التفتت الى دنانير وقالت « وقد  
 تمكن الاعداء من اغراء الرشيد حتى قبض على زوجي يحيى وابني الفضل  
 وحبسهما فتشفعت اليه بحرمة اللبن أن يعفو عنهما ويأمر باطلاقهما أو اطلاق  
 أحدهما فلم يفعل »  
 فقالت دنانير « وكيف فعلت ؟ »

## الفصل الحادي عشر

### الرشيد وأم جعفر

فدت أم جعفر يدها الى جيبها وأخرجت حقاً من زمردة واحدة  
 خضراء ونظرت الى دنانير وقالت وهي تفتح ذلك الحق بمفتاح من الذهب  
 « قد تشفعت اليه بما في هذا الحق من آثاره » وأخرجت من الحق خصلة  
 شعر وبضع أسنان ففاحت رائحة المسك حتى تضوعت القاعة وقالت « تشفعت  
 اليه بهذا الشعر لأنه شعره وبهذه الاسنان فانهما ثناياه وقد حفظهما منذ  
 طفولته فلم يقبل شفاعتي »

فقالت دنانير « وكيف ذلك يا مولاتي ؟ . . »

فبدأ الاهتمام في وجه أم جعفر وعادت اليها انفتها واعتدلت في مقعدها  
 وأخذت تقص خبرها قائلة :

« لما علمت بما أصاب ولدي جعفر واحسرتاه عليه وان الرشيد قبض  
 على يحيى قلت في نفسي لاذهبين الى الرشيد فاستعطفه في زوجي لهلمى بما كان  
 من إكرامه إياي فانه كان لا يخينني ولم أستشفعه في أحد الا شفعتي فكم

أسير فككت وكم مستلق فنتحت وكم . . . ، قالت ذلك وغصت بريقها فتجلدت وأتمت الحديث فقالت « ذهبت الى الرشيد وكنت أدخل عليه بلا إذن فاستأذنت فلم يأذن لي ولا أمر بشيء في . فلما طال ذلك علي خرجت كاشفة وجهي واحتفيت في مشي حتى صرت بباب قصره فلما رأني الحاجب في تلك الحال دخل وقال للرشيد « ان ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شهامة الحاسد الى شفقه فانها جاءت ساعية » فسمعته يقول له « ويحك أو ساعية ؟ » قال « نعم يا أمير المؤمنين وحافية » فصاح فيه « ادخلها فرب كبد غدتها وكربة فرجتها وعورة سترتها »

فلما سمعت قوله استبشرت بنيل مطلوبى فعاد الحاجب وأشار الى فدخلت فقام الرشيد محتفياً حتى تلقاني بين عميد المجلس وأكب على تقبيل رأسي ومواضع تديني ثم أجلسني معه فقلت « أيعدو علينا الزمان ويخفوننا خوفاً منك الاعوان ويحرضك علينا أبناء البهتان وقد رببتك في حجرى وأخذت برضاعتك الامان من عدوي ودهرى . . ؟ »

فقال لي « وما ذلك يا أم الرشيد ؟ »

قلت « ظئرك يحيى وأبوك بعد ابيك ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته واشفاقه عليه وتعرضه للحتف بشأن موسى الهادي أخيه

فرايته قطب حاجبيه وقال « يا أم الرشيد امر سبق وقضاء حم وغضب من الله نفذ »

فقلت « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »

قال « صدقت ولكن هذا مما لم يحجه الله »

فقلت « الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين » فأطرق ملياً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تميمة لا تنفع

فقلت طى الفور « ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قيل :

وإذا فتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

فتشاغل هنية بقضيب كان بيده ثم قل « يا ام الرشيد »  
 اذا صرفت نفسى عن الشيء لم تكند اليه بوجه آخر الدهر تقبل  
 فلما رأته مصراً على عزمه قلت :  
 ستقطع في الدنيا اذا ما قطعني يمينك فانظر اى كيف تبدل  
 فقال لي « رضيت »

فقلت « هبه لي يا أمير المؤمنين فقد قال رسول الله : ومن ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقده »

فاطرق ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول « لله الامر من قبل ومن بعد »  
 قلت « يا أمير المؤمنين ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . . . واذكر يا أمير المؤمنين اليك ما استشفعت الا شفعتني »

فقال « اذكرى يا ام الرشيد اليك ان لا شفعت لمقترف ذنباً »  
 فلما رأته صرح بمنعني ولاذ عن مطلبى أخرجت هذا الحق من جيبى  
 وفتحت قفله وأخرجت هذه الذوائب وهذه الشيايا وقلت « يا امير المؤمنين  
 أستشفع اليك واستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك وطيب  
 جوارحك ليحيى عبدك »

فاخذ الحق متى وثمه واستعبر وبكى بكاء شديداً وبكى اهل المجلس فما  
 شككت انه مجيبى ولكنه لما افاق التى الحق وما فيه الى وقال « لحسن ما  
 حفظت الوديعه »

فقلت « واهل للمكافأة انت يا امير المؤمنين »  
 فسكت واقفل الحق ودفعه الى وقال « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات  
 الى أهلها »

قلت « والله يقول : واذحكتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ويقولوا ووفوا  
 بعهد الله اذا عاهدتم »

فنظر الى فعلت من عينيه انه يستفهمنى عن مرادى وكنت قد تعودت  
فهم مراده من النظر في عينيه فقلت « أما أقسمت لى ان لا تعجبني ولا  
تعتهنى ؟ . . . »

فلما تذكر عهده قال « احب يا ام الرشيد ان تشتريه بحكمة فيه »  
فقلت « انصفت يا امير المؤمنين وقد فعلت غير مستقبيلة ولا راجعة عنك »  
قال « بكم تشتريه ؟ »  
قلت « برضاك عمن لم يسخطك »

فظهر الملال في وجهه وقال « يا ام الرشيد اما لى من الحق مثل الذى لهم ؟ »  
قلت « بلى يا امير المؤمنين انت اعز على وم احب الى »  
قال وهو يتزحزح من مقعده « فتحكى في تمنية بغيرم »  
فلما تحققت أنه غير مجيبى نهضت وأنا أقول له « قد وهبتك وجعلتك  
في حل منه » وخرجت ونسيت مصيبتى ونشفت دمعتى وأنت ترين دمعى الآن  
وكيف أنى أ كاد أختنق به أما في ذلك اليوم فلم تسقط لى دمعة ( ١ )

## الفصل الثانى عشر

### جثة جعفر

ولما فرغت أم جعفر من حديثها أقفلت الحق على ما فيه وجعلته في جيبها  
وهي تقول « ولم يبق لى مأرب الآن في الرجاء فان الذى كنت أتمس رضى  
الرشيد عنه ارتاح من شقاء هذه الحياة فمات في حبسه ومات بعده ابني الفضل  
بالامس وهو في سجنه بالرقه » وصحمت هنيهة وهي تمسح عينها وأطرقت ثم  
قالت « ولكن موته لا بد أن يعقبه أمر عظيم لاني كثيراً ما كنت أسمع يقول  
ان أمرى قريب من أمر الرشيد ( ٢ ) ولكننى أطلب من الله أن يطيل عمر  
أمير المؤمنين »

فخفق قلب زينب خوفاً على جدها ولكنها استحسنت استدراك عبادة

( ١ ) المقدم الفرید ٢٣ ج ٣ ( ٢ ) ابن الاثير ٨٤ ج ٦

بالدعاء له بطول البقاء وعادت الى التفكير في غرابة حديثها معه  
 كانت عبادة تقص حكايتها بلهفة وفصاحة وأم حبيبة مقبلة اليها بكل  
 جوارحها وعيناها شاخصتان تراعي حركات شفيتها وغلب عليها التأثر غير مرة  
 وأحست كأنها تجهش للبكاء ولما أتت أم جعفر على آخر الحديث انقلب  
 اشفاقها الى اعجاب واكبار لما عاينته من انفتها وعزة نفسها وأحست  
 بانعطاف اليها وشاركتها بألمها مما أصابها من الشكل والفشل وان كان مثلها  
 لا يدرك كنه المصائب ولكنها كانت كبيرة العقل والقلب تفهم وتحس أكثر  
 مما يقتضيه سننها

وكانت قد نسيت لهفتها لمعرفة رفيقة أم جعفر لاشتغالها بما تقدم فلما انتهى  
 الحديث حولت نظرها الى تلك الفتاة وجعلت تنفرس فيها والحشمة تمنعها من  
 الاستفهام فادركت دنائير ذلك وهي أشد لهفة منها لاستطلاع ذلك السر وكانت  
 في اثناء الحديث تسترق اللحظ الى الفتاة لعلها تستطلع شيئاً من أمرها فلم  
 تستطع فصبرت نفسها إلى آخر الحديث وكانت الشمس قد مالت الى المنيب  
 فامرت الخدم أن يضيئوا الشموع القائمة على المنائر في جوانب القاعة وهي شموع  
 ضخمة كانوا يتأنقون باصطناعها ويمزجونها بالعود فاذا أضيئت فاحت رائحة  
 العود وتضوع المكان بها . وعادت دنائير الى التفكير بالعرض الذي جاء  
 أم جعفر من أجله في ذلك اليوم بعد طول احتجاجها فارادت أن تسوقها الى  
 التصريح بذلك عفواً فقالت لها « انت حكايتك يامولاتي غريبة وأغرب منها  
 احتجاجك عنا كل هذه السنين والناس لا يعرفون مقرك . . فأين كنت  
 تقيمين ؟ »

فتهدت وقالت « كنت محتجبة . . لأن مثلي خليفة أن تدفن نفسها حية  
 وياليتني مت منذ عشر سنوات ولم أكابد ما كابدته من مرارة القهر والذل .  
 انت تعلمين يادنائير حالي في بيت جعفر . . . » وغصت بريقها وأطرقت  
 فاشتغلت دنائير بالحديث عنها فوجهت كلامها الى زينب قائلة « نعم ياسيديتي  
 اني أعلم الناس بما كانت عليه في أيام عزها وأذكر في عيد النحر من بعض

السنين ان مولاتي عبادة هذه كانت في بيت ابنها الوزير وعلى رأسها ٤٠٠ جارية . . . .

فقطعت عبادة كلامها قائلة « وكنت مع ذلك أعد ولدي والهفي عليه عاقاً بي . وقد مر علي في محنتي هذه ايام لا اجد جلدي شاتين أفترش واحداً وألتحف الآخر (١) . . علي ان هذا كله لم يهمني بمقدار ما همني الامر الذي جئتكم به الليلة وأظنني ثقلت على مولاتي أم حبيبة بشأنه . »

وكانت زينب قد أحبت عبادة واحترمتها ونسيت ما يكسوها من الاثواب البالية - على عادة الناس في الحكم على جلسائهم لأول وهلة فانهم يتقدرونهم أولاً بما يظهر من لباسهم وحلام فاذا اختبروهم قدروهم بمواهبهم وقوام - فخطبتها باحترام وقالت لها « معاذ الله ياسيدي فانك تنزلين عندنا على الرحب والسعة ولك كل ما تحتاجين اليه . . ( والتفتت الى دنانير وقالت ) اعطيها ياماما كل ما تحتاج اليه . . »

فوقفت عبادة وقبلت رأس زينب وقالت « شكراً لك على احسانك ياسيدي ولكن الأمر الذي جئت به اليك أم عندي مما تفضلت به وان كنت لا أستحق هذا ولا ذاك . . » فبادرت اليها دنانير قائلة « قولي فان لك كل ماتريدين - هذا ما أمرت به مولاتنا حفظها الله »

قالت « سألتني يادنانير عن احتجاجي كل هذه السنين عن بغداد . . ؟ كيف أقيم في مدينة أرى فيها جثة ولدي معلقة على جسورها وقد شطروا الجثة شطرين صلبوا شطراً على أحد الجسور والشطر الآخر على الجسر الثاني وعلقوا الرأس على الجسر الثالث ليراها المارة صباح مساء . . ألم تبقى جثة جعفر معلقة على هذه الجسور سنتين وبهض السنة حتى عاد الرشيد من الري سنة ١٨٩ هـ فأمر باحراقها . . ؟ وكأنه شعر بخطارة الامر فهجرت بغداد من يومه وسكن الرقة (٢) وما زال ساكناً فيها حتى خرج هذا العام الى خراسان وهي ابي رضيت المقام فعيون الرقباء ساهرة وأمر الخليفة مشدد بالنعمة على كل من يذكر البرامكة بخير فكيف لو عرفوا بوجودي ألايسرعون لتقطيعي

(١) المسعودي ٨٠٢ ج ٢ . (٢) ابن الاثير ٧١ و٧٧ ج ٦

اربا اربا . . . وما أنا خائفة من الموت فانه أيسر ما افسيه ولكنني رغبت في الحياة من أجل هذه الفتاة ، وأشارت الى رفيقتها فتحولت الانظار اليها

## الفصل الثالث عشر

### الفتاة

فجلت الفتاة وتوردت وجنتاها وتلاأت عيناها الدعجاوان وظهر الدمع فيهما مع مبالقتها في الاطراق . فاغتمت دنائير هذه الفرصة وقالت « كنت منذ دخولك علينا وانا افكر في هذه الفتاة الجميلة واتفرس فيها فلم اعرفها . . . »

قالت « انها بنت الشقاء ونتاج المصائب وليس في بغداد من يعرف حقيقتها غيري وقد كتبت امرها عن كل انسان خوفاً على حياتها وانما اردت البقاء في قيد الحياة من اجلها . وهذه اول مرة ابوح باسمها فهل اقول ذلك ونحن في مأمن ؟ »

فقالت دنائير « لم يبق داع لهذا الحذر بعد ما شاهدته من انعطاف سيدي الحبيبة اليك ومن يسمع حديثك ولا يشعر معك ؟ قولي لاتخافي واطلبي ما تحتاجين اليه فانك نائلة ما تريدن . . . »

فتنهدت وهي تصلح نقابها على رأسها وقالت « ان هذه الفتاة ربيبة التعاسة انها بنت الوزير المقتول . . . ابني جعفر ؛ فبغيت دنائير واعادت نظرها الى الفتاة لعلمها بتذكرها فقلما افادها النفوس فقالت « لا اذكر اني اعرفها »

فقالت « نعم انك لاتعرفينها لانها ولدت بعد خروجك من بيتنا الى بيت مولانا المأمون . . . وقد كان خروجك من اسباب سعادتك لان ذلك البيت بعد ان كان مقصد السائلين ومقر الوافدين وملاذ الخائفين اصبح بلاء على اهله وغدا ذكرم تعسا على الاقرباء والمريدين . . . » وغلب عليها البكاء فسكنت ريثما تسترجع رشدها ثم قالت « ان حفيدتي هذه ولدت بعد خروجك

ولما أصيب والدها كانت لا تزال صغيرة وانفق انها كانت يوم تلك المصيبة قد خرجت مع احدى الجوارى الى بعض ضياعنا في ضواحي بغداد فلما قبض الرشيد ضياعنا فرت بها جاريتها الى قرية بعيدة عن عين الرقباء وظلت هناك حتى عرفت بها فاحتضنتها وخرجت بها هائمة على وجهي بعيدة عن بغداد ثم اقمنا في المدائن عند جماعة لا يعرفونها وانما آوونا اكراما لوجه الله فقضيت هناك عدة اعوام في مأمن من وشاية الواشين وسخر لنا الله رجلا لا نعرفه فكان أحن علينا من الوالد واشفق من الاخ . عرفناه منذ بضعة اعوام لانه يقيم في بيت مجاور لمنزلنا في المدائن . وهو غريب لا نعرف اصله ولا فصاه ولكن العناية ساقته الينا من حيث لا ندري فكان يتردد علينا ينظر في حوائجنا ويأتينا بما نحتاج اليه عفواً لا يلمس على ذلك اجراً ولا شكوراً . قضى هذه الاعوام في اعالتنا ونحن لا نعرف من هو فخيّل لنا انه رسول من السماء بعثه الله رحمة منه ونعمة لا نستحقها »

وكانت دنائير في اثناء الحديث ترمي يبصرها الى الفتاة اعجاباً بجملها فلما بلغت جدتها الى ذكر ذلك الرجل تشاغلت الفتاة باصلاح خمارها لتخفي ما كاد يبدو في محياها من الاحمرار . ولو انتهت دنائير الى تورد وجنتها لادركت ما تكنه جوارحها وهي تحاول اخفائه ولكنهم كانوا في شاغل من غرابية الحديث

فلما بلغت في حديثها الى ذكر ذلك الغريب غلب الاعجاب به على دنائير فقالت « ان الدنيا لا تخلو من الحسين . . وقد سمعنا عن مثل هذه الشماثل في البرامكة ولم نعهد مثلها في سوام . . الم تعرفي من هو ذلك المحسن ؟ »  
قالت « لم نعرف من هو ولكن يظهر انه فارسى الاصل وقد جاء المدائن من بضعة اعوام وهو يتكتم فاذا دخل اغلق بابه وقضى يوماً او بضعة ايام لا يراه احد حتى كثرت احاديث الناس بشأنه . فمن قائل انه يشتغل بالكيمياء وقائل انه ساحر وزعم آخرون انه من كبار اهل الثروة وقد جمع ثروة من كنز عثر عليه في منزله لأنه يقيم في بيت مبني على انقاض ايوان سابور الذي كان الخليفة المنصور يقيم فيه قبل بناء بغداد »

فقالت دنانير « وما هو اسمه ؟ »  
 قالت « يسمونه بهزاد الجند يسابوري »  
 فتذكرت زينب طبيهم الخراساني لانها نظنه يقيم في المدائن فقالت « لعل  
 طبينا يعرفه لانه يتردد الى المدائن وربما آتى الليلة فنسأله عنه »  
 فقالت « لا اظن احداً يعرفه ومهما يكن من امره فانه جدير بكل ثناء  
 فعسى ان يقدرنا الله على مكافأته . . . ولكن الاقدار لاتصفو لاحد او لعلها  
 عملت على مطاردتنا منذ اقل نجم سعدنا فهي لا تدعنا نتنسم راحتنا حتى تخلق  
 لنا بلاء جديداً . . . »

فقالت دنانير « وكيف ذلك ؟ »  
 قالت « ما كدنا نظن الناس نسونا وأغفلوا امرنا حتى رأيناهم عادوا الى  
 تكايتنا »  
 قالت دنانير « ومن هؤلاء ؟ »

## الفصل الرابع عشر

### السر

فالتفتت عبادة الى حفيدتها ثم حولت وجهها عنها فصبح وجه الفتاة  
 بالاحمرار فأدركت دنانير ان الحديث يتعلق بها وظنت أم جعفر تتحاشى  
 التصريح بذلك أمامها فأجبت أن تشغل الفتاة بشيء يصرف انتباهها عن  
 الحديث فقالت لها « أظنتنا أبطأنا عليكما بالعشاء فهل تأمر مولاني  
 بالمائدة ؟ »

فهمت عبادة غرضها من هذه الدعوة فقالت « اني لا أشعر بالجوع الآن  
 ولكن ميمونة ( حفيدتها ) تأكل . . . »

فلم يفت الفتاة الغرض من ذلك فاطاعت جدتها بحارة لما أرادته من  
 التستر في الحديث عنها فسكنت علامة للقبول بما أشارت به . فنهضت

دنانير وهي تقول لمولاتها أم حبيبة د هلمى يا مولاتي الى المائدة مع هذه الضيفة الكريمة ،

فاطعتها وقد تعودت ذلك منها لنفس السبب الذي حمل ميمونة على الطاعة وخرجت الفتانان للطعام وقد استانست ميمونة بينت المأمون وأحبها لجمالها وذكائها — وكفى بالاحسان باعثاً على المحبة فقد قيل : من أحسن إلى الناس استعبد قلوبهم

أما دنانير فرافقت الفتاتين ربنا أمرت الخدم باعداد الطعام وعادت إلى عبادة وقد اشتد شوقها لسماع الحديث

وكانت عبادة جالسة مطرقة فدخلت دنانير وأقفلت باب القاعة وراءها وجلست الى أم جعفر وهي تمش لها وترحب بها وقد سرها أن تواسيها وتخدمها قياماً بما تشعر به من فضلها عليها غير ما تبعث عليه حالها من الشفقة لما أصابها من الدل بعد ذلك العز — والاقرار بالاحسان فرض يسر أهل الفضل أن يأتوه وأن يكرموا صاحبه إلا طائفة من الناس ساءت سريرتهم وسفلت طباعهم وصغرت نفوسهم — فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء وقد حملهم الكبرياء على ايقاع الاذى بالمحسنين اليهم لاسيما اذا كان المحسن اليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش وساعدتهم الاقدار على الارتقاء فربما حدثتهم أنفسهم الامارة بالسوء أن يقتلوا صاحب الفضل عليهم — أما دنانير فكانت كبيرة النفس صافية السريرة فسرها أن تخدم مولاتها اعترافاً بفضلها . فلما توسمت فيها الاهتمام بما ستقصه أقبلت نحوها بكليتها

فلما انفردتا تهتت عبادة تهتداً عميقاً ونظرت الى دنانير والدمع يتلألأ في عينيها وقالت « آه يا دنانير . . . ان النظر اليك يذكرني بأيام سعاتي وأشكرك لما لقيته من مواساتك وتلطفك في حين ان اقرب الناس الينا نسونا اوتناسونا ( وغصت بريقها ) ولكن الدنيا دول . . . مالنا وذاك . . . إن الامر الذي جاء بي هذه الليلة لولا خطارته ما حملتكم المشقة من أجله . . . »

فقطعت دنانير كلامها ووضعت يدها على كتفها وهي تنظر اليها مبتسمة وتقول « لامشقة في ذلك ياسيدي انك صاحبة الامر وعلينا الطاعة »

فنهدت وقالت « أنت تعرفين الفضل بن الربيع . . . »  
 فلما سمعت دنانير ذلك الاسم أدركت عظم الأمر لعلها ان هذا الوزير  
 هو الذي عظم ذنب ابنها لدى الرشيد حسداً منه حتى قتله الرشيد وتولى هو  
 الوزارة مكانه فقالت « نعم ياسيدتي أعرفه . . وما خبره بعد الذي أتاه ؟ »  
 قالت « ليس الخبر خبره الآن وإنما نحن نشكو من ابنه . . . »  
 قالت « وما تشكين منه ؟ »

قالت « لا أدري كيف بلغه خبر ميمونة ولا أعلم أين رآها حتى فتن  
 بجهاها أو لعله لم يفتن بها وإنما أراد نكايتنا فبعث الى منذ بضعة أسابيع  
 قهرمانه دار أبيه يوسطها في خطبة ميمونة لنفسه وقد تلطفت القهرمانه  
 بالطلب ووعدتنا خيراً . فما ظلمته حيناً لعله يرجع من نفسه لاني أخاف  
 إذا رفضت طلبه بتاتا أن يؤذينا فلم يرجع عن طلبه وبالغ في المحاسنة وكرر  
 الوعد بما ينويه لنا من الخير إكراماً لميمونة لانه مفتون بها . وقد أكثرت  
 لنا القهرمانه انه يحب الفتاة جداً مبرحاً وأنه لا يريد لنا غير السعادة اذا أحبته  
 الى بغيته . فاعتذرت عن الاجابة أعذاراً مختلفة وتقدمت اليها ان تساعدني  
 في دفعه فوعدتني وظلت أياماً لم ترجع الينا . فظننتها أفلحت واطمان خاطرى  
 فلما كان مساء الامس جاءتني بنياً ذهب بصوابى وقطع جبل رجائي . . . »  
 قالت ذلك وشرقت بدموعها فسكتت واشتغلت بمسح عينها

وكانت دنانير تسمع حديثها وهي تتناول نحوها بعنقها فلما رأتها تبكي  
 قالت « خففي عنك ياسيدتي . . وماذا جرى ؟ »

قالت « جاءت القهرمانه هذه المرة تهددني بالسوء اذا لم أحب ابن الفضل  
 الى طلبه وانه أوصل أمري الى علي بن ماهان صاحب الشرطة ووسطه في  
 الخطبة وان علياً هذا يلح علي باجابة الطلب وهو يضمن لي ما أريده من  
 الخير واذا لم أفعل كانت العاقبة وخيمة على وعلى ميمونة . فوعدتها اني  
 سأنظر في طلبها وأجيبها . . وانت تعلمين حالتنا مع هؤلاء ولا سيما الفضل  
 ابن الربيع الذي كان السبب في قتل ابني فكيف أزوج ابنه وأنا لا أطيق  
 سماع اسمه ، وأطلقت لبيكاهم العنان حتى تفطر لها قلب دنانير وأدركت مصيبتها

لعلمها ان هؤلاء القوم اذا قالوا فعلوا . فأطرقت وأعملت فكرتها حيناً ثم قالت « لا أنكر على مولاتي ماقلته من كرهها لذلك الرجل وابنه ولكن . . . » وسكتت وهي تنهض اكتفها وتقلب شفيتها

فقلت عبادة « لا . . . لا أستطيع القبول به . . . وهي اني قبلت فهل تظنين ميمونة تقبل وهي تعرف الفضل بن الربيع أصل بلائنا ومصدر مصائبنا؟ . . . كلا هذا لا يكون . . . »

فقلت دنانير « اذا لم يكن بد من اصرارك على الرفض فأنا طوع ارادتك بما تحبين وهذا القصر وأهله في خدمتك فاذا شئت الاقامة فيه أقمت على الرحب والسعة ولا اظن أحداً يجسر على اخراجك منه وقد أفرحني ما آنته من ارتياح مولاتي زينب لك وانت تعلمين نفوذها عند أمير المؤمنين الرشيد فمتى عاد وسطانها لديه وهو لا يردّها خائبة فانعمي بالا »

فتنهدت عبادة وسكتت هنيهة ثم قالت « أخشى يدانانير أن يكون في اقامتنا هنا بأس على أهل هذا القصر لأن النحس ملازم لنا اليوم فلا أحب أن ياحقكم شيء منه »

فتأثرت دنانير من قولها وأخذت تخفف عنها

## الفصل الخامس عشر

### الطبيب الخراساني

وهما في ذلك سمعتا وقع خطوات مسرعة في الدهليز فنهضت دنانير الى ألباب وفتحته فرأت أحد الغلمان وقف بالباب وهو يقول « ان الطبيب قد جاء ياسيدتي »

فأبرقت اسرتها ولم تتالك أن قالت « الطبيب جاء؟ لقد أبطأ علينا دعه يدخل » قالت ذلك ورجعت الى عبادة وهي تبتم وتقول « جاء طبيبنا الخراساني الذي ذكرت لك انه يتردد الى المدائن فاعله ينفعنا في معرفة صاحبكم الذي ذكرت انه واساكم هناك »

فمرحت عبادة بتلك البشارة ايضاً ولبثت تنتظر مجيء القادم بفارغ الصبر ولم تمض دقائق قليلة حتى سمعت حركة ووقع اقدام فرجعت دنانير الى الباب لتستقبل القادم فلما راته مقبلاً قالت « لقد ابطات علينا ايها الطبيب هذه المرة جعل الله المانع خيراً »

وكانت عينا عبادة نحو الباب وقد اصلحت خمارها فاذا هي تسمع الطبيب يقول « قد ابطأت عليكم لعذر ضروري فهل انتم في حاجة الي » قال ذلك وفي كلامه عجمة فلما سمعت عبادة صوته خفق قلبها لأنها توسمت به صوت جارم بهزاد ثم دخل الطبيب ولم تقع عيناها عليه حتى عرفت انه بعينه فصاحت « هذا بهزاد ا » أما هو فلما رآها خلع نعاله وأسرع نحوها فصاحها وتلطف في السلام عليها وقال « انت هنا ياخاله ؟ »

فقالت « إني هنا ياسيدي . . . قد جئت لزيارة دنانير . . . » فبغت دنانير لذلك الاتفاق وقالت « اذن هو بهزاد صاحبكم وهو طبيبنا . . ما أجل هذا الاتفاق . . تفضل ياسيدي » وأشارت الى كرسي فمشى بهزاد بقدم ثابتة وخطى واسعة حتى جلس على الكرسي وكان طويل القامة عمريش ما بين المنكبين كبير الجمجمة واسع الجبهة أبيض الوجه اسود العينين غائرهما مع حدة وذكاه خفيف اللحية صغير الشاربين . وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره وقد تزلزل بعبادة سوداء وطل رأسه فلتسوة قصيرة ليس حولها عمامة وكان لطوله وعرض منكبيه اذا مشى تقلع كأنه ينحط من صلب واذا أقبل عليك حسبته من الجبارة الذين يتحدثون بعظم هاماتهم ورأيت في عينيه رقة ونفوذاً يدلان على قوة الارادة وصدق الطوية . وكان لا يرى إلا مقطباً والاهتمام باد في محياه على غير جفاء أو خشونة ويندر ان يضحك . ومع كونه قليل الكلام كثير التفكير فان مخاطبه يستأنس به ويرتاح الى مجالسته ولكنه يهابه ويشعر اذا خاطبه بسطان له عليه

فلما جلس ابتدرته دنانير قائلة « لقد كنا نتحدث عنك ساعة الغروب ثم ذكرناك في عرض حديث جرى لي مع سيدتي أم جعفر وأنا احسبك غير بهزاد

الذي ذكرته هي لأنني لا أعرفك بهذا الاسم فاحمد الله على انك انت صاحب الجميل عليها . . . »

ولاحث من دنانير التفاتة الى أم جعفر فرأتها تشير اليها برفع حاجبيها والعض على شفتها أن لاتفعل كأنها تنهاها عن التصريح باسمها فأدركت دنانير غرضها . أما بهزاد فانه تجاهل مرادها وقال « إن أهل المدائن لا يعرفونني إلا بهذا الاسم لانهم رأوني فارسي السحنة فسموني بهزاد وأما اسمي فهو عبد الله كما تعرفين » ثم حول نظره الى أم جعفر بانعطاف واحترام وقال « لا جميل لي يا خالة في شيء فعلته ولا اعرف اني أتيت شيئاً يستحق الثناء » ثم التفت الى دنانير وقال « كيف مولاتنا أم حبيبة هل هي في خير وعافية ؟ »

قالت « نعم وهي تتناول العشاء مع ضيفة لها في غرفة المائدة وقد كنت عازمة على الذهاب بها الى الفراش كالعادة . . . »

فأظهر الطبيب انه لم ينتبه لعزمها وقال وهو يخفي ما يخالج ضميره من الاهتمام ويتشاغل باصلاح بند سيفه في منطقتة « هل آتى غلامي سلمان ؟ » قالت « كلا ياسيدي لم أعلم انه جاء . . . وهل انت على موعد من لقائه هنا ؟ » قال « نعم . . . كنت أتوقع ان يأتي نحو الغروب وشغلت عن المحي . اليكم حتى الآن وأنا أحسبه في انتظاري هنا » قال ذلك وهم بالنهوض وهو ينظر نحو الباب كأنه يريد الخروج فتلقته دنانير قائلة « هل تحتاج الى شيء يا مولاي ؟ .. » قال « كلا ولكنني أحب ان أتحقق هل جاء سلمان هذا القصر إذ ربما جاء وأقام في بعض غرف العلمان »

فمشت دنانير وهي تقول « انا اذهب للبحث عنه تفضل واجلس . . . » وهمت بالخروج

لكنها لم تدرك الباب حتى سمعت جنية وقهقهة في الدهليز فعرفت ان زينب قادمة وهي تفهقه لأمر اضحكها . فضحكت دنانير سروراً بها واطلت على الدهليز وهي تقول « مولاتي ! انت هنا لم تذهبي الى فراشك بعد ؟ هل آتى لأدخلك الفراش ؟ »

ولم تتم كلامها حتى صارت زينب بجانبها وقد جاءت مسرعة وهي ممسكة بثوب ميمونة تشدها نحو الباب على سبيل المداعبة وميمونة تطاوعها ارضاء لها واستئناساً بها . فابتدرتها دنانير قائلة « ما الذي يضحكك يا حبيبتى ؟ . . » فصاحت الفتاة وهي تلتفت وراءها التفات مذعور مطمئن قائلة « اضحكني غلام الطبيب تعالى انظريه » وأشارت باصبعها نحو الدهليز . نخرجت دنانير فرات رجلا في لباس وقفاة لاتعهد سلمان في مثلهما — راته بعامة كبيرة وسالفين طويلين ولحية كبيرة قد دب فيها الشيب وعليه جبة مثل جبة الحاخامين فلم تتمالك عن الضحك فصاحت فيه « ويلك ماذا اصابك ؟ »

## الفصل السادس عشر

### ميمونة

فانزوى الرجل في بعض منعطفات الدهليز حتى اختفى لحظة ثم عاد واذا هو سلمان بقبائه وسراويله وطاقيته لاسالفان له وعادت لحيته صغيرة لاشيب فيها فزادها ذلك التغير استغراباً وتحولت نحو القاعة لتخاطب الطبيب بما شاهدته وتبشره بقدم غلامه فراته قد نهض واسرع في الخروج ليراه لانه سمع ما دار بشانه . ولكنه لم يكذب يدرك الباب حتى راي زينب داخلة وهي تجر ميمونة وراءها وتضحك ولا تعلم بوجود الطبيب هناك . فلما وقع نظرها عليه تهيبت واستحييت فاطرقت برأسها وأسرعت للاستتار وراء ميمونة فلما رأى الطبيب خجلها تبسم لها وانحنى نحوها وهو يقول « كيف أنت يا أم حبيبة . . » ومد يده ليتناول يدها فازدادت حياء وتراجعت حتى اختفت وراء ميمونة . أما هذه فلما وقع نظرها على الطبيب بغتت وصبغ الحياء وجهها لسبب غير السبب الذي أخجل زينب وتلعثم لسانها واصطكت ركبتيها وتحيرت بين الاطراق خجلا وبين أن تحي ولي نعمتها والمحسن اليها . أما هو فلما رأى دهشتها وارتبا كهاتجاهل وحياها تحية بسيطة وتحول إلى زينب يظهر مداعبتها ويتلطف في تشجيعها لترد عليه السلام

ولحظت ام جعفر ارتباك حفيدتها فحسبته ناتجا عن لقاءها بهزاد على غير انتظار لانها لم تكن تعلم ما يمكنه ضميرها ولم يتفق انها لحظت منها شيئا يدل على غير التعارف البسيط مع الشعور بفضل الرجل عليهما . فنهضت للحال وتقدمت الى ميمونة وهي تقول « هذا هو مولانا وصاحب الفضل علينا مابالك لاتسليين عليه بالمياء »

فلما سمعتها دنانير تسميها لمياء تحققت انها تريد اخفاء حقيقة حالها عن الطيب . اما ميمونة فلما سمعت جدتها تدعوها للسلام على الطيب تجلست ومدت يدها فتناولها فشعر بارتعاشها وبرودتها ولم تخف عليه حالها ولكنه ظل على تجاهله وابتسم لها كعادته ابتسام تلتطف واكرام وقال « وانت هنا بالمياء ايضا ؟ » وعاد الى مداعبة زينب

فبالفت ميمونة في الاطراق وقد توردت وجنتها ولو رفعت بصرها اليه لرأى بريق عينيها وشعر بما ترميه عن حاجبها من السهام . ولكنه تغافل وحول نظره الى دنانير فرآها تراقب حركات الفتاة ولم يفتها ما كان يتجلى في وجهها من دلائل الحياء وادركت بفراستها وطول اختبارها ان ذلك ناتج عن غير الحياء وحده ولكنها استغربت ما ابداه الطيب من الفتور كأنه خلى الدهن مما يجول في خاطرها . فتجبرت وتمنت لو تمكنها الفرصة من تحقق ظنها

وهي في هذه الحيرة سمعت الطيب يقول « أين سلمان ؟ سمعتم تنكلمون عنه »

فاشارت دنانير الى الدهليز وقالت « هو هنا . . . هل أدعوه اليك ؟ » قال « كلا إني ذاهب اليه » وصاح « سلمان ! » وخرج من القاعة وترك أهلها على ما ذكرناه من الاضطراب والارتباك بين مستحي ومدهش ومعجب ومستغرب ومتهيب . فاجابه الغلام « لبيك يا مولاي . . أنت هنا ؟ » فقال وهو يحتذي نعاله ويهم بالمسير نحوه « قد استبطنك وشغل بالي لغيابك » ومضى نحوه وهو يقول لدنانير « سأعود اليكم بهد قليل » فملت

أنه ذهب الى المنزل الذي تعود الاقامة أو البيت فيه اذا جاء القصر المأموني وهو من جملة ابنية ذلك القصر الكبير . وأما الطيب فظل ماشياً وسلمان يتقدم نحوه حتى التقيا ثم سار الطيب وسلمان يتبعه وخرج من الدهليز الى البستان ومشيا فيه الى ذلك المنزل

وكان الطيب يعشى مطرفا وسلمان يسير في اثره مهرولا وكان هذا مع طوله لا يستطيع اللحاق به وهو يعشى الهويناء لسعة خطواته . فلما وصلا ذلك المنزل تقدم سلمان وفتحها فخلعا حذاءيهما ودخلا وم سلمان بسراج على مسرجة فأشعله وأغلق الباب وراه ووقف حتى جلس الطيب على وسادة في صدر الغرفة فوق البساط وأمر سلمان فقعده بين يديه وهو ينتظر أمره فلما استتب بهما الجلوس قال الطيب « ما وراءك يا ملفان سعدون »

فقال « وأنت أيضاً تدعوني ملفاناً ؟ » وضحك

فقال « انك لا تزال ملفاناً حتى تنتهي مهمتنا من هذه الديار ونبليغ غايتنا قل ما وراءك ؟ »

قال « جئتك بنجر هام لم يطلع عليه أحد في هذه المدينة ولو عرفه أهلها لقاموا وقعدوا وتغيرت أحوالهم .. فضحك قوم وبكى آخرون »

فتحنح الطيب ونظر الى سلمان بعينين حادتين كأنه يخترق أحشائه ويستطلع خفايا قلبه وقال « هل عندك خبر غير موت الرشيد ؟ »

فاجفل وقال « وهل عرفت ذلك ؟ بالله ! كيف عرفتته وقد جاء في هذه الساعة ولم يعلم به أحد ولا صاحب البريد . ولو لم أشاهد اللوح النحاسي الذي يحمله سعادة البريد لاثبات مهمتهم معلقاً بالشرابة على صدره (١) لم أصدق له لغرابته فكيف عرفتته ؟ »

قال « عرفتته ولم ار اللوح النحاسي ولا تحققت صدق الساعي . . . ان الرشيد مات ياسلمان فهل عرفت خبراً أم من هذا ؟ »

قال « وهل أم من هذا الخبر ؟ لقد أذهبت سعي عبثاً وكنت أحسبني

جئتك بخبر تغبطني عليه وأنا انما عرفته اتفاقا وكلفني سبيكة من الذهب . . اني  
لا ازال قليل النفع لك «

قال الطبيب « بل أنت كثير النفع لا يستغنى عن ذكائك ونشاطك  
ويكفي أنك تكشف لنا عن أغراض العامة وأقوالهم وكفى بالعبارين  
ومعاملتهم «

فقال « اني لا أراى فاعلا شيئا . . وأظنك عالما بالغيب فقل ما عندك أم  
من موت الرشيد ؟ «

قال « أم منه ما أتاه أصحابه من خلع المأمون ونكت البيعة . . وسترى  
ما يكون من عواقب ذلك عليهم «

قال سلمان وقد دهش « نكثوا بيعة المأمون يالهم من قوم خائنين ومن  
نكثها ؟ «

قال « نكثها الفضل بن الربيع «

فقال سلمان وقد ذعر « الفضل وزير الرشيد الذي سافر معه في حملته  
هذه ؟ «

قال « نعم هو بعينه . . ان هذا الرجل أتى أمرا سيؤول الى خراب  
هذه الدولة مثل سعيه في قتل الوزير المظلوم وكل من الفعلين يسقط دولة فكيف  
اذا اجتمعا « قال ذلك وقد بدا الغضب في عينيه  
فتيب سلمان من غضبه وقال « وكيف كان ذلك ياسيدي . . «

## الفصل السابع عشر

### الخبر اليقين

قال الطبيب « أنت تعلم ان الرشيد لما سافر في هذه الحملة اصطحب  
ابنه المأمون وأخذ له البيعة على جميع من في معسكره من القواد وغيرهم  
وأقر له بجميع ما معه من الأموال وغيرها وكان ذلك بسعي الفضل بن سهل  
صاحب الهمة الشفاء «

قال « نعم »

فقال « وسار المأمون مع أبيه ليقيم في خراسان . ولا يخفى عليك ان الرشيد بايع بالخلافة بعده لولديه الامين وهذا المقيم في بغداد الآن ثم للمأمون الذي رافقه في هذا السفر . وان المأمون يتولى خراسان في أثناء خلافة الامين على بغداد . والرشيد كما تعلم مريض من يوم سفره ولكنه كان يخفي مرضه . . فقد علمت من الصباح الطبري وأنت تعلم تقربه من الرشيد وقد رافقه للوداع يوم خروجه من بغداد ان الرشيد قال له « لا أظنك تراني يا صباح أبدأ » فدعاه وأعظم قوله وأنكر عليه ما يخافه فقال « ما أظنك تدري ما أجد في صحتي » قال الصباح « لا والله » فعند ذلك عدل الرشيد عن الطريق واستظل بشجرة وأمر خواصه بالبعد عنه . فلما خلا بالصباح كشف عن بطنه فاذا عليه عصابة حرير فقال « هذه علة أكتمها الناس كلهم ولكل واحد من ولدي علي رقيب ، فسرور رقيب المأمون وجبرائيل بن بخنيشوع رقيب الامين وما منهم أحد الا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري . وان أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدهو بدابة فيأتوني بدابة عجفاء قطوف لتزيد عنتي فاكنتم على ذلك » فدعاه الصباح ثم طلب الرشيد دابة نجفاء وابها كما وصف فنظر الى الصباح وركبها (١) وعاد الصباح من وداعه ولم يكتم ذلك عني »

فاستغرب سلمان اطلاع مولاه على كل ذلك وكيف كتمه عنه الى تلك الساعة ولكنه مازال شديد الرغبة في الاطلاع على خبر الفضل بن الربيع فقال وماذا فعل الفضل ؟ »

قال « سافر الرشيد ومعه الفضل وبينه وبين الامين مخابرات خصوصية وله فيه رأي وكلا حدث أمر كتب به اليه غير ما يبعثون به على يد أصحاب البريد فكتب الفضل الى الامين من مدة قريبة ان الرشيد اشتد مرضه كثيراً فكتب الامين اليه كتباً أمر أن يجعلوها في قوائم صناديق المطبخ وكانت تلك القوائم منقورة وألبسها جلود البقر وعهد بإيصالها الى رجل من خاصته اسمه بكر بن معمر وقال له

« لا تظلمن أمير المؤمنين ولا غيره على ذلك ولو قتلت الا اذا مات فادفع الى كل انسان كتابه »

ولما وصل بكر هذا الى مدينة طوس حيث كان الرشيد مريضاً بلغ الرشيد قدومه فدعا به اليه وسأله عن سبب قدومه فقال « بعثني مولاي الامين لآتيه بخبرك » فسأله « هل معك كتاب ؟ » فقال « لا » فلم يصدقه لعله بما يكتنون عنه وانهم شديدو الرغبة في موته فأمر أن يفتشوا ما معه فلم يصيبوا شيئاً فلم يقتنع فأمر بضربه حتى يعترف فضربوه ضرباً مبرحاً فلم يعترف بشيء حتى كادوا يقتلونه . فلما خاف الموت قال للفضل ان عنده أشياء هامة فلا يعجل عليه . ولكن الرشيد مازال خائفاً مما يحمله بكر فأمر بقتله فاتفق لحسن حظه ان الرشيد غشي عليه فاشتغل الناس به — ثم مات الرشيد فبعث الفضل وأخبره بموت الرشيد وسأله عن الكتب التي معه من الامين فدفعها اليه وهي كتاب الى أخيه المأمون يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة له على الناس لها ولكن للمأمون كان يومئذ بمرور . وكتاب الى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر وان يتصرف هو ومن معه برأي الفضل وكتاب الى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على مامعه من الحرم والاموال وغير ذلك وأقر كل من كان هنا على عمله . فلما قرأوا الكتب تشاوروا م والآة واد في الذي يفعلونه هل يعملون بالعهود التي عليهم للمأمون فيلحقون به في خراسان أم يلحقون بالامين في بغداد فكان من رأى الفضل أن يلحقوا بالامين وقال « لا أترك ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره » وأمر الناس بالرحيل الى بغداد — قال الطبيب : « ولا يمضي غير أيام حتى يصلوا الينا وقد خلعوا المأمون . وما خلعوه الا لأن أمه فارسية وم عصبية يزعمون نصرتهم للعرب ولا ينصرون الا مطامهم ولكنهم سيعلمون ما ينالهم من أخواله » قال ذلك وقد تماظم غضبه وازداد سلمان تهيئاً من منظره ومع ما تعود من صحبته وما ألفه من أخواله مازال يجزع من النظر اليه ولا سما في حال الغضب . وأحب أن يكلمه فرآه يتحفز للنهوض وهو يقول « ولكن لا بأس على ابن أختنا وهو في خراسان بين أخواله وفيهم الفضل بن سهل فلا خوف عليه »

ونهب هزاد فنهض سلمان معه وهو يقول « ما الذي نفعه الآن يا مولاي ؟ »

فاطرق وهو يحك جبينه بسبابته وابهامه ثم قال « لا بد من ذهابي الآن لأمر خطري لا يحسن تأجيله . . . »

فقال سلمان « وهل أذهب معك . . . »

قال « كلا . . فاني أفضل الذهاب وحدي لسبب ستعلمه . . »

فقال وهو يهز رأسه اعجاباً واستغراباً « لقد أدهشتني بما تكتمه وما تستطلمه كأنك تستخدم الجان . . . »

قال « لم أفعل شيئاً غريباً . . » وأخذ يصلح قلنسوته ويعدل بند سيفه استعداداً للمسير فابتدره سلمان قائلاً « فاذا كنت لا ترى حاجة الى فاني أذهب لاتمام مهمتي التي بدأت بها في غروب هذا اليوم ولولا تعجيلي لاطلاعتك على خبر الرشيد لأتمتها قبل مجيئي ولو علمت انك تعلم الغيب . . و . . »

فقطع هزاد كلامه قائلاً « لا دخل للغيب في ما تراه وستعلم انه طبيعي ولكنني تعودت أن لا أقول شيئاً قبل تحققه . وانما يقدم على كثرة الكلام أهل الطيش يجمعون ويطنطنون ثم لا يأتون غير الكلام وعندى ان اذاعة ما ينويه المرء من الاعمال يذهب بالعزم على اتمامه — ولذلك فانك انما تسمع مني القول البات في بعض الاحوال الشاذة لاسباب طارئة . وما أجل ما قيل : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »

وكان سلمان يسمع كلامه مصغياً فلما فرغ قال « انها عظة بالغة ولذلك فاني ذاهب الآن لقضاء المهمة التي بدأت بها عند الغروب ومتى انتهت أطلعتك عليها . . وأرجو ان تحسن في عينيك وان لا تكون قد سبقتني اليها . . »

وكان الطبيب يسمع كلام سلمان وهو يحتذي نعاله فلما فرغ قال الطبيب « اذهب بحراسة الله وسنلتقى هنا غداً واذا لم آت لاتسبطني » قال ذلك وترك سلمان في المنزل يهتم باقفاله ومشى نحو القاعة التي ترك القوم فيها

## الفصل الثامن عشر

### هل هي تحبه

وكانت دنانير بعد ذهاب الطبيب قد أدخلت زينب الى الفراش وسألت ميمونة اذا كانت تريد الرقاد فظهرت انها تحب البقاء للاستئناس بها ويجدتها ثم امرت الخدم فاعدوا طعاماً لها ولعبادة فأكلتا ولا حديث لهما غير بهزاد وكل منهما تقص على رفيقتها ما تعرفه من غرائب أطواره وعجائب احواله ولا سيما عبادة فانها أخذت تطوي شهادته وانفته وكرم اخلاقه وان اهل المدائن يعدونه من الاولياء ويستغربون تكتمه . على ان التكم زاده رفعة في أعينهم وزادهم تهيئاً منه . لأنك لاتزال تخاف المجهول حتى تعلمه — وعلى هذا القياس ترى الصمت يرفع منزلة صاحبه وكثرة الكلام تقلل من هيئته فاذا جهلت ما في خاطر المرء توهمت ما يكتمه أم بما هو فاذا تكلم انكشف لك عن شيء تافه فكيف اذا تعودت ان تسمع بعد السكوت قولاً معقولاً فالعقلاء يزين اقوالهم احتفاظهم بالكلام الى حين الحاجة والتدبر بما يقولونه فلا يلقون الكلام على عواهنه

وكانت ميمونة تسمع حديثهما عن بهزاد وقلها يرقص طرباً تشعر به ولا تستطيع التعبير عنه . فقد عرفت هذا الشاب منذ عام وبعض العام ورأت منه انعطاف المحسنين وغيره الاقربين فاحترمته واعجبت به . ثم تعودت رؤيته حيناً بعد آخر فاصبح اذا غاب استبطأته وشعرت انها في حاجة الى رؤيته لا يطمئن قلبها الا اذا رآته ولو ماراً في الطريق وقد زاد ارتياحها اليه لما كانت تسمعه من اطراء جدتها له وامتداحها خصاله فاصبحت اذا شاهدته او سمعت صوته يخفق قلبها واذا كلمها صعد الدم الى عيائها واستولى الحجل عليها . ثم اصبح قلبها يخفق لمجرد سماع اسمه وصارت تلتذ بالحديث عنه واذا سمعت احداً ينتقده او يقبح اعماله شق عليها قوله وأخذت تدافع عنه بحماسة وغيره — كانت تفعل ذلك وهي لاتعلم انها تحبه ولو سئلت هل هي تحبه لاستغربت

السؤال وانكرته كل الانكار — لانفعل ذلك نفاقاً او رياء لكننا بالحقيقة لانعلم انها تحبه وخصوصاً لانها لم تكن تسمع منه كلمة تدل على حبه لها . فاذا جاء المنزل كلم جدتها بما تحتاج اليه واذا عرضت له ميمونة حياها وهو ينظر الى شيء آخر وربما سألتها عن حالها سؤالاً بسيطاً بلا مبالاة او اكثر اثار فلم يمنعها ذلك من الاسترسال في حبه لانها لم تأت الحب عمداً اي انها لم تعمل فكرتها ولا شاورت نفسها في هل تحبه أم لا . ولو فعلت ذلك لاحترست من الوقوع لانها لم تكن ترى منه ميلاً ولكنها احبته وهي لاتعرف دلائل الحب ومازالت على ذلك حتى التقت به تلك الليلة فجأة ثم سمعته يلاطف زينب ويداعبها فتحركت الغيرة في قلبها مع علمها انه فعل ذلك تلطفاً ومجاهلة واحست كأن سهماً اصابها في قلبها . على انها راجعت وحاولت الاقتناع ان ليس ثمة داع للغيرة فاقنع عقلها واما قلبها فما زال في اضطراب واخذت من تلك الساعة تتساءل عن سبب هذا الشعور فاعتنمت اشتغال جدتها ودنانير بالطعام والحديث وطفقت تفكر في سبب هذا الشعور وكما همت أن تسأل نفسها هل هي تحبه غلب عليها الحياء وأنكرت وقوعها في هذه الأسر لانها لاترى من أعماله ما يجرحها على ذلك فتعللت بأنها انما تحبه اقراراً بفضله واحسانه

ثم رأت ذلك لايعني قليلاً لانها تحس بانعطاف اليه غير انعطافها الى جدتها مثلاً وهي أكثر الناس إحساناً اليها فتحققت انها تحبه لغير الاحسان . ولما تصورت ذلك ولم تر لها مندوحة عنه اتقبضت نفسها لأنها لم تشاهد منه شيئاً من هذا القليل نحوها . وعادت الى ذكرى الماضي فراجعت تاريخ معرفتها به وما كان يبدو من حركاته وأقواله فلم تر دليلاً على مثل ما عندها . على انها حملت ذلك منه على رغبته في التلصق أو اظهار الجفاء مع كتمانها الحب

فكانت عبادة ودنانير تتناولان الطعام وتتحدثان وميمونة غارقة في هذه الهواجس وبعد الفراغ من الطعام قالت دنانير « هل تريدان الذهاب الى الفراش فانا في اواسط الليل . . . »

فقالت عبادة « أما انا فلا أشعر بحاجة الى النوم ولكن ميمونة تنام » فلما سمعت ميمونة قولها تذكرت أن بهزاد وعد بالرجوع حالا وأصبحت

عد أن ذهب وتركها في تلك الحيرة تود أن تراه قبل الرقاد ولا سيما بعد ما ناجت به نفسها من أمر حبه لعلها تؤانس منه إشارة أو تسمع كلمة تستدل منها على ميله إليها — فلما سمعت قول جدتها ساءها ان تطيعها ولم تتعود غير الطاعة العمياء وهذه أول مرة حدثت نفسها بعصيانها ولكنها لم تجسر على مراجعتها فوقعت في حيرة وارتبكت في أمرها. ولحظت دنانير ارتبكتها وادركت سببه وكانت عبادة في شاغل عن عواطف حفيدتها فلم تكن تتوقع منها غير النهوض حالا فسمعت دنانير تقول « مالنا وللرقاد الآن دعي ميمونة معنا فان هذه الليلة من ليالى العمر عندي لشدة فرحي بكما » ثم مدت ذراعها نحو ميمونة وضمتها الى صدرها وقالت « وخصوصاً حبيبتى ميمونة فأتى وجدتها من العدم . . فدعيني أمتع برؤيتها »

ولا تسل عن فرح ميمونة بهذا الاعتذار فاشرق وجهها ولما ضمتها دنانير وقبلتها أجابتها بقبلات حارة وضحكت رغم ارادتها من شدة الفرح

## الفصل التاسع عشر

### موقف حرج

فأنت عبادة على لطف دنانير ومجاملتها . ولم يستتب بهن للمقام حتى سمعن خفق نعال الطبيب خفق قلب ميمونة ولكنها تجلدت . ونهضت دنانير لاستقباله فإذا هو لا يزال بلباسه وزاد عليه كوفية اعتم بها وأرخى أطرافها حول رأسه كأنه على سفر فابتدرته دنانير قائلة « مالى أرى الطبيب مسافراً »

قال « لا بد من ذهابى الآن لشغل هام وكنت اود البقاء عندكم لولا الضرورة ولكننى سأعود في الغد ان شاء الله »

وكانت عبادة قد وقفت لاستقباله وبجانها ميمونة فلما سمعتا قوله تقدمت عبادة حتى التقت به وهو داخل من الباب فقالت « سر بحراسة الله يا ولدي وارجو أن تعود سريعاً ولا تنسانا . . »

فتقدم نحو عبادة باحترام ومد يده فصالحها وهو يقول « حاشا لله ان

« أنسك . . » والتفت الى دنانير وقال « إني أوصيك بهذه الخلة يا دنانير . .  
وان كنت لا أرى حاجة الى الوصاية لما آنته من حيك لها . . »  
وكانت ميمونة في اثناء ذلك واقفة وركبتها ترتعدان وقد تولاهما  
الحجل وكانت قد أعدت عبارة تقولها في وداعه فلما رأته نسيها وتلعم لسانها  
أما هو فلما فرغ من وداع عبادة تحول نحو ميمونة ومد يده فقبض على  
يدها وأحس برعشتها وبرودتها فضغط عليها خلسة ووجه كلامه الى دنانير وقال  
« وهل أوصيك بلبياء . كان يجب أن أوصي أم حبيبة بها على اننى لا أرى  
حاجة الى ذلك وقد رأيت من تحابهما ما لا حاجة معه الى توصية بل يجدر بي  
الآن أن أوسط لبياء لدى مولاتنا . . من أجلي » ثم وجه خطابه الى ميمونة  
وهو لا يزال ضاغطاً على يدها ضغطاً تراقبه رعدة متبادلة وقال « وهل  
تتوسطين لي عندها . . ما أسرع تسلطك على قلب مولاتنا حتى استأنست بك  
كانها تعرفك منذ أعوام » قال ذلك وابتسم وقد أبرقت عيناه وكادت ان تبيحان  
بما في قلبه

وأما هي فلا تسئل عن حالها وما كان يتجاذبها من الحجل والامتان والفرح  
لما آنته من تلاففه وما تومنته في خلال حديثه من المغامز الدالة على حبه فسكنت  
وأطرقت وهذا ابلغ جواب من فتاة في مثل هذه الحال لكنها لم تتالك عن  
الابتسام وبان السرور في وجهها

أما هو فكأنه تنبه لنفسه وندم على ما فرط منه فأقلت يدها وعاد الى  
انقباضه وأظهر الجلد والاهتمام وتحول عن ميمونة الى دنانير فيها بسرعة وقال  
« أستودعكم الله الى الغد » وخرج مسرعاً

وكانت دنانير قد لحظت ما بدا منه وسرها ما رأت من اهتمامه بعد أن  
استاءت من فتوره للمرة الاولى ولكنها تجاهلت وأجابت الطبيب جواب  
الوداع وعادت الى ضيفتها فقالت « ما أكثر اهتمام هذا الطبيب وما أكثر  
شواغله فانك لا تلبث أن تراه جالساً حتى تراه نهض الى شغل هام . إني لم أفهم  
سره . . »

فقطعت عبادة حديثها قائلة « هذا هو حاله معنا منذ عرفناه فع توالى

احسانه علينا لا أذكر انه جالسنا ساعة أو بعض ساعة فاني لم أره إلا مهتماً مقطباً وهذه أول مرة رأيته يتسم ولم يطل ابتسامه فعاد الى حاله ،  
 أما ميمونة فبعد أن اطمان بالها وفرح قلبها بما اظهره بهزاد في ذلك الخطاب ما لبثت أن عادت الى هواجسها عندما أفلت يدها بسرعة وتغير وجهه فجأة على انها تشاغل عن هواجسها بالمحادثة وبعد قليل عادت دنائير الى الترحيب بهما ثم دعتهما الى الرقاد فذهبتا

## الفصل العشرون

### قاعة العيارين

أما سلمان فقد علمت انه هو الذي تنسك باسم الملقان سعدون واختلط بالعمامة وصاحب رئيس العيارين خدمة لمولاه بهزاد . وقد ترك الهرش في ذلك المساء طي أن يعود اليه في تلك الليلة ولو طال غيابه ويلاقيه في قاعة العيارين . وقد رأيت ان سلمان انما أسرع الى القصر ليطلع الطبيب على موت الرشيد فلما رآه يعلم ما لم يعلمه هو من أمر البيعة وغيرها رأى أن يعود بهذه الاخبار الى الهرش لعله اذا رافقه الى صاحب الشرطة يقدر أن يبغته بهذا الخبر فيزيد اعتقاده بصدق مندله

فلما ودع مولاه الحكيم اختلى لتبديل ثيابه وعاد الى العمامة والسالفين والاحية والجببة وأسرع الى بغلته فركبها وسار يطلب قاعة العيارين . وكان الليل قد انتصف وأقفلت المنازل وطاق الحفراء يتنادون واذا رأوا غريباً أوقفوه . أما سعدون فقد كان من لباسه وقيافته شافع حتى بلغ جسر بغداد ولم يكن له بد من المرور عليه الى البر الغربي والحفراء قائمون على طرفيه وقاعة العيارين بالحربية وراده فمر على الجسر ولم يعترضه أحد حتى دخل البر الغربي وهو بغداد الاصلية مدينة المنصور وحوها الارياض القديمة وفيها الشوارع الضيقة وقد علق المصاييح في أوائلها ووقف الحفراء يخفرون بأسلحتهم

ونبايتهم فلما خامره الخوف منهم وقف ونادى أحدم فأسرع اليه فقال له  
« سر امامي الى قاعة العيارين »

فلما سمعه الخفير يخاطبه بصيغة الامر ورأى لباسه توهمه من أهل الذمة  
المقربين من الخليفة للطبابة أو النجامة أو نحوها . وما زال الخفير ماشياً بين  
يديه حتى أقبل على بناء نغم من ناحية الحربية ببابه عياران عليهما المئزر وعمامة  
الحوص فلما رأيا الملقان على بقلته عرفاه فتقدما اليه وأعاناه في التحول وقال له  
« ان مولانا المرش في انتظارك وانما ذهب الى مكان قريب لا يلبث أن يعود  
وقد أوصانا أن نرحب بك وندخلك القاعة تنتظره فيها »

فترجل سلمان ومشى العيار بين يديه وهو يتخطى وراءه بمكازه حتى  
استطرق من الدهليز الى ميدان تطرق منه الى قاعة كبيرة فيها عدة مصابيح  
مدلاة من سقفها كالثريا وفي أرضها بساط عليه نقوش ووسائد ومقاعد . فدعا  
العيار للجلوس على مقعد في اليمين جلس وهذه أول مرة دخل فيها قاعة العيارين  
فلم يدهشه ما هناك من الأثاث الثمين ولكنه دهش لما رآه معلقاً في جدرانها  
من ضروب الاسلحة وأدوات الحرب وأصناف الخيل . فشاهد فضلا عن السيوف  
والاقواس والرماح أنواعا من المقاليع بين مصنوع من الجلد أو مجدول من  
الشعر أو من الحرير وكل مقلاع مخلاته بجانبه والمخالي أيضاً أنواع . ورأى في  
بعض جوانب القاعة عصياً طويلة من خشب الشوم ونحوه يثب عليها العيارون  
في قطع الانهر وبجانبها سلام مصنوعة من الجبال تنتهي من اطرافها بكلايب  
يرمونها على السطوح اذا أرادوا الوثوب عليها ويقال لها سلام التسليك . غير  
ما رآه من أدوات النفط التي يشعلون بها الخرق المبتلة بالنفط ويرمونها بالمجانيق  
ولم ير هناك الا منجنيقاً واحداً صغير الحجم لرمي النبال او النفط وليس مما  
ترى به الحجارة الضخمة غير ما رآه معاقماً في صدر القاعة من الدبابيس وهي  
العصى فيها المسامير من الحديد وبعضها مسامير من الفضة أو الذهب . وهذا  
الدبوس لا يحمله إلا الرؤساء ويذنها دبابيس مصنوعة من الحديد ورأى على  
رف هناك أرغفة من الرصاص يستخدمها العيارون رمياً على أعدائهم فتذهب  
بقوة عظيمة وقد تقتل عدة أشخاص برمية واحدة . ورأى كثيراً من

أدوات القتل والكسر والنقب وضروباً من الجبال وغيرها مما يحتاج إليه العيارون

## الفصل الحادي والعشرون

### صاحب الشرطة

قضى سلمان نصف ساعة ظنّها عدة ساعات لفرط قلقه واستغرق في هواجسه يراجع ما مر به تلك الليلة من الغرائب . ثم سمع ضوضاء يباب القاعة فعلم ان الهرش قدم فتحفز للاقائه وهو يصلح هندامه . واذا بالهرش قد دخل مسرعاً وفي أثره شاب جميل الصورة بادي الطلعة عليه قباء وسراويل وقلنسوة وقد نبت عارضاه وبان عذاره ويظهر من بياض وجهه انه من الغلمان الارقاء البيض فوقف الغلام بالباب وأسرع الهرش الى سلمان وكان قد وقف له خياضه وابندره قائلاً « قد أبطأت عليك رغم ارادتي فان حامداً ( وأشار الى الغلام ) له حاجة عند صاحب الشرطة وأني إلا أن يصحبني الليلة جئت به معي فهل أنت عازم على الذهاب اليه أيضاً ؟ »

قال « انما جئت عملاً باشارتك مع علمي اننا في نصف الليل ولكنك ألححت علي بالرجوع . . فاذا كنت لاترى حاجة الى الذهاب رجعت . . . » فقطع الهرش كلامه قائلاً « بل أنا شديد الرغبة في الذهاب ولو اننا في آخر الليل . . . هيا بنا فان الركائب معدة لنا » ثم التفت الى الغلام وقال « نحن ذاهبون مع الملقان سعدون الى صاحب الشرطة فاذا وصلنا اليه أوصيته بك ليدخلك في سلك الشاكرية وذلك خير لك من أن تكون عياراً . . . »

ففهم سلمان ان الهرش وعد الغلام بادخاله في ذلك السلك وتبينه عن قرب فرأى فيه فضلاً عن الجمال ذكاء وانفة ولم يستغرب ذلك فقد كان بين الارقاء المجلوبين الى بغداد أو المولودين فيها جماعة من أجل خلق الله وأذكارهم

وأكثر ما يتعاطونه الجندية أو الحراسة ينتظمون مع الشاكرية الذين يتولون نقل المراسلات في قصر الخليفة فخرج الهرش وهو ممسك بيد سلمان احتفاء به وفي خاطره أن يسأله عما اكتشفه من الاخبار الجديدة ولكنه استنكف من التعجيل في ذلك

فلما خرجا من القاعة ركب سلمان بغلته وامتطى الهرش فرسه ومشي في ركابيهما عياران وركب ذلك الغلام حماراً وسار في أثرهما وهو يستغرب ما يراه من احتفاء الهرش بذلك الملقان . . وانما كان همه أن يوفق الى الالتحاق بالشاكرية عملاً بإشارة مولاه مع أنه كان يتأهب للخدمة في وجاق العيارين ولكنه لم يكن يستطيع مخالفة الهرش لأنه ربي في حياطته ولم يكن يعرف ولياً سواه . وكان يطيعه على الخصوص لما كان يؤانسه من انعطافه نحوه غير انعطاف المولى الى مولاه لأنه كان يعامله معاملة الاب لابنه وقد عني بتعليمه وتثقيفه على غير ما تعود العيارون كانه مكلف بذلك بقول فوق قوله ولم يكن منزل صاحب الشرطة بعيداً عن قاعة العيارين فما عتموا أن وصلوا اليه فترجلوا بجانب باب كبير كان حارساه قد غلب عليهما النعاس فلما سمعا قرعة اللجم نهضا فرأيا الهرش فوسعا له بلا استئذان فدخل والملفان سعدون الى جانبه يتوكأ على عكازه فمشى أحد الحراس بين يديهما بالمصباح في رواق مستطيل الى قاعة عليها ستر مسدول . . فمشى الهرش وهو يتنحج فتقدم اليه الحاجب وتناول لمصاحفته فابتدره قائلاً : « هل مولانا هنا » قال « أظنكم على موعد من لقائه لاني لا أعلم أنه بقي ساهراً هنا الى مثل هذه الساعة منذ أعوام مع شيخوخته . . »

فلم يجبه الهرش على هذه الملاحظة بل ظل سائراً حتى رفع الستر وأشار الى الملفان سعدون أن يدخل وأوماً الى حامد أن يمكث في الرواق ربناً يستقدمه. أما الحاجب فأعلن قدوم الزائرين بقوله « ان الهرش داخل يا مولاي » فدخل سلمان وهو في ما وصفناه من قيافة الملفانية بعد أن نزع حذاءه وترك عكازه بجانب الباب . فرأى ابن ماهان في صدر القاعة على وسادة وبجانبه

رجلان قد أقبل أحدهما نحوه كأنه يقص عليه حديثاً هاماً . فعرف سلمان حالاً انه سلام صاحب البريد جاء ليسر اليه الخبر الذي وصله تلك الليلة عن موت الرشيد وكان ابن ماهان يتناول بعنقه لسماعه وقد بدت الدهشة في عينيه

وكان الرجل الآخر شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره جميل الطلعة حسن البزة وجهه مشرب حمرة تتلألأ في عينيه ماء الشبيبة وعليه ثوب ثمين وحول قلنسوته عمامة مزركشة وقد تربع وأخفى قدميه تحت سراويل من الحز الثمين . وقد تضوعت القاعة من طيبه ولم يكن هذا الشاب أقل اصفاً لحديث صاحب البريد من ابن ماهان . فعرف سلمان حالاً انه ابن الفضل ابن الربيع ولم يكن أحد من هؤلاء يعرف الملقب سعدون إلا بما سمعوه عنه من الهرش . .

وكان ابن ماهان قد طعن في السن ومطامعه مازالت في ابانها . وله حية واسعة كان يخضبها بالحناء وقد تفضن جبينه واتضحت الشيخوخة في وجهه . ولكن الكبرياء والغرور مازالا ظاهرين في جلسته ولفته وأسلوب خطابه . وقد زاده كبراً ما اختص من الدالة على رجال الدولة لسبقه في خدمتها من أيام المنصور . وخصوصاً لما توفي هذا الخليفة سنة ١٥٨ هـ وأبى عيسى بن موسى لما علم بموته أن يبايع لابنه المهدي وكان ابن ماهان حاضراً فوضع يده على قبضة حسامه وصاح فيه « والله لتبايعن أو لأضربن عنقك » فبايع فارتفعت منزلة ابن ماهان لدى الخلفاء العباسيين من ذلك الحين . وتوالى على عرش الخلافة في أيامه أربعة خلفاء آخرهم الرشيد . وكان قد حسد البرامكة ووالى الفضل بن الربيع واتفقا على معاداة الفرس ومن قال قولهم . ولتلك رأيناه مقرباً من الامين وقد جعله صاحب شرطته فأصبح همه تأييد سلطته

وكان شديد القلق لاستطلاع مستقبل حال الخلافة بعد سفر الرشيد وكاشف الهرش بذلك فأخبره بمقدرة الملقب سعدون على استطلاع الغيب وكان الهرش قد وعده أن يأتيه به في تلك الليلة كما تقدم فلبث ابن ماهان في انتظاره على مثل الجمر فجاءه صاحب البريد منذ ساعة وأسر

إليه خبر الرشيد وجلسا يتباحثان في ماعساه أن يحدث من التغيير أما ابن الفضل فكان يتردد الى ابن ماهان ويحاله بلا كلفة مراعاة لمنصب أبيه في الوزارة فاشترك في سماع الخبر . فلما سمع ابن ماهان الحاجب ينبئه بقدم الهرش التفت نحو الباب فرآه داخلا وسلمان الى جانبه فرحب بهما واصطنع ضحكة يظهر بها تلاففه كما يفعل بعض المتغطرسين اذا أحب التظاهر بالتواضع ولا يخفى غرضه على جلسائه فيستثقلون ذلك التلطف لظهور التكلف فيه

ولم يحفل سلمان ( أو الملقان سعدون ) بتلك الظواهر فظل داخلا وسلم وتقدم الهرش فقال : « هذا الملقان سعدون قد جاء معي »

فابتسم ابن ماهان وهو يمشط لحيته بأنامله ولم يترشح من مكانه وقال « مرحبا بالملقان العالم النجم » وأوما إليهما أن يجلسا والتفت الى صاحب البريد وقال « قد كنت في قلق لاستطلاع الخبر الذي قصصته على فأجبت أن استعين على كشفه بعلم هذا النجم وقد ذهبت الحاجة الى ذلك الآن » ثم بلغ ريقه وقال وهو يصلح مجلسه « ولكني سررت بمعرفته لعل احتاج اليه في فرصة أخرى . »

وأدرك الهرش أن صاحب الشرطة يحسب الخبر الذي قصه عليه صاحب البريد لم يبلغهما فنظر الى الملقان سعدون نظرة فهم مراده منها وهو على ثقة انه يحمل خبراً لا يعرفه أحد من أهل بغداد فأجاب الهرش بنظرة حادة وابتسم وهز كتفيه . فحول الهرش وجهه الى ابن ماهان وقال « أرى صاحب الشرطة في شغل مع صاحب البريد ومع مولانا ابن الفضل وأخشى أننا ثقلنا عليه بمجيئنا »

فضحك والاهتمام باد في عينيه وقال « ان المنجمين لا يستغنى عنهم في مثل هذه الحال لاسيما اذا صدقوا في تنبئهم » ثم وجه خطابه الى سلمان وقال « هل كشف لك خبر يهمننا يا ملقان ؟ »

فقال وهو يظهر الاستخفاف « ربما كان ذلك »

فاعترض الهرش كلامه وقال « ان الخبر الذي تتسارون به قد كشف لنا

منذ ساعات . . . »

فتجاهل ابن ماهان وقال « أي خبر تعني ؟ »  
فنظر المرشش الى سلمان ففهم مراده وقال « ليس موت الرشيد جديداً  
عندي ولا أقنع به وحده بل ان عملت المنديل هذه الليلة ربعا ..

## الفصل الثاني والعشرون

### الدهشة

فبغت ابن ماهان لهذه المفاجأة ونظر الى صاحب البريد كأنه يستعينه في  
الاستغراب فتصدى ابن الفضل للسؤال وقال « وهل عندك خبر غير  
موت الرشيد ؟ »

قال ه ان الرشيد رحمه الله كان مريضاً قبل سفره وكلنا كنا نتوقع  
موته لكن المنديل كشف لي أموراً اذا وعدتموني بكتابتها عن مولانا الامين  
حتى تظهر له من غيري قلبها لكم « قال ذلك وهو لا يعني كتابتها حقيقة وانما  
لجأ الى هذا الشرط التماساً لرغبة القوم في سرعة النشر - كذلك يفعل بعض  
أهل الدهاء اذا أحبوا نشر مآثره لهم فانهم يظهرون الرغبة في كتابتها ويبالغون  
في خوفهم من نشرها وهم ملذون أن تحذير السامع من افشائها يبعثه على  
الرغبة في اذاعتها (سراً) ويعظم عنده قدر الناقل

فلما سمعه ابن الفضل يطلب التكم زاد رغبة في الاطلاع وقال  
« اذا كنت تعرف شيئاً يستحق الاهتمام فان اطلع مولانا الامين عليه  
يدعو الى تقربك ورفع مقامك . . ماذا عسى أن يكون ما عندك ؟ »

فقال « قد اطلعت على سرهم ابن الفضل أكثر مما بهم سائر الحضور . ه  
فسحف ابن الفضل نحوه وهو لا يشعر وقال « وما ذلك ؟ وكيف بهم  
ابن الفضل على الخصوص . . » قال ذلك وهو يظن الملفان لا يعرفه  
فقال سلمان « ان الخبر بهم ابن الفضل لانه يتعلق بابيه الوزير . . .  
أي بابيك ه

فاستغرب معرفته اياه ولكنه شغل عن ذلك برغبته في الاطلاع على ذلك الخبر ونظر الى ابن ماهان فالتفت هذا الى الملقان وقال أرى دعواك عريضة فقل ما عندك لئرى . فاذا صدقت ضمنا لك التقرب من مولانا «  
قال « أظنك تعني أمير المؤمنين الأمين فالتقرب منه سعادة وانما نحن عبيده . . . »

فاستغرب تصريحه بقوله « أمير المؤمنين » فقال « كيف تدعوه أمير المؤمنين وهو لا يعلم الا انه ولي العهد فب ان الرشيد مات فهل الخلافة صائرة اليه ؟ »

قال « بل قد صارت له وحده وقضى الامر . . . »  
فعلم اذ ذلك انه يعرف شيئا جديداً فقال « له وحده ؟ وكيف صارت ؟ »  
فاشار باصبعه الى ابن الفضل وقال « قد صارت بسعى مولانا الوزير والدك . . . »

فتناولت أعناقهم لسماع الخبر والهرش لا يقل عنهم استغراباً فابتدره قائلاً « ذلك شيء جديد يظهر انك عرفتة بعدئذ وكيف ذلك . . . ؟  
اقصص علينا ما عرفتة . . . »

فاعتدل في مجلسه وأخذ يقص ما سمعه من بهزاد وهو مطرق كأنه يقرأ في صحيفة بين يديه والسكل صامتون وقلوبهم تحفق دهشة واستغراباً ولا سيما ابن الفضل فانه ازداد افتخاراً بما أتاه أبوه من الخدم الجليلة في مصلحة الامين وكان قد اطلع على مقدمات ذلك الحديث من قبل فلما سمع النتائج التي قصها سلمان تحقق صدقها . ولم يتم سعدون خبره حتى دهش له ابن الفضل ولم يتالك أن سحف حتى دنا منه وربت له على كتفه استحساناً وإعجاباً وقال « بورك فيك انك منجم عجيب . . . ؟ »

أما ابن ماهان فتماسك عن الاعجاب وقال « هل أنت واثق مما تقول يا رجل »

فرفع سلمان منكبيه وحاجبيه وقلب شفته وقال « هذا ما كشفه لي المندل ولا أعهد المندل يخذعني من قبل »

فصغر صاحب البريد في عيني نفسه واحتقر الخبر الذي جاء به وغلب عليه السكوت . اما ابن ماهان فالتفت الى المرش وقال « اذا صح ماجاءنا به الملقان فان الامر ذو خطر وانى أبشره برياسة المنجمين في دار الخلافة فاكتموا الآن ما سمعتموه لئلا يرى ما يكون . . . » وتناول من تحت وسادته صرة من النقود وقدمها الى المنجم وهو يقول « وهذه أجرة طريقك وعنم البخور »

فتباعد سلمان ويدها وراء ظهره كأنه يستنكر ذلك الانعام ويد ابن ماهان لا تزال ممدودة بالصرة فالتفت الى المرش لفته الاستغراب فضحك هذا وتناول الصرة وأعادها الى مكانها وقال « ان منجمنا لا يتعاطى هذه الصناعة رغبة في الانعام وانما هو صديق يخدمنا في سبيل الصداقة » فأعجب الحضور بتلك الانفة وقال صاحب الشرطة « لا بأس . . . » فانه نائل أضعاف ذلك بما أرجوه من تقربه الى الخليفة »

وعند ذلك تحفز سلمان للوقوف وهو يقول « اعذرونا فقد أزعجناكم وأطلنا سهركم »

فلم يتمالك ابن ماهان عن النهوض احتراماً له وقد ذهبت كبرياؤه وأحس بافتقاره الى علم الرجل - وذلك شأن الناس في معاملة أهل المعرفة فانهم تعودوا احترام الظواهر لاول وهلة حتى تظهر المعرفة فتكون العاقبة لها - فقد تجالس رجلا لا تعجبك بزته فتحتقره ولا تزال ترى لك الفضل عليه حتى يتكلم فاذا رأيت منه علماً انقلب احتقارك احتراماً وشعرت بفضل له عليك وربما دخل عليك فلم تقف له فلا تلبث اذا عرفت فضله أن تخرج لوداعه وتزوده الشناء والاعجاب - كذلك فعل ابن ماهان بالملفان سعدون فقد رأيت انه استقبله استقبالا بارداً ظناً منه انه جاء يتزلف اليه يلتبس انعامه فلما رأى علمه وتجايفه عن قبول الانعام احترامه ووقف لوداعه وشيخه الى باب المجلس وتقدم اليه أن يأتيه في الغد

ولما ودع ابن ماهان المرش بالغ في الشناء عليه لانه كان سبياً لتعريفه بالمنجم فتذكر المرش غلامه حامداً وكان لا يزال في انتظاره بالباب فاجابه « اني لم أفعل شيئاً يستحق الشناء وان نعمك متوالية علينا ثم نادى حامداً فأتى مقدمه

الى ابن ماهان وقال له « هذا غلام أضن به وأحب أن يكون في جملة رجال  
الشاكرية في قصر الخليفة فاذا تفضلت أدخله في جملتهم . . . »  
فتقدم الغلام وأكب على يد ابن ماهان فقبلها ووقف متأدباً فقال له  
« ادخل الآن الى دار العلمان وفي الغد تكون في جملة الشاكرية » والتفت  
الى المرش وقال « كن مطمئناً انه سيكون على ما تحب »

فانى المرش عليه وخرج

أما ابن الفضل فكان أكثرهم اعجاباً وارتياحاً وتوسم في الرجل  
منفعة له شخصية فراققه حتى خرجا من الباب ولم يبق معهما غير المرش  
فاسر اليه أنه سيكلفه بامر هام لاعلاقة له بالخلافة والح عليه أن يجيئه  
في فرصة أخرى

فاشار مطيعاً وخرج مع المرش ثم ودعه وركب بغلته وسار ولم يبق  
من الليل إلا القليل . أما صاحب البريد فلم يتم تلك الليلة استعداداً لمقابلة  
الامين لينقل اليه خبر والده . وقد كان عليه أن يبلغه اياه حال وصوله ولكنه  
لم يتالك عن مكاشفة صاحب الشرطة به من قبل . فبكر في الصباح الى قصر  
الخلد حيث كان يقيم الامين الى ذلك اليوم ليطلععه على الخبر

## الفصل الثالث والعشرون

### المبايعة

كل ذلك وأهل بغداد غافلون عما جرى فاصبحوا في اليوم التالي والمنادون  
يطوفون الشوارع ينعون الرشيد ويترحمون عليه ويعلنون خلافة الامين .  
واهتم الهاشميون ورجال الدولة باخذ البيعة على جاري العادة  
وبكر سعدون في الصباح التالي ( ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ) الى  
دار الشرطة فرحب به ابن ماهان ( ١ ) وأركبه سرا في حاشيته ليشهد الاحتفال  
بالبيعة . حتى اذا وصلوا قصر الخلد ترجلوا ودخلوا في جملة الداخلين

( ١ ) جاء في كتب التاريخ ان الامين ولي ابن ماهان الشرطة يوم تولى الخلافة

بين تزامم الاجناد والاعيان . ولما أتوا دار العامة أذن لهم وسعدون  
بجانب ابن ماهان

وحضر البيعة شيوخ بني هاشم الذين كانوا في بغداد والقواد وأكابر رجال  
الدولة حتى غصت الدار بهم . وجلس الامين على سرير الخلافة وكان قد بلغ  
الثالثة والعشرين من عمره وتحشّن عضله واسترسلت لحيته واستطال عارضاه  
وبانت رجولته . وكان طويل القامة قوي العضل يلقي الاسد فلا يبالي به وكان  
مع ذلك جميل الصورة أبيض اللون صغير العينين ألقى الانف سبط الشعر وفي  
وجهه أثر الجدري (١) وكانوا قد البسوه بدلة الخلافة وجعلوا العمامة المرصعة  
على رأسه والبردة على كتفه وقد جاءه بها رجاء الخادم من عند أخيه صالح من  
طوس . وجاءه أيضاً بقضيب الخلافة والخاتم فلبس الخاتم باصبعه وحمل القضيب  
بيده فازداد جلالاً وجمالاً والناس جلوس بين يديه - بنو هاشم على الكراسي  
وسائر الناس على الوسائد أو على البساط وبعضهم وقوف والكل منصتون  
مطرقون حزناً على الرشيد واحتراماً للامين

وكان أول من تقدم من الحضور سلام صاحب البريد فانه أقبل إليه  
فغزاه باييه وهنأه بالخلافة ثم تقدم بنو هاشم فمزوه وبايعوه ووكل سليمان بن  
المنصور شيخ بني هاشم بأخذ البيعة على القواد وكبار رجال الدولة وفي جملتهم  
ابن ماهان وابن الفضل

وكان الملقان واقفاً في جملة الجمع ولم ينتبه له أحد فلما فرغ الناس من  
البايعة وقف الامين فيهم خطيباً فاصفوا وتطاولوا باعناقهم فحمد الله ثم قال  
« يا أيها الناس خصوصاً يا بني العباس إن المنون بمرصد لدوي الانفاس حتم  
منى الله لا يدفع حلوله ولا ينكر نزوله . فارتجعوا قلوبكم من الحزن الماضي الى  
السرور بالباقي تموزوا ثواب الصابرين وتعطوا أجر الشاكرين » (٢)

ولم يكن الناس يتوقعون هذه الجرأة منه فاستغربوا ذلك ثم أمر أن يفرق

(١) ابو الفداء ج ٢ والسعودى ج ٢ وسير الملوك

(٢) ذكروا انه خطب ذلك في جامع الرصافة

في الجند رزق أربعة وعشرين شهراً وكانت قد جرت العادة إذا تولى الخليفة أن ينعم على الجند بأرزاقهم ليكتسب ثقتهم ولما فرغ من مبايعة الناس تقدم الحسن بن هانيء ( أبو نواس ) شاعره فهنأه بالخلافة وعزاه بأبيه وهذا قوله :

جرت جوار بالسعد والنحس فنحن في وحشة وفي أنس  
العين تبسكي والسن ضاحكة فنحن في مآثم وفي عرس  
يضحكها القائم الامين ويب كفيها وفاة الرشيد بالامس  
بدران بدر أضحي ببغداد في الـ خلد وبدر بطوس في الرمس

وكان ابن الفضل في اثناء ذلك لا يشغله شاغل عن الامر الذي يريد مسارة الملقان سعدون به لكنه ما كاد يفرغ من مشاهدة الاحتفال حتى أحس بانقضاء الوقت على أنه أحب مخاطبة الرجل فرآه يتأهب للخروج فاعترضه وسأله القدوم معه فاعتذر بما يدعو الى سرعة ذهابه الساعة وانه سيعود اليه في المساء وكان عازماً على البحث عن مولاه بهزاد ليرى ما يكون فقال له ابن الفضل « عد ألينا هذا المساء في منزلنا بالرصافة » فودعه ومضى يلتمس القصر المأموني

## الفصل الرابع والعشرون

### اهل القصر المأموني

وكان أهل ذلك القصر قد بلغهم ما أصاب الرشيد فشق خبر وفاته عليهم ولا سيما زينب لانها كانت شديدة الولع به فلما سمعت الخبر بكت كثيراً . وأدركت دنائير الانقلاب الذي يخشى حدوثه بعد موت الرشيد لاطلاعها على كثير من دسائس أهل البلاط وان كانت لم تعرف بعد ما عرفه بهزاد من نكت بيعة المأمون . على أنها أصبحت تنتظر خبراً من مولاها لانه اذا كان نصيبه ولاية خراسان بعد وفاة أبيه كما تم الاتفاق يوم سفرهما فرما بعث الى ابنته وسائر أهله بالذهاب اليه . وشعرت وهي في ذلك الاضطراب بحاجتها الى

الطبيب بهزاد تستشير به بما تفعل أو لعله يساعدها في التخفيف عن زينب قائم، مع صغر سنها اشتد حزنها على موت جدتها وانقبض صدرها ولم تعد تفرح لشيء بعد أن كانت تضحك لأي شيء فلازمت غرفتها ودنانير لاتفارقها . وأمسكت زينب عن الطعام حتى أثر الحزن في صحتها وأصابها دوار وامتنع لونها وعجزت دنانير عن تعزيتها . ولما شغل بالها على صحتها استأذنتها في استشارة بعض أطباء القصر فابت فالت عليها بذلك فاجابتها « أين طبيبنا الحراساني ؟ »

وعلمت دنانير أنها تستأنس به فهو يسليها عن حزنها فضلا عن معالجة بدنها فكثت تنتظر مجيئه بفارغ الصبر

أما عبادة أم جعفر فقد ساءها موت الرشيد لانه بمنزلة ولدها كما علمت فضلا عن ذهاب آمالها بما وعدتها به زينب من التوسط لديه في شأنها . ولكنها اشتغلت من الجهة الأخرى بما عساه أن يكون من الانقلاب في الخلافة مما قد يعود بالخير عليها على أنها كانت ضعيفة الأمل بذلك لعلها ببعض ما يسعى فيه اعداء المأمون وم اعداء الفرس واعدائها طبعاً . ورأت من أم واجباتها ان تساعد دنانير في التخفيف عن زينب وإذا خلت بها تباحثتا في ما سيكون وأما ميمونة فقد شغلت عن ذلك كله بما هاج في قلبها من الشوق إلى حبيبها مع رغبتها في تحقق ما في خاطره من نحوها - والحب يشغل صاحبه عما حوله من الشؤون فإذا غاب حبيبه طارت نفسه شعاعاً وأصبح همه أن يعود إليه . لا شيء ينسيه شوقه أو يعزيه طلى وجده وإذا اشتغل بشيء فإلى أجل . وإذا اجتمع بالحبيب قام بينه وبين ماجريات الحوادث سد منبع فيصبح أصم الا عن سماع حديثه وأبكم الا في جوابه وأعمى الا عن رؤيته . وقد يسمع أو يرى ولكن كالسامع من وراء جدار أو الناظر في ديجور الظلام وأما الطواريء إذا وقعت حوله فأنما يهمه منها ما يتعلق بقربه من الحبيب أو بعده عنه - فلم يكن موت الرشيد ليهم ميمونة الا من حيث هذه العلاقة بهذه الشؤون لأنها مازالت ترتاب بما في نفس بهزاد ولا سيما بعد أن ودعها بالامس وخرج مسرعاً على تلك الصورة . ومضى معظم ذلك النهار ولم يرجع

ولا جاء خادمه وكانت تستأنس به وقد ودت مجيئه على الخصوص لتسأله  
غيابه وهل يطول

قضت النهار كله في قلق لا تبالي باهتمام أهل ذلك القصر بالحزن ولا بما  
قام في بغداد من الضوضاء للاحتفال بالبيعة وان كانوا بعيدين عن مركز الاحتفال  
على انها كانت تتشاغل بالجلوس الى زينب وتخفف عنها بما يحضرها من عبارات  
التعزية وعيناها تنظران نحو الدار تتوقع أن ترى قادمًا يبشر بمجيء بهزاد  
وأذناها مصغيتان لعلها تسمع وقع قدميه ثم سمعت دنانير تحاطب جدتها بشأنه  
وتستبطئه وتتمنى قدومه فحقق قلبها ولكنها ظلت ساكنة وبالها في قلق  
والشمس قد مالت عن خط الهاجرة وهي لم تذق طعاماً وأهل القصر في شاغل  
عنها بشؤونهم وأحزانهم

وهي في ذلك رأت بعض الغلمان قادمًا في وجهه خبير فتحضرت  
للاقائه ثم أمسكت نفسها حياءً لئلا يكون الغلام قادمًا الى دنانير بشأن يتعلق  
بالقصر فتظاهرت انها نهضت لبعض شؤونها وتمشيت على مهل حتى صارت بالبواب  
فأرت الغلام وقف وحيا دنانير وقال لها « ان سلمان غلام الطبيب بالبواب »  
نخفق قلب ميمونة وكادت البغته تظهر في عياها لجرد الاشارة الى اسمه .  
أما دنانير فأجابت الغلام « يدخل سلمان . . . وعساه ان يكون مبشراً بقدوم  
مولاه . . . فاننا في حاجة اليه اليوم »

وبعد هنيهة اقبل سلمان بلباسه الاصلي وهو يتناقل بمشيته ويتظاهر  
بالحزن والانقباض وميمونة تراعي حركاته فلما أطل على القاعة انحى احتراماً  
ووقف حتى يؤذن له . فابتدرته دنانير قائلة « ما وراءك يا سلمان . . . أرايت  
ما أصابنا ؟ » وختقتها العبرات

فاطرق ودخل حتى دنا من مجلس زينب وانحى كأنه يريد تقبيل يدها  
وكأنه مجيش للبكاء ثم التفت الى دنانير وهو يتصاغر ويظهر الكآبة وقال  
« ان المصاب جلدل يا مولاتي . . . ان وفاة أمير المؤمنين ضربة كبيرة . . . اطال  
الله بقاء مولاي المأمون وأنجاله وجعله خير خلف لخير سلف . . . » وغص  
بريقه وتراجع حتى وقف في بعض جوانب الغرفة

فاشارت اليه دنانير ان يقعد وقالت له « ارأيت طيبينا اليوم ؟ »  
قال « كلا ياسيدتي لم أره منذ افترقنا في الامس وكنت أحسبه رجع  
الى هنا . . . »

قالت « لم يجيء ياسلمان . وقد كنا نتوقع مجيئه ونحن في هذه الحال  
وقد مرضت مولاتنا ولا ترضى طبيياً سواه . . . » قالت ذلك وفي كلامها غنة  
العتاب

فقال سلمان « الغائب عذره معه حتى يحضر . . فهو لا يلبث أن يأتي ولا  
اخاله يغيب الى الغد . . او . . »

فقطعت عبادة كلامه قائلة « الا تعلم اين ذهب ؟ . . »  
قال « كلا . . وهل يعلم أحد بنهبه او مجيئه ؟ »  
فقالت دنانير « قد عودنا التخلف عنا يوماً أو بضعة ايام ثم يعود الينا  
على غير موعد ولكن . . »

فقالت عبادة « اتظنه ذهب الى بيته في المدائن ؟ »  
فرفع حاجبيه وكتفيه وشخص بعينه كأنه يتنصل من تبعة الدلالة على  
مكانه أو يبالغ في تجاهله

وكانت ميمونة تسمع ما دار من الحديث والحياء يمنعها من الدخول فيه  
ثم غاب عليها حب الاطلاع فقالت وهي تتظاهر بالسذاجة وقلة الاكتراث  
« أظنه الآن في بيته بالمدائن وقد اقلق بابه ليشتغل بالكيمياء أو استخراج  
الكنوز كما يقولون . . . » ومع شدة تحفظها وتجملها لم تتم هذه العبارة حتى  
توردت وجنتها ووقع نظرها على دنانير فرأتها تنفرس في وجهها وهي  
تبسم فازدادت خجلاً واطرقت وتحولت الى وسادة في بعض جوانب الغرفة  
قعدت عليها وتشاغلت باصلاح خمارها

فتجاهل سلمان عن ذلك كله وقال وهو يوجه كلامه الى عبادة « ان  
الناس يهتمون مولاي بأمر كثيرة هو برىء منها وأما انزواؤه في  
بيته احياناً فهو للمطالعة في بعض كتب الطب او الفلسفة . وفي كل حال لو  
عرفت انه هناك الآن لذهبت اليه واستقدمته . ولا أظنه يبطل كثيراً .

فاذا لم يأت الليلة ولا صباح الغد عمدنا الى البحث عنه في المدائن أو غيرها ،  
وكانت دنانير تبالغ في اظهار القلق لغياب بهزاد إرضاء لزيدب ومراعاة  
لاحساس ميمونة لعلها ان الحياء يمنعها من اظهار قلقها فنابت هي عنها  
وتكلمت بلسانها فلما سمعت قول سلمان قالت « لا بد من البحث عنه الليلة  
اذا شئت »

فتراجع وأطرق وقال « ان امرك نافذ ياسيدتى وسأفعل ما تشائين وربما  
آتيكم بخبره الليلة او في صباح الغد »

فأثنت دنانير عليه وسكتت وهي تنظر إلى ميمونة فرأتها ترنو اليها  
ودلائل الشكر بادية في عيائها فابتسمت وحولت وجهها الى عبادة وقالت  
« ألا ترين ذلك ؟ »

فأجابت على الفور « بلى . . واذا كان سلمان مشغولاً بما يمنعه عن  
البحث فأنا أذهب للتفتيش عنه في المدائن فإنا نعرف منزله معرفة جيدة  
ومسيرنا الى هناك هين » ثم حكى وراء أذنها وعادت الى الحديث قائلة  
« واذا شئت أن يبحث سلمان في مكان آخرونحن نذهب للبحث عنه في المدائن  
فعلنا »

فلما سمعت ميمونة اقتراح جدتها أشرق وجهها ارتياحاً لهذا الرأي لانه عبر  
عن احساسها كأنها قالت عنها ما تستطيع هي التصريح به

أما سلمان فأنما وعد بالبحث عن بهزاد حياء من دنانير لانه راغب  
في الرجوع الى ابن الفضل قياماً بوعدده ليغتئم ذلك الانقلاب لعله ينفعه في  
غرضه الذي جاء الى هنا من اجله . وكان من الجهة الاخرى لا يرى موجباً  
للقلق على غياب مولاه لعله بكثرة شواغله . على انه استأنف الكلام قائلاً  
« ها إني ذاهب للبحث عن الطبيب والاتكال على الله » وخرج

## الفصل الخامس والعشرون

### ابن الفضل

تركهم سلمان في تلك الحال وخرج فغير هندامه وركب بغلته وسار الى قصر الفضل بن الربيع . والقصر يومئذ في الرصافة بالجانب الشرقي من بغداد يشرف على شارع الميدان وكان في الاصل اقطاعا من الرشيد لعباد بن الحصبب فصار كله للفضل بن الربيع (١) يقيم فيه مع أهله وهو على مسافة بعيدة من القصر المأموني وان كان كلاهما على الجانب الشرقي من بغداد . فقطع المحرم حتى دخل شارع الميدان وهو يبتدىء من سوق الثلاثاء وينتهي بالشامية ويعرف هناك بشارع الحضير . وكانت تحمل اليه المصنوعات الصينية ونحوها من الاواني الثمينة وتباع فيه

وصل سلمان الى باب القصر نحو الغروب وكان ابن الفضل في انتظاره وقد أوصى الحرس اذا جاء الملقان سعدون ( ووصف لهم شكله ) أن يدخلوه اليه فلما وصل الباب لم يمهله الحارس ريثما يترجل ويسأل فابتدره قائلا الملقان سعدون ؟

قال « نعم »

قال « إن مولانا في انتظارك .. اتبعني »

فترجل الملقان ومشى في طرق الحديقة وهو يضرب الارض بمكازه ويتباطأ في مشيته وقد أطرق وهو يتمم بشفتيه كأنه يتلو آية أو يقرأ تعويذة وأسرع حارس آخر فسبقهما وأنبأ ابن الفضل بقدومه . فقطعا البستان حتى وصلا إلى باب القصر الداخلي فاذا بابن الفضل قد خرج لملاقاة الملقان المنجم فرحب به وصاحه ومشى بجانبه حتى اتصلا من الدهليز الى قاعة استطرق منها إلى غرفة خصوصية لا يدخلها غير ابن الفضل وبعض خاصته وفيها سرير وبجانبه كرسيان وفي أرض الغرفة بساط ثمين وفي احدى زواياها منارة

عليها عدة شموع أناروها في تلك الساعة . جلس ابن الفضل على السرير ودعا الملقان لاجلوس على كرسي بجانبه

جلس سلمان وهو لا يزال يتمتم وقد الصق ذراعه بجانبه كأنه يتأبط شيئاً يحرص عليه . فلما استقر به الجلوس استخرج من تحت إبطه منديلاً من الحرير فيه كتاب هو عبارة عن درج من الرق قديم العهد قد تحرق من بعض جوانبه . وتمهل في حل الصرة وأخرج ذلك الدرج مبالغة في الحرص عليه ووضعها في حجره فبات من خلال تلك الخروق كتابة بحرف لا يقرأه إلا من ولا الجان . ثم تظاهر انه فرغ من القراءة او التعزيم ومسح وجهه من جبهته الى لحيته والتفت الى ابن الفضل واخذ يثني عليه لحسن وفادته فاجابه « لقد اتيت أهلاً ونزلاً سهلاً » وبش له وأظهر مفاخرته لكي يستأنس به استعداداً لما ينوي كشفه له من اسرار ويزعم انه يداجيه

فابتسم الملقان وقال « لقد بالقت باكرامى أيها الوزير . . . »

فتوم ان الملقان انما يدعو وزيراً اعتماداً على ما تبين له من علم الغيب في مستقبله لكنه تجاهل وأحب أن يتحقق ظنه فقال « انك تدعوني وزيراً والوزير والدى .. »

فقال « ان ابن الوزير وزير يا سيدي . . . مر بما تشاء فاني مطيع »

قال « قد دعوتني وزيراً وأنا ادعوك رئيس المنجمين في دار امير المؤمنين فادرك سلمان أنه يعده بهذا المنصب وهو قادر ان يضعه فيه لما يعلمه من نفوذ والده ورضى الامين عنهما فأحب ان يثبته في وعده فقال « بورك بابن الفضل فانه يقول ويفعل وأنا في كل حال سامع مطيع . . . »

فأطرق ابن الفضل واعمل فكرته ثم قال « قد دعوتك لأمر سري أنا شديد الحرص على كتابه وطيد الامل بالحصول عليه . اذا اسعفتني »

قال « أما ما يبشر اليه مولاي فهو سر عن كل الناس إلا عني والملقان سعدون لا يقال له ذلك »

فاستغرب ابن الفضل دعواه وأحب أن يمتحن صدقه فقال « وهل أنت

عالم بسري ؟

وكان سلمان قد سمع بعض خدم القصر المأموني يذكر حب ابن الفضل لميمونة وقد سمعه من عبادة وهي تقصه بالامس على دنائير وم يظنون أنهم يقولون سراً - وكان الخدم يومئذ من أكثر الناس اطلاعا على أسرار مواليم لأنهم كانوا لا يحذرون التكلم بحضرتهم استخفاً بهم - فقال «أظنني أعرف شرك الا اذا كنت تعني غير حبك لتلك الفتاة التي تظن نفسها مجبولة النسب»

فبغت ابن الفضل عند مفاجأته بهذا التصريح وبانت البغته في وجهه وهان عليه مكاشفته بما يكنه ضميره وقال «أما وقد علمت سرى فلا أخفى عنك أنى أحب تلك الفتاة حباً مبرحاً . . . أحبها من كل قلبي واتعشقتها بكل جوارحي . . .» قال ذلك وبانت دلائل الحب في وجهه فابرت عيناه واحمر وجهه

فضحك سلمان وقال وهو يهز رأسه «ان الحب سلطان . انت تحبها ؟» فقال «نعم إنى أحبها فهل هي تحبني ؟» قال «لا أدري ولعلها لو كانت معنا الآن لعرفت مكونات قلبها غير ان ذلك يحتاج الى مندل»

قال «هب انها لا تحبني . . بل يظهر لى أنها لا تحبني الآن فما الحيلة ؟ . .» اني إنما دعوتك لاستعين بك على ذلك فما قولك ؟»

فتناول سلمان الدرج من حجره وفتحته واخذ يقلبه بين يديه ويتظاهر أنه يقرأ شيئاً منه ويعيد القراءة ويطلق ثم يرفع بصره الى السقف ويعيده الى الكتاب ثم ينظر الى وجه ابن الفضل ويتفرس فيه واخيراً أطرق ويده على لحيته كأنه يفكر ويأسف ثم قال «ان حبيبتي انتقلت من مكانها» فاجفل ابن الفضل وقال «أين كانت واين صارت ؟»

قال «ألم تكن في المدائن ؟»

قال «بلى»

قال «ليست هي هنا الآن»

قال «وأين هي . . اين ذهبت ؟»

قال اعلم انها خرجت من المدائن ولا أدري أين أقامت . ان ذلك يحتاج الى بحث ،

قال « أعلنها في الطريق الآن ؟ » قال ذلك لاعتقاده انها لو كانت في مكان معين لما خفي ذلك عليه

قال « ربما كانت على الطريق . . وليس هذا بالامر الهام . . هب أنها في السماء أو في الارض أو ما بينهما فهي لا تنجو من يدي . . »

فأبرقت اسرة الفضل واطمأن خاطره وقال « جزاك الله خيراً . . . افعلم ما بدا لك ولا تبخل بالنفقة على إتمام هذا العمل فاني ابذل ما املكه في سبيل الحصول عليها إنما أريد ان آخذها بشرع الله . . لاني احبها حباً صادقاً ولا أدري ما الذي يحملها على مخالفتي »

فابتسم سلمان واظهر الاستخفاف وقال « اظنك تدري السبب . ان عداوة الآباء متصلة بالبنين . . »

فازداد ابن الفضل استغراباً لكشف هذا السر وقال « صدقت . . ذلك هو السبب ولكن لو علمت هي مقدار حبي لها وأني سأنسيها ما أتاه والذي نحو والدها اظنها ترضى »

قال « قد علمت ذلك ولم ترض ولكن هذا لا يهمنا انها سترضى . . ان هذا القلم ( وأشار الى دواة مغروسة في منطقتة ) يجعل الصخر ماء والماء صخرأ ألا يقدر أن يلين قلب تلك الفتاة ؟ »

قال « افعل ما تراه ولا تسلم عن النفقة »

فالتفت اليه شزرأ وقال « ألم تكن حاضراً بالامس عند صاحب الشرطة ؟ . انكم لاتزالون تهينون الاصدقاء . . ولكنكم تعودتم عشرة المتملقين والمترلفين فلا لوم عليكم . . »

فابتدره ابن الفضل بالاعتذار وقال « عفوا يا سيدي فاني أقبل منك هذا الجميل وأرجو ان تقبل توسطي مع صاحب الشرطة في أن تكون رئيس المنجمين عند أمير المؤمنين . على أننا اذا فعلنا ذلك إنما نؤدي خدمة

عظمى للخليفة لأن وجود مثلك في بلاطه نعمة من نعم الله . . فما الذي تفعله الآن ؟ »

قال « دعني أبحث عن مقرها وسأكتب لك كتابا اذا استطعت إيصاله اليها على ما سأصف لك أنتك هي مدعنة تستهلك في مرضاتك »

فلم يتمالك ابن الفضل عند ذلك عن النهوض بغتة وقال « هل ما تعنيه صحيحا ... ؟ اني لا أعرف كيف أشكرك . ومتى تكتب الكتاب ؟ »

قال « أكتبه متى فرغت من بحثي . . لا تضجر . . ولا تستعجل »

قال « افعل ما يترامى لك الا أمرا واحدا أرجو تطيعني فيه »

قال « وما هو ؟ »

قال « أن تبني عندي الليلة وتصحبني غدا الى دار الخلافة فاقدمك لأمر

المؤمنين ليجعلك رئيس المنجمين »

قال « الامر لك ولكنني لا أبيت عندك وإنما آتيك غدا اذا شئت »

قال « بل تبني عندي فان القصر واسع اختر الخدع الذي يناسبك

لا يزعجك فيه أحد وقد أرسلت الى صاحب الشرطة أن يوافقنا غد

الى قصر الخلافة في مدينة المنصور . لأن دار الخلافة انتقلت بعد مبايعة

الامين من قصر الحلد الذي نعرفه خارج باب خراسان الى داخل المدينة (١) »

قال ذلك وصدق فدخل غلامه فقال له « أعدد لنا المائدة للعشاء وقل لقيم

الدار أن يعد خدعا لبيت فيه اللفان الليلة » قال ذلك وهو مصمم على اجرائه

فلما رأى تصميمه خاف أن يخالفه فيفسد عليه تديره فأطاع وبعد هنيهة نهض

للعشاء وبات تلك الليلة هناك

## الفصل السادس والعشرون

### مدينة المنصور

وفي صباح اليوم التالي ركب ابن الفضل في موكبهِ وعليه الجبة السوداء التي يقابل بها الخلفاء العباسيون وامتطى سلمان بغلته وهو في قيافته المعهودة وخرجوا من الرصافة غرباً نحو الجسر حتى اذا قطعوه جاءوا الطريق المؤدى الى قصر الخلد فتجاوزوه لان الامين انتقل منه بعد البيعة الى قصر المنصور المعروف بباب الذهب كما تقدم

وكانت مدينة المنصور مستديرة الشكل حولها سور ضخم طوله ٢٠.٠٠٠ ذراعاً وعرض أساسه ٩٠ ذراعاً ثم ينحط حتى يصير في أعلاه ٢٥ ذراعاً وارتفاعه ٦٠ ذراعاً وهو السور الاعظم يحيط به من الخارج فراغ عرضه مثل عرضه وحول الفراغ المذكور سور آخر يقال له الفصيل له ابراج عظام وعليه الشرفات المدورة . وخارج الفصيل وحوله كما يدور مسناة بالآجر والصاروج متقنة محكمة . وخارج المسناة وحولها خندق أجرى فيه الماء ووراء الخندق الشوارع للمارة والباعة ووراءها الارباح

وداخل السور الاعظم سور آخر أصغر منه وبين السورين فراغ فيه أبنية لاهل الاسواق ينتهي الى كل من السورين بشارع مرصف بالحجارة . فسور المدينة عبارة عن ثلاثة أسوار أعظمها أوسطها

وللسور أربعة أبواب سميت باسم المدن التي تتجه نحوها وهي باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة . وكل منها مؤلف من عدة أبواب عليها الابراج ولها الشرفات والكوى . ولكل باب أربعة دهاليز عظام طول كل دهليز ٨٠ ذراعاً كلها معقود بالآجر والجص . فاذا دخل الرجل في الدهليز الذي على الفصيل أو السور الخارجي وافي رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليز السور الاعظم وعليه بابان حديديان عظيمان لايفلق الواحد منهما الا جماعة من الرجال وهما عظيم الارتفاع يدخل الفارس في كل منها بالعلم والرامح بالرمح

الطويل من غير أن يعيل العلم أو يثنى الرمح فاذا مر الراكب من دهليز السور الاعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كوى رومية مصنوعة على كيفية خاصة بحيث تدخل منها أشعة الشمس أو الضوء ولا يدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان

وفوق كل باب من أبواب السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة حولها مجالس ومرتفات يجلس فيها المرء فيشرف على كل ما يعمل به ويصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام قد عملت آزاجاً بعضها أعلى من بعض (١) بشكل عجيب رهيب

فأطل ابن الفضل بموكبه على باب خراسان وبجانبه الملقان سعدون على بغلته فلما رآها الحرس وسعوا لهما إجلالا لابن الوزير فتقدما وهما راكبان والخدم في ركابهما فدخلوا من الدهليز على الفصيل أو السور الخارجي . ثم سمعوا قرعة حوافر دوابهم على الرحبة المقروشة بالصخر الى دهليز السور الاعظم . وكان البوابون لما علموا بقدم ابن الفضل تعاونوا على فتح أحد البابين العظيمين فسمع لفتح صرير هائل لثقل حديدته وعلوه فدخل الفرسان فيه وهم ركوب على أفراسهم وما زالت العتبة العليا معلوم كثيراً . وكان سعدون في أثناء ذلك ينظر الى ما وراء تلك الرحبة من الطاقات المعقودة والى شكل كواها الرومية وقد توكل فيها الغلمان يطلون منها على ذلك الموكب

فلما خرجوا من الباب المذكور الى الرحبة بينه وبين الطاقات حول سعدون بصره نحو القبة العظمى المعقودة فوق الباب وما يغشاها من الزينة المذهبة ويتعلق بها من المجالس والمرتفات المشرفة على كل ما حولها وما عليها من المصاعد المبنية بالجص بعضها فوق بعض وقد قر في نفسه شكلها وعظمتها

(١) كتاب البلدان للياقوتى ١٠

## الفصل السابع والعشرون

### قصر باب الذهب

فلما تجاوزوا تلك الطاقات وصلوا الى باب آخر غير أبواب السور استطرقوا منه الى الرحبة الكبرى في منتصف المدينة وفي وسط الرحبة قصر المنصور وهو الذي يسمونه قصر باب الذهب نسبة الى بابه المذهب وبجانب القصر المسجد الجامع المعروف بجامع المنصور . ومشوا في الرحبة مسافة كبيرة في خلاء لا بناء فيه حتى افبلوا على القصر والجامع في وسط الرحبة وحولها فناء خال من الابنية الا داراً من ناحية الشارع المؤدى الى باب الشام يقيم فيها الحرس الخاص وسقيفتين ممتدتين على عمد مبنية بالآجر والجص يجلس في احدهما صاحب الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس وحول الرحبة كما تدور منازل كانت لابناء المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته وعبيده . وابنية لبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وسائر الدواوين وبين الطاقات الى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواد المنصور ومواليه (١)

وكان الفضل كما أقبل على باب وقف له حراسه فلما دخل الرحبة الكبرى استلقت انتباهه الصهيل والحممة والنهيق وغيره من أصوات الدواب لأن الرحبة كانت غاصة بالافراس والبغال والحمير فضلاً عما أدخل منها الاصطبلات ومعها العبيد والخدم في انتظار من جاء عليها من الامراء والقواد لتفتش الامين بالخلافة أو من جاء لغرض آخر . وكان سعدون ( أو سلمان ) ينظر الى ذلك ويراقبه ولا يبتعد ببعثته عن ابن الفضل حتى اذا دنوا من القصر تحول ابن الفضل نحو السقيفة التي يقيم بها صاحب الشرطة لمقابلة ابن ماهان قبل الدخول على الخليفة فأرسل بعض من في ركابه من الخدم ليتقدمه بالسؤال

عنه في السقيفة فعاد وهو يقول انه في حضرة أمير المؤمنين بعث اليه من  
بضع دقائق

فلم يتعجب ابن الفضل لذلك ولكنه كان يرجو أن يراه قبل دخوله على  
الامين ليتفق معه على تقديم الملفان سعدون اليه . ولكنه لم يردأ من النزول  
عن الفرس ونزل سعدون عن بغلته ومشيا الى باب القصر فوقف لهما الحرس  
وم ينظرون الى ذلك الملفان ويستغربون شكله وقيافته ومشيته بعكازه  
والدواة في منطقته وهو يمشي بجانب ابن الفضل وقليلاً الى ورائه فمشيا في  
باحة تنتهي بباب القصر الداخلي وفي الباحة جماعات من القادمين على الخليفة  
وفيهم الامراء والقواد والشعراء وغيرهم من الوفود في مثل ذلك الحيز .  
وكان الامين كريماً جواداً ولا سيما على الجند رغبة في استصدارهم لما يعلمه من  
صعوبة مركزه ولذلك رأيت أنه أعطاهم رزق ٢٤ شهراً يوم مبايعته ففرحوا  
وفرح معهم أهل بغداد كافة لان هذه الاموال تنفق في المدينة فيدفع الجند  
منها ما عليه ويبتاع ما يحتاج اليه من الآنية أو الطعام أو اللباس فلا غرو واذا  
سر البغداديون بتبديل الخلفاء بعد أن جرت العادة أن يأمروا بمثل هذا  
العطاء عند مبايعتهم

وعرف ابن الفضل كثيرين من الوقوف هناك وخاطبه بعضهم وتزلف  
اليه آخرون لانه ابن الوزير والوزير يومئذ صاحب الحل والعقد فسأل  
بعضهم عن سبب وقوفهم هناك فقالوا « ان الخليفة في شاغل مع صاحب  
الشرطة بعد أن جاءه هذا الرسول » وأشار الى رجل واقف في بعض  
جوانب الباحة . فعرف ابن الفضل أنه من موالى أبيه وكان الرجل قد  
رأى ابن الفضل ماراً فلم يجسر على مبادأته بالحديث فلما رآه ينظر اليه  
ويبتسم هزول نحوه وقبل يده فقال له « ما وراءك ..؟ وما الذي جاء بك ؟ »

قال « أرسلني مولاي الوزير برسالة الى أمير المؤمنين »

قال « أين والدي الآن ؟ »

قال « هو قريب من بغداد وقد أرسلني لابشر بقدمه »

قال « وهل جئت بكتاب منه »

قال « جئت بكتاب دفعته الى امير المؤمنين ولعله هو السبب في تأخير الاذن للناس في الدخول اليه كما ترى وانما دخل عليه صاحب الشرطة ... »  
 فاشتد ميل ابن الفضل للدخول على الامين وإن لم يؤذن لسواه فيفاخر أهل البلاط بدالته على صاحب الخلافة فظل ماشياً وابن سعدون بجانبه حتى أقبل على باب القصر والحرس الشاكرية وقوف بالاسلحة فتأدبوا عند مشاهدته ثم خرج الحاجب لملاقاته وتلطف بالترحيب به وفي غنة صوته وملامح وجهه شبه اعتذار عن عدم ادخاله فادرك ابن الفضل غرضه فابتدره قائلاً « استأذن أمير المؤمنين بدخولي ودخول رفيقي هذا » وأشار الى سعدون

فتردد الحاجب حيناً ولم يجسر على التصريح بأن أمير المؤمنين لا يؤذن لأحد ثم غلبت عليه الطاعة فدخل على الامين وظل ابن الفضل في انتظاره والناس ينظرون اليه ويتوقعون أن يرد طلبه فيفشل ما أراده من التقدم عليهم جميعاً أما هو فكان لا يتوقع غير الاذن لما يعلمه من نفوذ أبيه . وبعد هنيهة عاد الحاجب وهو يتسم وقال « تفضل ادخل اذا شئت »

فدخل الى مكان تخلع فيه الاحذية تخلع حذاءه وفعل سعدون مثل فعله وتقدم بعض الخدم تناولوا الحذاءين ووضعوها في أما كن معدة لذلك . ومشياً على الابسطة المفروشة في الدهليز وتطرقا من قاعة الى قاعة والحاجب يمشي بين يديهما حتى وصلا الى مجلس الامين وعلى بابه ستر من الديقاج المطرز فتقدم الحاجب وأزاح الستر وصاح « ان مولاي ابن الفضل ورفيقه بالباب »  
 فقال الامين « يدخل »

## الفصل الثامن والعشرون

### مجلس الامين

وكان الامين جالساً في صدر القاعة على سرير من الأبنوس المنزل بالعاج بلا ترصيع ولا تذهيب لانه السرير الذي كان يجلس عليه المنصور قبل اغراق العباسيين في الحضارة والترف واستخدام الذهب والجوهر في آنيهم ومجالسهم

وفي أرض القاعة طنafs ثمينة قليلة الزينة عليها الوسائد والكراسي . وكان على الامين لباس نحو لباسه يوم المبايعه لأنه ما زال يستقبل المهنيين والمبايعين . فدخل ابن الفضل ورفيقه فرأيا بين يدي الامين ماهان صاحب الشرطة وقد عمد على وسادة تعود أهل الدالة بلا كبير تهيب لأن الامين لم يكن في مثل هيئة أيه ولا سبعا مع من تعود مجالسهم من خاصته في مجالس الشرب أو الطرب . وعلى الخصوص ابن ماهان ونحوه من ذوي شورا ممن يحتاج الى رأيهم أو مساعدتهم . وكان الامين شديد الثقة بابن ماهان وبالفضل بن الربيع يستشيرهما في مهامه . وجاءه كتاب الفضل في ذلك الصباح يذنيه بقدمه ومعه الاحمال ومن بقي من رجال الرشيد وانه لا يلبث أن يصل بغداد ويقص عليه تفصيل ما فعله . فاهتم الامين بذلك الكتاب وبعث الى ابن ماهان ليطلع عليه وأمر أن لا يدخلوا أحداً من الزوار . فجاء ابن ماهان فدفع اليه الامين كتاب الفضل ولم يكده يتم قراءته حتى جاء الحاجب يستأذن لابن الفضل ورفيقه فسأل الامين عن ذلك الرفيق فقال الحاجب « هو رجل من علماء حران كأنه حاخام أو ملفان » فقال « وما شأنه ؟ »

فعلم ابن ماهان انه الملفان سعدون فتبسم وقال « أظنه الملفان سعدون الحراني . . ان لهذا الرجل شأنًا عظيمًا وله قوة غريبة على استطلاع الغيب . » فالتفت الامين الى ابن ماهان وقال « هل تعرفه ؟ »

قال « اذا كان هو الملفان سعدون فقد عرفته لأنني اجتمعت به في جلسة ورأيت منه المعجزات »

فهز الامين رأسه وقال « إني قليل الثقة بهؤلاء الدجالين »

قال « ليس الرجل دجالا يامولاي بل هو منجم »

قال « المنجمون كثيرون عندنا ولما يصدقون »

قال « سترى ما لم تعهده في سواه فاذا أذنت بدخوله أتباك نيا غريبا وعند

الامتحان يكرم المرء أو يهان

فأشار الامين الى الحاجب أن يدخلها فخرج وأدخلها

فلما أقبل ابن الفضل على الامين حياه بتحية الخلافة ووقف حتى أشار

اليه بالجلوس والتفت الى الملعان فابتدره هذا بالسلام أيضاً فقال له « اجلس  
ياملعان »

فجلس على البساط جاثياً وتأدب في مجلسه وهو مطرق ساكت فقال له  
الامين « أخبرنا صاحب شرطتنا انك من المنجمين . . . »

فأجاب سلمان « اني من عبيد أمير المؤمنين . . . »

قال « وهل أنت صادق في تنجيمك ؟ »

قال « عليّ أن أصدق في بلاغ أمير المؤمنين ما أراه وأقرأه حسب قواعد  
هذا العلم وله الرأي في تصديقه أو تكذيبه . . . »

فحول الامين نظره الى صاحب الشرطة كأنه يستشيريه في ما يمتحنه به  
فقال « هذا كتاب الوزير يقول فيه انه سيقص على أمير المؤمنين ما فعله في  
طوس فيمتحن الملعان بذلك »

فاستحسن الامين هذا الامتحان فالتفت الى سعدون وقال « جاءنا  
كتاب وزيرنا الساعة انه قادم اليينا فهل لك ان تجربنا بما سيتلوه علينا ؟ »

فأخى الملعان رأسه احتراماً ثم مديده الى جيبه وأخرج ذلك الدرج وحل  
المديل وأخذ يقلبه بين يديه ويتمتم ويظهر انه يقرأ ويتفهم ويتفطن . ثم  
رفع بصره الى الامين وقال « ان الوزير حفظه الله يحمل اليك خبراً هاماً يتعلق  
بالخلافة »

فضحك الامين ضحك الاستخفاف وقال « طبعاً انه يعلم بمبايعتي وليس في  
ذلك شيء من الغيب ا »

قال الملعان « نعم ياسيدي صدق أمير المؤمنين ولكن الوزير سينقل اليك  
شيئاً جديداً يتعلق باخيك المأمون . . . هل يسيتك انه أخرجه من البيعة ؟  
فبغت الامين لهذا السؤال وقال « وهل أخرجه منها ؟ »

فهز الملعان كتفيه وقال « يظهر لي مما أقرأه في هذه الاوراق انه فعل  
ذلك ولم يجد في ذلك مشقة فاذا كان فيه ما يسوء أمير المؤمنين فلا ذنب لي . »

فتظاهر الامين باستيائه لاخراج أخيه من البيعة وقال « وهل فعلها الفضل . ؟  
أظنه لم يفعل فاحذر مما تقوله واعلم انك تقول قولاً تقطع عليه الرقاب »

فقال بجأش رابط « قلت لمولاي اني لا أقول شيئاً من عند نفسي وإنما أنا أقرأه في ما بين يدي . . . واذا اقلعت الكتاب نسيت ما قلته . »  
 فقال الامين وهو يظهر الغضب « انها وشاية تعاقب عليها . . . »  
 قال وهو ساكن الجأش « العفو يا مولاي لا ذنب لي في ما قلته فاني أقول ما أراه ولا أعهد هذا العلم بخدعني من قبل . . . »  
 فبالغ الامين في اظهار التهديد وقال « يكفي . . . » والتفت الى ابن العضل وقال « هل جاءك من أبيك شيء من هذا الميل ؟ »  
 قال « كلا يا مولاي انه لم يكتب اليّ بشيء ، ولم يجسر ان يخبره بما قصه عليهم الملقان بالامس

والتفت الامير الى ابن ماهان وقال « قلت لكم ان هؤلاء المنجمين يتقربون الينا بكذبهم »

فابتسم ابن ماهان ابتسام المستعطف وقال بصوت منخفض كأنه يسار الامين « ولكنني أعرف صدق الملقان سعدون بالاختبار . واذا شاء مولاي أن يختبر صدقه فعل . . . ان الوزير لا يلبث أن يصل بغداد الليلة أو في صباح الغد فاذا جاء سأله مولاي عما فعله والرأي بعد ذلك لامير المؤمنين . . . »  
 وكان الملقان في أثناء ذلك يتشاغل بتقليب الدرج بين يديه يتمتم كأنه لا يسمع ما يقولون حتى سمع الامين ينادي « يا غلام »

فوصل الحاجب وتأدب فقال « قل لصاحب الانزال ان يأخذ هذا الملقان الى دار الاضياف . يقيم هناك في كرامة ورعاية حتى أطلبه ، والتفت الى الملقان وقال « تفضل ان شئت وكن مطمئناً حتى ندعوك »

فهنض سلمان واستعاذ بالله من الانتظار مخافة ان يبطنى ، على أهل القصر المأمونى وهم في قلق على تأخر الطبيب بهزاد ولكنه لم ير بداً من الطاعة فاخذوه مكرماً الى منزل بجانب مطبخ العامة وأمروا له بما يحتاج اليه من الطعام والشراب

## الفصل التاسع والعشرون

### الامتحان

فمكث هناك كأنه على الجمر وكان يندم على مجيئه . قضى في ذلك طول  
النهار وفي ضحى اليوم التالي جاءه رسول الخليفة يستقدمه الى المجلس الخاص  
فسار بعد أن أصلح هندامه وأتقن تنكره وهو يتظاهر بالسداجة وصفاء النية  
وخلوص السريرة حتى دخل على الخليفة كالامس وعنده ابن ماهان وابن الفضل  
فامرهم الامين بالجلوس وقال له « ان وزيرنا الفضل آت بعد هنيهة وسنساله  
عن أمره بحضورك وسنرى ما يكون »

فأخفى رأسه مطيعاً ووقف فامر له الامين بالجلوس لمجلس

ثم جاء الحاجب وهو يقول « ان الوزير الفضل بالباب يامولاي . . . »

فأبرقت أسرة الامين وصاح « يدخل وزيرنا الفضل . . . »

وما عثم ان عاد الحاجب ووسع الستر فدخل الفضل وآثار السفر بادبة  
في وجهه غيا بتحية الخلافة وقال « يعذرنى أمير المؤمنين ان أدخل عليه قبل  
اصلاح شأني »

وكان الفضل يومئذ في أواسط الكهولة وقد وخط لحيته الشيب وتغضن  
جبينه وظهر تغضنه مع ان أكثره غباً تحت القلنسوة . وقد تردى بالقباء  
الاسود على عادة الداخلين على الخلفاء العباسيين

فبش له الامين وأجلسه على كرسي بجانبه . فأخذ الفضل يعزبه بالرشيد  
ويدعو له بطول البقاء ثم هنأ بالخلافة وسكت وهو يردد نظره بين الجلوس  
كأنه يلتمس الخلو ليقص عليه ماجاء به من الخبر الهام

فابتدره الامين قائلاً « اذا كنت قد جئتنا بخبر اقصصه علينا »

قال « أقصه الآن . . . »

قال « نعم قل ما عندك ان هذا النجم يزعم انه عرف ما فعلته وأحب  
أن أمتحن معرفته فاذا كان مصيباً أنعمنا عليه والا كان عقابه شديداً »

فقال ابن ماهان « هل يأذن أمير المؤمنين بكلمة »

قال « قل »

قال « اذا كذب هذا الملعان كان جزاؤه القتل أما اذا صدق فهل يأمر مولاي أن يجعله كبير المنجمين في قصره لعله ينفعنا بعلمه »

قال « حسناً .. انى فاعل » والتفت الى الفضل وقال « قل ما الذي فعلته بأخينا عبد الله المأمون والخلافة ؟ »

فاستغرب الفضل سؤاله على هذه الصورة وقال « فعلت ما أعتقده عائداً على مصلحة الدولة بالخير .. لا يخفى على أمير المؤمنين ان مولانا الرشيد كان عند سفره قد بايع للمأمون بالخلافة باغراء بعض ذوي الاغراض وأوصى له بجميع ما في عسكره مع ان البيعة سبقت لآخيه الامين صاحب هذا العرش . فلما قبض الرشيد رأيت بقاء بيعة المأمون سيأول الى انقسام الخلافة واستفحال الفتنة واستثرت أصحابي وقر رأينا على الرجوع الى الصواب فأبطلنا بيعة المأمون وجعلنا الخلافة مستقلة لمولانا أمير المؤمنين »

قال « والمأمون ماذا فعلتم به ؟ »

قال لم نفعل به شيئاً فانه باق على خراسان كما كانت الوصية له من قبل علي أن يكون ولياً للعهد »

فما أتم كلامه حتى بانث الدهشة في وجه الامين ونظر الى الملعان سعدون فرآه مطرقاً هادئاً لا يخامرهم خوف ولا اضطراب فلم يتالك الامين أن صاح به « ويلك من أين أتاك علم الغيب ؟ »

فرفع بصره الى الامين وقال « لا فضل لي يا مولاي ان هذا العلم معروف عند المنجمين ولكن الذين يصدقون في استخدامه قليلون »

فقال « انما أعجبتى صدقك من غير ادعاء وقد جعلناك رئيس المنجمين » فوقف سلمان وانحنى بين يدي الامين ودعا بطول البقاء ثم قال « ان هذه نعمة لا استحقها .. »

قال « بل انت أهل لذلك وهذا جزاء الصادقين » وصدق فجاء الحاجب فقال له « قل لقيم الدار أن يعدد للملعان منزلاً يقيم فيه وان يفرض له العطاء

انه قد صار رئيس المنجمين . . ، وأشار الى الملقان أن يجلس  
فأعنى ثانية وكرر الدعاء وجلس وهو يقول « ان منازل أمير المؤمنين  
واسعة وحيثما اقيمت فانما أكون في حياضته غارقاً في نعمائه واذا سمح لي أن  
أقيم حيث شئت كان ذلك أدعى لمرضاته لأني لا استغنى عن الانفراد في منزلي  
أحياناً لعمل المنديل أو مطالعة كتب التنجيم على أن أكون بين يدي أمير  
المؤمنين متى شاء . . ولو جاز ان ترد هبته لتقدمت اليه ان يجعلني خادماً رفقاً  
بلا أجر ولا أجرة فان من يتعاطى هذه الصناعة على حقها وجب عليه انكار  
نفسه والبعد عن ملاذ الدنيا وعن التوسع في أسباب العيش ولكن نعم أمير  
المؤمنين لا ترد ،

فاستغرب الامين هذا التعفف ولم يخطر له سماعه من مثل هذا  
الرجل وهو يعلم أن أمثاله انما يتقربون الى دار الخليفة طمعاً بالمال فالتفت  
الى ابن ماهان والاستغراب باد في وجهه كأنه يستطلع رأيه فقال ابن ماهان  
« ان الملقان سعدون هذا طبعه والامر لامير المؤمنين ،

فقال « ولكننا قد نحتاج اليه في ساعة لا نجده فيها ،

فقال الملقان « اني أقيم في دار أمير المؤمنين على أن يؤذن لي بالخروج الى  
منزلي متى رأيت في الخروج فائدة فلا يعترضني أحد ولا أظن الحاجة تمس الى  
حضورى الا وأأكون حاضراً ،

فقال الامين « أنت حر في ذلك ،

وكان الفضل في أثناء الحديث ينظر الى الملقان سعدون ويتفرس فيه وقد  
دهش لما سمعه منه وكأنه ارتاب في أمره

أما الامين فكان شديد الرغبة في سماع تفصيل الخبر من الفضل فألقى  
قضيبة الخلافة على السرير الى جانبه وتزحزح من مكانه فادرك الحضور انه يريد  
انصرافهم فوقفوا وأشار الى الفضل أن يبقى وخرج الباكون . أما سلمان فذهب  
الى بغلته ليركبها ويسير الى القصر المأموني

## الفصل الثلاثون

### الى المدائن

أما القصر المأموني فقد تركنا أهله بمد ذهاب سلمان قبل الامس على موعد منه أن يبحث عن بهزاد ويعود اليهم بالخبر فانقضى النهار ولم يعد فباتوا على أحر من الجمر وأصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون قدوم بهزاد أو قدوم سلمان بخبر عنه فمضى معظم النهار ولم يعد حتى أخذ القلق منهم مأخذاً عظيماً . ومما زاد قلقهم أن زينب بنت المأمون أصابها في ذلك الصباح حمى شديدة على أثر ما انتابها من الحزن مع عدم انتظام طعامها وشرابها فتلبكت معدتها وأحست بالسخونة . ولا تسلم عن حال دنائير عند ذلك فاصبحت شديدة الخوف وتقدمت الى زينب أن تدعو لها أحد أطباء القصر وهم كثيرون وفيهم المهرة من كل طبقة فلم ترض الابهزاد وأرسلوا العلمان يستشرفونه من الطرق أو على الشاطئ وقد كان القلق يذهب براحتهم ولا سيما ميمونة فان قلقها كان أثقل على الطبع من قلقهم جميعاً لأنها تحاذر أن تظهره وتخشى اذا صرحت بكل ما يخطر لها أن ينتقد عليها

على انها لما رأت زينب مصابة بالحمى هان عليها اظهار قلقها بحجة خوفها على صحة بنت المأمون وأخذت تظل ساعة من الشرفات على الطرق وأخرى من الابواب إلى دجلة لعلها تراه قادما على فرس أو في قارب ولما أعيها البحث جلست في غرفة منامها وقد كل دماغها من الاهتمام وبان التعب في عيائها فعلاه شحوب وتقطب فاستلقت على الفراش وهي تحسب لتأخر بهزاد الف حساب وتراجع مدار بينها وبينه في ساءه الفراق فلا تزداد الارغبة في لقاءه لتحقق ما في نفسه . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاظلمت الدنيا في عينيها قبل غيابها ولم تعد تصبر على البقاء هناك فخرجت وهي تتوقع أن تلاقى من يخبرها بقدومه أو تسمع صوته في الدهليز - وإنما توقعت ذلك لان رغبة الانسان في

الامر تصور له سهولة الحصول عليه وان يكن مستحيلا بنفسه فكيف وعجىء بهزاد يعد من أقرب الامور لانهم على موعد منه

ومشت في الدهليز الى الباب المطل على دجلة وجعلت تنفرس في ما يمر أمامها من السفن الصاعدة والنازلة وتتمنى أن يكون بهزاد في واحدة منها . وتوهمت غير مرة أنه هناك فلما تكررت خيبتها أصبحت تعتقد أنه لن يأتي . ثم جلست إلى مقعد بجانب نافذة تطل على دجلة وأخذت تتكهن في قدومه وتتلاهى بالتفاؤل والتطير على ما يقتضيه الاضطراب في حين لا يرى صاحبه مصرفاً أو شاغلاً . فصارت اذا رأت طيراً يسبح في الفضاء قالت في نفسها اذا حط هذا الطائر على هذه الشجرة كان بهزاد قادماً الليلة أو اذا تحول الطير يميناً أو شمالاً كان ذلك فألا على قدومه أو شؤماً على عدم قدومه . فاذا خالف الطائر ماتمناه توهمت أنها تمت عكس ذلك فتنتقل الى التفاؤل بدبابة تحوم حول وجهها فتضمر ان هذه الدبابة اذا حطت على وجهها دلت على قدومه فربما حطت على يدها فجوزت أن يكون ذلك مصداقاً لضميرها

قضت في ذلك حيناً فلما أظلمت الدنيا انتهت لنفسها كأنها تسمع خفق نعال على المسناة قرب الباب فحقق قلبها وأطلت فلم تجد أحداً فهضت وأسرعت الى غرفة زينب فرأت جدتها بجانب سرير الفتاة ودنانير جالسة على السرير قربها وقد توردت وجنتا زينب من شدة الحمى وكلهم سكوت . فلما أطلت ميمونة ابتدرتها دنانير قائلة بصوت عنتق « أرايت ما فعله الطبيب ؟ »

فقالت ميمونة « انه أبطأ علينا ولا بد من شاغل شغله عنا »

فقالت عبادة « وأغرب من ذلك غياب سلمان بعد ان وعدنا بالبحث عنه . . . لا إخال بهزاد الا في الدائن الآن وكنت اود أنني ذهبت للتفتيش عنه هناك من هذا الصباح . . . »

فقالت دنانير « اذا لم يأت غداً أرسلنا في طلبه الى الدائن »

فقالت ميمونة « غداً أذهب اليها مع جدتي وأرجو أن نجده في منزله . »

قالت دنانير « ستحملان المشقة في هذا الامر و . . . »

فقطعت عبادة كلامها قائلة « لا مشقة علينا في ذلك ولا نطن أحداً يعرف

مكانه مثلنا لأننا نعرف البلدة ونعرف بيته فيها فإذا لم يأت الليلة ولا صباح الغد  
ولا أنانا سنان بخبره ذهبت أنا وميمونة للبحث عنه هناك ،  
قالت دنانير « بارك الله فيكما وسنتظر الى الغد والاتكال على الله فإذا لم  
يكن بد من ذهابكما سرتما في بعض سفن القصر ومعكما النوتية والخدم . ولولا  
اصرار مولانا على الاستشفاء بدواء هذا الطبيب لكان لنا غنى عن هذه المشقة  
يبعض أطباء هذا القصر ،

## الفصل الحادى والثلاثون

### في دجلة

فسرت ميمونة لهذا العزم وعادت الى التشاغل حتى آت الرقاد فناموا  
وأصبحوا في اليوم التالى وزينب أحسن حالا وقد خفضت الحمى . وأماميمونة  
فألحت على جدتها أن تصر على الذهاب الى المدائن قياما بخدمة أهل هذا القصر  
في مقابل ما لقوه من اكرامهم ورعايتهم فأطاعتها جدتها وألحت على دنانير ان  
تأمر باعداد حراقة تسييران بها الى المدائن فأمرت قيم القصر أن يأمر باعدادها  
فأعدت نحو الظهيرة وفيها النوتية وبضعة من علمان القصر . فركبتا فيها  
واشارت عبادة الى الربان ان يسير جنوباً فأدار الدفة ونشر الشراع وساروا  
وجلست ميمونة على مقعد تشرف منه على الشاطئ . الايسر لعلها ترى بهزاد  
ماراً على جواده في البر ووجهت عبادة التفاتها الى النهر لعلها تراه في سفينة  
مخرت الحارقة بهم ساعة وهي تسيير بعجى النهر أكثر مما بالشراع وكان سيرها  
سريعاً ولكن ميمونة كانت تستبسطها وتكاد تحسبها واقفة لفرط رغبتها في  
سرعة الوصول وكانت عبادة جالسة بالقرب منها صامتة وكل من في القارب  
سكوت لا يسمعون غير فقس الماء امامهم من اختراق مقدم السفينة لعباب الماء  
وم في ذلك سمعوا ضوضاء وجلبة وراهم فالتفتت ميمونة فرأت حراقة  
تسير في أثر حراقتهم مسرعة فتفرست فيها فرأتها جميلة الصنعة عليها نقوش  
مذهبة ومقدمها على شكل الفيل بخرطومه وتنابيه فاستغربت منظرها واستلفتت

جدتها الى ذلك فصاحت العجوز « هذه حراقة الخليفة انها من سفن الامين -  
وللامين خمس حراقات على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس  
انفق فيها مالا كثيراً » (١)

خفق قلب ميمونة وتضاعد الدم الى وجهها فتوردت وجتاهائم ذهب  
الاحمرار فجأة وامتعق لونها وصاحت « ويلاه . . . انى ارى أصحاب هذه  
الحراقة سائرين في أثرنا . . . ماذا يريدون منا ؟ »

فأشارت اليها جدتها تستتر بالسارية وأسرعت الى ربان حراقتهم فأشارت  
اليه أن يحل الشراع ويسير على مهل ويتحول نحو الشاطئ ويفتح الطريق  
لتلك الحراقة

فأدار الدفة والنفث عبادة بنقايها وانزوت بجانب ميمونة . وكانت  
حراقة الامين قد دنت منهم فعرفنا من خلال تلك الضوضاء انها تحمل جنداً  
وعيارين وسمعت رجلاً منهم يقهقه قهقهة السكرى ويقول « هذه غنيمة  
باردة . . . »

فاجابه آخر « مالكم ولاغنائم ألم يكفكم ما نلتموه من بيت المال . . . رزق  
٢٤ شهراً قبض راجلكم ٤٨٠ درهما دفعة واحدة فضلا عن حصتكم من  
الغنائم . . . (٢) انكم لا تشبعون . . . أما نحن العيارين فلا رزق لنا من غير الغنائم  
اذ لا رواتب لنا من رزق خاص . . . »

فضحك ذلك وقال « انكم معشر العيارين أكثر منا رزقا لانكم ربما ذهبتم  
في مهمة خصوصية لمثل هذه المهمة تنالون منها دفعة واحدة مالا يتيسر لنا في  
أشهر . فاذا وقفتم الى القبض على ذلك الخراساني أصبتم رزقا كثيراً . . . »  
فنفر الآخر منه وقال « لا أظن أمير المؤمنين يعطيا شيئاً كثيراً اذا قبضنا  
عليه فقد طالما قبضنا على أمثاله ولم نزل الا دراهم معدودة »

فضحك الجندي مقهقها وقال « العطاء يختلف مقداره باختلاف الاحوال  
أتريد أن يعطوكم على لص تقبضون عليه كما يعطونكم على مثل هذا الرجل ؟ »

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) تاريخ التمدن الاسلامى

فقال « وما الذي يميزه عن سواه . . . دعنا من هذه الآمال الفارعة »  
قال وهو يحسب أنه يهمس في أذنه وصوته مازال مرتفعاً بحيث تسمعه  
ميمونة « ان هذا الخراساني له شأن عظيم عند أمير المؤمنين لم تكن تعلمه  
قبل مجيء الوزير في الصباح . . . »

وكانت ميمونة منزوية وراء السارية تسمع ما يدور بينهم فلما سمعت  
ما قالوه عن الخراساني اختلج قلبها في صدرها لثلا يكون المراد حديثها فاصحت  
بسمعها وركبتها ترتعدان فسمعت رجلاً آخر يقول « مالكم ولهدا الهديان ؟  
فاذا سمعكم مولانا الهرش أسمعكم ماتكروهون . وما نحن في معرض حدال وإنما  
جئنا للقبض على ذلك الرجل المتستر فاذا ظفرنا به فكلنا يكسب . . . »

وكانت الحراقة قد حازت حراقة المأمون ولما سمعت ميمونة الإشارة الى  
حبيبها على تلك الصورة لم تتلك عن النهوض والالتفات نحو الكلام ورات  
جمهوراً كبيراً من الجند والعيارين في جلبه وضحك وصاح بأهم سكارى  
يعربدون وقد تقلدوا الاسلحة ورات على مقعد في طرف السمية رحلا قصراً  
سميناً عليه قيافة الرئاسة فوخزت جدتها وسألته هل تعرف هؤلاء فومت عبادة  
بصرها وحالما رأت الرجل همست في اذنها « انه الهرش رئيس العيارين »  
ووقع بصر أحد العيارين في أثناء ذلك على ميمونة وقد زادها الخوف  
والقلق رقة وروتقاً فصاح « انى أرى جارية حسناء . . . لعلها من القيان . . .  
اربط ياريس . . . لنسمع غناءها . . . »

فارتعدت ميمونة خوفاً وجمد الدم في عروقها وأدركت حديثها خوفاً  
فنهضت لنستحث صاحب الدفة على الفرار أو الدفاع فسمعت رجلاً من تلك  
الحراقة يقول بصوت منخفض « دع عنك الفضول . . . ألا ترى الراية . . . »  
فتجمهر جماعة ونظروا الى راية منصوبة في مقدم الحراقة وهم يقولون  
والسفينة تجري بهم وقد تجاوزت حراقة المأمون « انها راية المأمون . . . أخي  
أمير المؤمنين . دعونا منها »

فسرت ميمونة بانصراف الخطر عنها ولكنها أصبحت في قلق عظيم على  
حبيبها ورجحت أنهم سائرون في طلبه فالتفتت الى جدتها والدمع يتفرق في

عينها وقالت « انهم يطلبون بهزاد ؟ .. ويلاه » قالت ذلك وقد نسبت انها تكتم حبا عن جدتها

فقالت عبادة وقد حملت خوفها محملاً آخر « لا تخافي يا حبيبتى .. لا أظنهم يطلبونه ولكننا على كل حال سنسبقهم اليه وننبهه الى الخطر فينجو باذن الله » ونهضت الى صاحب الدفة وأمرته أن ينشر الشراع ويسير سريعاً في أثر تلك الحراقة

## الفصل الثاني والثلاثون

### اللحفة

مخرت السفينة على عجل وميمونة يكاد يشتعل قلبها لحفة وهي واقفة وعيناها شائعتان تنظر تارة الى الحراقة وطوراً الى الشاطيء لا تعلم ماذا تعمل وتحيرت في أمرها وهي لم تعد تمتلك التكمم والاحتراس فابتدرتها جدتها قائلة « لا تخافي يا بنية اننا سنصل إلى بهزاد قبلهم وان سبقونا بحراقتهم » وأسرعت الى مقدم السفينة وجعلت تتفرس بالشاطيء على اليسار وتنظر إلى أبعد مايقع عليه بصرها في عرض الافق وميمونة واقفة إلى جانبها وهي ترتعد وركبتها تصطكان وقد أمسكت بكنف جدتها تتوكأ عليها خوفاً من السقوط والسفينة تشق الماء والريح تنقر على الشراع وحراقة المأمون أسرع من حراقتهم . فسارت الحراقتان ساعتين وهما متقاربتان وتلك الي الامام وعبادة واقفة وبصرها شاخص إلى الافق وهي صامته حتى أشرفت على بناء شامخ تراهي لها عن بعد فصاحت « هذا هو الايوان ... إننا على مقربة من المدائن » ثم تحولت الى الربان وصاحت به « أترى هذه الناعورة ( الساقية ) أمامك ؟ »

قال « نعم يا مولاتي انى أراها »

قالت « أوقف الحراقة عندها » ثم التفتت إلى ميمونة وهمت في اذنها « اذا نزلنا من هنا وطلبنا منزل بهزاد وصلناه قبل أولئك بوقت طويل . . . »

خلوا الشراع وأدار الربان الدفة وبعد هنيهة رست بهم الحراقة عند الساقية  
فمسكت عبادة بيد ميمونة ونزلنا الى الشاطيء وقالت عبادة للربان « امكث  
هنا حتى نعود اليك . . »

فقال « الا تأمرين بمن يسير في خدمتكما ؟ »

قالت « كلا »

فقال « سمعا وطاعة »

وهرولت عبادة مسرعة وميمونة تعدو في أثرها وقد مالت الشمس نحو  
المغرب وعبادة تعرف الطريق جيداً وتعرف حناياها ومختصراتها فسارتا على  
هذه الصورة نصف ساعة فتعبت العجوز وكادت تخور قواها وتسقط وميمونة  
لا تبالى بالركض من شدة لهفتها ونسيت ضعف جدتها وشيخوختها فما لبثت ان  
رأتها تلهث من التعب والعرق يتصبب من جبينها وأنفها وسالفيها ولم تعد تقوى  
على العدو فوقفت ثم قعدت على حجر وأخذت تمسح عرقها وتلهث . فاستاءت  
ميمونة من قعودها وودت لو كان لها اجنحة لتطير بها الى منزل بهزاد وتحيرت  
في هل تترك جدتها هناك وتسير وحدها وهي لا تعرف الطريق ولا يطاوعها  
قلبا على ترك جدتها منفردة في ذلك المكان أم تصبر ريثما تستريح فتضيع الفرصة  
فجعلت تمسح لها عرقها وتنشطها وتخفف عنها وعبادة لا تستطيع الكلام من  
شدة التعب وبعد بضع دقائق قالت « انا على مقربة من البيت . ألا ترين هذه  
النخلة الباسقة ؟ »

وكانت الشمس قد توارت بين النخيل على الشاطيء الغربي وراهما  
فنظرت ميمونة شرقاً نحو الافق فرأت تلك النخلة فصاحت « اليست هي النخلة  
التي تعودنا الاستظلال بها اذا خرجنا من منزلنا ؟ »

قالت « بلى هي بعينها »

فقالت « نحن اذاً على مقربة من بيت بهزاد هلمي بنا تم مسيرنا ولو أتعبك  
ذلك فاني اخاف أن يسبقنا أولئك الرعاع اليه »

قالت « لا تخافي انهم لا يزالون يعخرون في دجلة » قالت ذلك ونهضت وهي تشدد وتتجدد ومشت وميمونة تسير في أثرها وهي تستبطي مشيتها وتصبر نفسها حتى وصلنا الى أسواق تلك البلدة فقطعتها وأقبلتا على منزل بهزاد والشمس كادت تغيب فرأنا الباب مغلقاً وليس عنده أحد فمشتا وهما تلتفتان والشاطيء بعيد عنهما فلم تجدنا أحداً قادمًا فتحققت ميمونة ان الأعداء لم يدرکوا البيت بعد . وبعد هنيهة وصلنا الى الباب فوجدناها مقفلاً فقرعناه قرعاً عنيفاً فلم يجبهما أحد

فلما أبطأ عليهما الجواب بعد القرع العنيف تفرست عبادة بقفل الباب فرأته مقفلاً من الخارج فتحققت أن بهزاد ليس في داخله فانشرح صدرها وانبات ميمونة بذلك فتنفست الصعداء وقالت الحمد لله انه ليس هنا ولا سبيل لهؤلاء اليه . . ولكن أين هو ياتري ؟

فقالت جدتها ربما كان في بغداد أو في بلد آخر . . . قالت ذلك وقعدت على حجر عند الباب لتستريح

فقالت ميمونة « أخاف أن يكون عائداً الى بيته الآن فيظفرون به . . . يا الهي ما العمل . أرى أن تتربص له بالقرب من هذا المكان فاذا رأيناه أنبأناه بالخطر الذي يهدده . . »

قالت « وهل نكون في أمن على أنفسنا ؟ »

فتحيرت ميمونة في أمرها وقالت « ماذا نعمل اذا . أخاف أن يكون بهزاد آتياً الساعة وهو لا يعلم بما أعدوه له فيقع غنيمته باردة في أيديهم . يجب أن نتم سعيانا في انقاذه » وكأشها أدركت كثرة ما أظهرته من اللهفة عليه تخافت ظهور جها له فاستدركت قائلة « يجب علينا ان نكافئه على فضله ولا ندخر وسعاً في انقاذه ولو تعرضنا للخطر . . »

فاستحسنت عبادة كرم أخلاقها وقالت « صدقت يجب علينا أن نبذل ما في وسعنا في سبيل خدمته ولكن ما العمل ؟ ها أني اسمع غوغاء القوم من جهة الشاطيء . . اسمعي انهم يتراکضون هلمى بنا من هذا المكان قبل ان يدرکونا

تعالي ، قالت ذلك ونهضت وهي ممسكة بثوب ميمونة فتبعتها مسرعة نحو الشرق ولما تحولنا عن الباب تعثرنا بتلال وأحجار من أنقاض قصر كبير فقالت ميمونة « انى أرى انقاضاً كأنها من بقايا دولة الفرس تشبه ان تكون انقاض ايوان »

فقالت عبادة وهي تسرع في مشيتها جهد طاقتها مع ما يحول دون ذلك من شيخوختها « صدقت يا حبيبتى ان هذه التلال والاحجار من انقاض ايوان كان هنا غير ايوان كسرى ويعرف بايوان سابور وهو القصر الذى كان يقيم فيه المنصور قبل بناء بغداد وتهدم بعده كما ترى »

فقالت ميمونة « الظاهر أن هزاد اختار السكن بجوار هذه الانقاض استئناساً بآثار أجدادنا . . . » قالت ذلك وهي تسرع أمام جدتها وقد نهها ذكر هذا الايوان الى شىء خطر لها فلما توارتا عن المنزل قالت ميمونة « اذكر انى سمعته يقول مرة انه يتردد الى ايوان كسرى للبحث عن بعض العقاقير الطبية والحشائش التى تنبت على انقاضه فعلمه هناك الآن ؟ »

فقالت عبادة « ربما كان هناك . . . اتبعيني لنبحث عنه قبل أن تغرب الشمس »

## الفصل الثالث والثلاثون

### ايوان كسرى

وهرولنا نحو الايوان المذكور وهو في ظاهر المدائن من جهة الشرق . فخرجنا من البلدة وهما تحاذران أن يشعر أهلها بما هما فيه وبالغنا في التفتيح والتلثم حتى وصلنا الى الايوان فاذا هو قائم كالجبل العظيم وقد زاده الحراب وحشة . وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وتلاحت الاظلال وأخذت تتحول الى ظلام — وساعة الغروب من أوحش الساعات على الانسان لقرب خروجه الى الظلمة فيشق عليه فراق النور فتقبض نفسه ويستوحش ولو كان في قصره بين أهله وذويه فكيف اذا كان في بيرة يغشاها الحراب وينعق فيها .

اليوم ولا سيما بين يدي ذلك البناء الذي كان رهيباً وهو عامر فكيف وهو خرب . وللخراب وحشة في ابان النهار فكيف في الليل . على ان ميمونة شغلت عن الخوف باللهفة ولولا ذلك لكان لها في منظر ذلك القصر عبرة كبرى لما يدل عليه تخربه من مصير الانسان الى الزوال — يكفيها التفكير في أهل هذا القصر وفيهم الاكاسرة والمرازبة والدهاقنة والاساورة وكان أحدهم لا تنكاد الارض تسع مظامعه . وكم ارتبطت خيولهم في باحة ذلك القصر وكم دخلوه وعليهم الحز والديباج وعلى رؤوسهم التيجان وفي أيديهم الصواجحة وكم جاء الملوك والامراء يلتمسون الهدنة أو يتقربون بالهدايا وكم خضع لهم القواد وسيقوا اليهم بالاغلال والاصفاد يوم كان القصر أهلاً بالنساء والاولاد وألوف من العبيد والجواري مما حمل اليهم بالأسر أو الهدايا وفيهم غلمان من أبناء الملوك وفتيات من بنات الامراء وكلهم يرفلون باللبسة الحريري توسدون الرياش الوثير بين مزركش ومطرز بألوان تبهج النظر وانغام تطرب السمع وكم كان على شرفات الايوان من الستائر الموشاة يطل من ورائها الجواري الحسان يتطلعن الى ما كان يقام في باحة القصر من الالعاب على الخيول كالسباق أو لعب الصواجحة والناس كلهم فرحون بحسبوا الحياة نعماً دائماً — فلو رأهم راء ثم جاء مع ميمونة في ذلك المساء ورأى الايوان قد أصبح مقراً للحشرات رياشه التراب وما نبت عليه من الحشائش والطحالب ونمازقه الاشواك والاحجار وقد تهدمت جدرانها وسقطت أساطينه وتصدعت أركانها لاعتبر وتهيب وغلبت عليه الوحشة ولو كان من الابطال فكيف إذا كان فتاة ربيت في مهاد الرخاء مثل ميمونة فالتفتت الى ما حولها فلم تر الا خلاء قد تولاه الخراب فاستوحشت وندمت على مجيئها ولكن رغبتها في لقاء حبيبها شجمتها وثقتها بجديتها هونت الامر عليها

أما عبادة فكانت في شاغل بما لحقها من التعب وكانت أقل خوفاً من ميمونة فاسندت نفسها الى اسطوانة ملقاة هناك من أنقاض الايوان وقالت ليمونة « هل ترين أحداً أم تسمعين صوتاً ؟ »

فاصاحت بسمها ثم قالت « انى لا أسمع صوتاً ولا أرى شيئاً لكن ذلك

لا يمنع أن يكون بهزاد داخل هذا البناء يبحث على عشب أو عقار وبما أتت  
وصلنا الى هنا فلتدخل الطاق فاذا لم تر أحداً رجعنا سريعاً قبل أن يشتد  
الظلام . . هل ندخل ؟ »

فلم تشأ عبادة مخالفتها وقد استصوبت رأيها فمشتا وها تجسان الارض جسا  
أقدامهما وتحاذران العثور بالاحجار أو الاشواك وقد سكنت الطبيعة وأوت  
الطيور الى أوكارها . ولما أقبلنا على باب الايوان هابتنا سمته وارتفاعه فقد  
كان عرض فتحة ٣ ذراعاً وارتفاعه ٣٣ ذراعاً (١) ولم تقفا تحت قنطرنه  
حتى سمعنا هبوب النسيم وأحسنا يبرده فأجفلت ميمونة وتراجعت وشعرت  
كأن يداً باردة لمست وجهها فتلفتت فلم تر أحداً فابتدرتها جدتها قائلة  
« مالك يابنية ؟ »

قالت « ماذا أسمع . . . هل اسمع هبوب النسيم وأشعر يبرده أم  
هي انفاس الجان . . . قد كنا منذ لحظة خارج الايوان وكل شيء هادىء فما  
بالى اسمع هبوباً وأشعر بالبرد . . . »

قالت « كأنك لم تدخلى هذا الايوان قبل الآن ؟ »

قالت « كلا . . وهل فيه جان ؟ »

قالت « لاتخافي يابنية ليس في المكان جان ولا انس وأما ما تسمعيه فهو  
أصوات مجارى الهواء الخارج من جدران الطاق . . .  
قالت « وقد كنا بقربه الآن ولم يكن ثمة ريع . . . فكيف هبت  
سريعاً على هذه الصورة »

قالت « ان في بناء هذا الايوان سرّاً لم ينكشف لاهل هذا العصر  
بعد . . . انه مبني على هندسة تجعل الهواء يعب في قاعته ولو كانت الناس  
خارجة في حر شديد فيخرج من منافذ في جدرانه مصنوعة على نمط عجيب  
حير مهندسي هذا الزمان وقد تأنق الذين بنوه في صنعه على هذه الصورة حتى  
لا يفارق النسيم مجالس الاكاسرة في أشد الايام حرّاً . . . فلاتخافي . . . هل  
تريدن الرجوع ؟ »

(١) راجع وصف هذا الايوان وناريخه في الهلال السادس من السنة الخامسة عشرة

وكانت قد دخلنا الباب وأقبلنا على القاعة الكبرى التي يسمونها الطاق  
ويسمون الايوان بها فيقولون طاق كسرى كما يقولون ايوان كسرى . وكانت  
مساحة هذا الطاق في أيام عمارته ستين ذراعاً في ستين وقيل مائة في خمسين  
وكانوا يفرشون أرضه ببساط واحد مزركش ومرصع

## الفصل الرابع والثلاثون

### الدهشة

وكان في صدر الطاق على عهد الاكسرة عرش من ذهب مرصع بالحجارة  
الكريمة يجلس عليه كسرى تعلوه قبة مرصعة وفي داخلها مروحة من  
ريش النعام والى جاني العرش مجالس الاعوان والمرازبة وقد ذهب ذلك  
كله في أثناء الفتح غنيمة للمسلمين وم يومئذ أهل بادية حفاة عراة  
لا يفرقون بين الكافور والملح ولا بين الجوهر والحصى فاقسموا الآنية  
وقطعوا الابسطة ومزقوا الستائر . وكان نصرم عبارة عن تغلب البداوة  
على الحضارة . فلم يبق هناك الا الاحجار وبعض الاساطين وقد تشوهت  
وتكسرت

ونظرت ميمونة الى ما حولها من الجدران الهائلة فرأت عليها صوراً  
ملونة منعها الظلام من تحقيقها . ولما سمعت جدتها لتستخيرها في الرجوع وهي  
لا ترى في ذلك المسكان الا ما يبعث على الوحشة . ناهيك بما كانت تخافه من  
الحشرات التي تسكر في مثل تلك الحربة عزمت على الرجوع وأرادت ان  
تجيبها بالايجاب وتتحول فاذا هي تسمع دبدبة خارج الايوان ولا تسمع كلاماً  
فاختلج قلبها في صدرها وأرادت أن تصيح فارنج عليها واصق لسانها بحلقها .  
وادركت جدتها ذلك ولم تكن أقل خوفاً منها فأمسكت بيدها وأومات اليها أن  
تتبعها الى الداخل وهي تهمس في اذنها لعل أولئك العيارين ظنوا مثل ظننا  
فأتوا للبحث عن بهزاد في الايوان وهو والحمد لله ليس هنا واذا رأونا ربما

قتلونا فلنختبي وراء هذه الاساطين حتى اذا أطلوا ولم يجدوا أحداً رجعوا فتنجوا نحن قالت ذلك وصوتها يرتجف وهي تجر ميمونة بيدها . فأسرعتا فوق الحجارة وما يتخللها من الاعشاب والاشواك وقد سمع لخطواتهما خشخشة وطققة رغم ما أرادتا من التستر ولم يكن لهما بد من ذلك . ولم تنتبها الدهشتها وبغتها وهما تسرعان لما كان يسرح بين أقدامهما من الجرد والاورال ونحوها من الحشرات حتى وصلتا الى كوة واسعة اعلمها موضع ذلك العرش في إبان صولة الفرس . وبين يدي الكوة أساطين متفرقة اذا دخل الطاق داخل لا يفطن لمن يقيم وراءها . فدخلتا الكوة وانزوتا فيها وهما تمسكان أنفاسهما من الخوف وأصغتا وعيونهما مملقة تنظران نحو الباب بلهفة وجزع وقد ندمتا على تلك المخاطرة ولا سيما ميمونة فكانت وهي منزوية تضم جدتها اليها استئناساً بها وقد أخذتها الرعدة وجدتها تخفف عنها وتستغيث بالله ولم تمض لحظة حتى كفت الدبدبة وسمعت ميمونة همساً عند الباب كأن التكلم يحاذر أن يسمعه أحد وعاد السكوت لحظة سمعت في أثنائها صوت قدح الزناد . ثم رأت أشعة النور اندفعت الى الطاق من سراج يحمله شبح طويل القامة قد تلم بلثام أسود والتف بعباءة سوداء حتى لا يبدو منه غير يده يحمل بها السراج . فدخل صامتاً وفي أثره بضعة رجال في مثل لباسه . فلا تسل عن ميمونة وخفقان قلبها واضطرابها حتى كاد الدم يجمد في عروقها من الخوف لئلا يتقدم الرجل بسراجه الى مكانها فبالغت في الاتزواء وهي معانقة جدتها

أما حامل السراج فلما توسط الطاق التفت يمنة ويسرة وقال : هل ترون أناساً ؟ . إني لا أرى أحداً . . . ومن يأتي هذا المكان في مثل هذا الوقت ؟ . ليس ما سمعناه الا خشخشة بعض الحشرات السارحة لما أحست بقدمنا . ثم نظر الى ما بين يديه كأنه يبحث عن مكان يضع السراج عليه فرأى بقية اسطوانة قد ذهب معظمها وظللت قاعدتها قائمة فوضع السراج وأخرج يده الاخرى من تحت العباءة واذا هو يحملها صندوقاً أسود اللون

لامعه فوضعه بجانب السراج ثم التفت الى رفاقه وهم ستة وقال بصوت ضعيف  
« هل نحن في سلام »

فأجابه بعضهم « نعم قل ما بدا لك »

وكانت ميمونة لما سمعت صوت الرجل الاول استأنست به لأنه يشبه صوت  
حبيبها فاختلج قلبها وشاعت عيناها وهي تحسب نفسها في حلم : ثم رأت  
الرجل الطويل قد خلع عباءته وخلع رفاقه عباءاتهم فافترشوها وأشار  
اليهم فقعدها عليها وظل واقفاً وقد بدت ثيابهم من تحت العباءات على غير  
المألوف في بغداد — رأت على كل رجل قباء أخضر وعلى رأسه قفلسوة  
لها عمامة خضراء وقد تمنطقوا بالسيوف وتقلدوا الاقواس كأنهم يتأهبون  
للحرب

ووجهت ميمونة انتباهها على الخصوص للمتكلم الاول وكان قد ولاها  
ظهره فلم يفتها انه بهزاد بعينه فحدقت فيه وودت ان تناديه لو لم تتمالك وتتجلد  
وأشارت الى جدتها أن تنظر اليه ومع ضعف بصرها عرفته وأومأت الى  
ميمونة أن تصبر وتبقى صامته فصبرت نفسها وأخذت تنفرس بالقوم فعرفت  
من وجوههم ولحاظهم أنهم من الفرس ولكنها لم تعرف احداً منهم وادا  
بهزاد قد تحول نحو قاعدة الاسطوانة وتناول الصندوق فوضعه بين يدي  
الجماعة وقعد الفرفصاء وهو يقول « اقساموا على ما في الصندوق انكم تكتمون  
ما يدور بيننا

فتصدى رجل منهم رقيق البدن خفيف العضل تدل سحنته على عصبية  
مزاجه وحدة ذهنه وجرأته فقال « ولكذك لم نخبرنا بما فيه وقد وعدتنا ان  
تطامننا على ذلك قبل كل عمل »

فتناول مفتاحاً من جيبه وفتحه وقال « انظروا ولا تتكلموا »

فنظروا في الصندوق وتراجعوا وقد تولتهم الدهشة وقالوا « انا لله وانا اليه

راجعون ما هذا ؟ »

قال « هذا شعارنا من اليوم ... هذا هو رأس القتييل المظلوم اقساموا به

انكم تكتمون حديثنا وتسعون في الانتقام له ولن نقتل قبله »

قال ذلك وأقبل الصندوق وهو جاث ققرأوا الفاتحة معاً ثم أقسم كل منهم  
انه يبذل ماله ودمه في سبيل الانتقام

## الفصل الخامس والثلاثون

### كسرى أنوشروان

ثم وقف بهزاد وأعاد الصندوق الى موضعه وحمل المصباح وتقدم نحو  
جدران الطاق والسراج مرفوع بيده حتى يبدو ماعلى الحائط وقال « أترون  
ما على هذا الجدار من الرسوم ؟ »

« قالوا إنا نرى كسرى أنوشروان بجنده يحاصر انطاكية ،

قال « ألم يفتحها ؟ »

قالوا « بلى »

قال « ونحن فاتحون بأذن الله ... ألم يكن أنوشروان عادلاً ؟ »

قالوا « انه كان عادلاً حكماً »

قال « أستم خلفاءه وأبناءه »

قالوا « بلى »

قال « ألم تنصروا هؤلاء العرب وتملكوهم رقاب الناس ،

قالوا « بلى »

قال « ألم يكن أجدادكم الذين بذلوا أرواحهم في هذا السبيل فسفكوا الدماء

وأبلاوا بلاء الرجال الأشداء وارتكبوا في طاعة أمامهم الاول اموراً عظيماً فقتلوا

على التهمة وغدروا وخافوا رغبة في مصلحة تلك الدولة وما كان جزاؤهم ؟ »

فاجابه الجميع بصوت واحد « لقد جوزينا جزاء سنهار ... رحم الله

أبا مسلم .. »

قال « ليس أبو مسلم أول شهيد منا ولكنه أعظم شهيد قتله اولئك العرب

غسراً بعد أن أيد سلطتهم وسلم الدولة اليهم أرضون ان يذهب دمه هدراً

فضلا عن دماء آبائكم ؟ »

فقال رجل منهم كبير السن جليل الطلعة « انك تدعوننا الى أمر عظيم ولم تخبرنا من انت . . . نعم انك فارسي مثلنا وشريك لنا في هذا الامر . . . ولكننا نحب ان نعرف الغرض الحقيقي الذي أتينا به الى هذه الخرائب وقد كنا في غنى عن ذلك في بيوتنا »

قال « ان هذا المكان يعده الناس خرباً وما هو كذلك . . . انه أثر حي لعظمة دولتنا التي يحجز المنصور بعد ان غدر بأبي مسلم عن هدمه . . . ان بقاء هذا الايوان رمز على بقاء دولة أصحابه . وأجبت ان نتذاكر بالانتقام بين جدرائه وهذا انوشروان العادل كأنه يرانا ويسمعنا فاذا تعاهدنا في حضرته كان عهدنا وثيقاً . . . »

ثم رفع السراج الى رأس كسرى وقال « انظروا انه ينظر اليكم بعينه نظرة عاتب كأنه يقول : لقد تقاعدتم عن نصره أمتكم ورضيتم الرضوخ لقوم استخدموكم وأذلوكم وقتلوا خيركم غدرأ فكيف تصبرون على الذل وانتم الفرس ومنكم العظام والحكام والقواد ومنكم رستم وقورش ودارا وسابور وبرويز وأنوشروان وبزر جمهر وقد حاربتم اليونان والرومان والهند والصغد ووطتم بالادم وفتحتم مدنهم . . . كيف يغلبكم على امركم أعراب كانوا يقدون علينا للاستجداء فننعم عليهم بالطعام واللباس وكان أحاسنهم من جندنا وموالينا فتسلطوا عليكم بالسيف ثم نصرتموم قتلوا كباركم غدرأ وملكوا رقابكم وانتم صابرون ولولم تصبروا لكنتم الملوك وم عبيد لكم . ومع ذلك اليست مقاليد الأحكام في ايديكم ومنكم وزراءوم وقوادم ورجال العلم والسياسة فيهم كيف تحنون رقابكم لرجال ما فيهم الا الضعيف وانما غلبوكم بالحيلة والمداجاة . ان الصبر اذا طال أصبح مذلة وعجزاً هذا خطاب انوشروان ولأجله جئت بكم الى هذا المكان . اما أنا فاذا كنتم من الناقمين لأبي مسلم فاعرفوني . . . انى رسول اخوانكم في خراسان فما قولكم ؟ »

فما فرغ بهزاد من كلامه حتى ارتفع صوته ونسي التكمم والتستر وقد اشرق وجهه حماسة وشهامة . وكانت ميمونة تسمع اقواله وقلها يرقص فرحاً لما سمعته من التحريض على الانتقام . ولكنها ظلت مشغولة الخاطر بما في

الصندوق وقد فهمت من حديث القوم ان فيه رأس رجل مظلوم واصبحت شديدة الميل الى معرفة صاحبه . على انها شغلت بالفرح لما ظهر لها من تحريض حبيها للانتقام من اصحاب الدولة وليت تتوقع ما يكشف لها الغامض

أما بهزاد ففرغ من قوله والسراج في يده وهو ينظر الى القوم فنهض ذلك الكبير وقال « هل أنت رسول اليتامى من إخواننا الحرمية في خراسان ؟ » قال « إني رسول اليكم منذ بضعة أعوام »

قالوا « وما الذي أخرك عن دعوتنا الى الآن ؟ »

قال تربصت حتى جاءت الساعة وسنحت الفرصة لان الامور مرهونة بأوقاتها . فالآن مات الرشيد ... مات الرجل الذي غلبنا بمبادرته وكيدته قتل كبيرنا وعمدتنا وعرقل مساعينا . . فتربصنا حتى مضى وخلفه غلام عُزْر همه أكله وشربه و .. »

فقطع الرجل كلامه قائلاً « ولكنتنا أقمنا دولة فارسية أساسها الآن في خراسان . هذا أخوه المأمون ولي العهد بعده لا يلبث أن يتولى العرش وهو كما تعلم آله في يد الفضل بن سهل وهذا انما أسلم وتقرب منه رغبة في نصرة الفرس وتطلعا الى هذه الفرصة . فاذا أفضت الخلافة الى المأمون بلغنا الغرض المطلوب على أهون سبيل ؟ »

قال أم أقل لكم إنكم غافلون عن مصالحكم ؟ ان مساعي الفضل أوشكت أن تذهب أدراج الرياح بما دبره هذا الغلام وأنصاره من أسباب الغدر — فكما أسس المنصور دولته بقتل أبي مسلم غدراً وأنقذها الرشيد بقتل جعفر غدراً فان هذا الغلام عرقل مساعي الفضل بن سهل بخلع المأمون غدراً . . »

فصاح الرجل « وهل خلمه ؟ »

قال « نعم خلمه ولا يلبث أن يقتل أنصاره وأتم نيام . ان مساعي الفضل مؤسسة على الدهاء والسياسة فاذا لم تبادروا الى تأييدها ذهبت عبثاً فلا ينفعنا اسلامه ولا تقربه من المأمون »

فقال الرجل « هل أنت واثق من الخلع ؟ »

قال « لست نأثما مثلكم انى ساهر على مصلحتكم منذ بضعة أعوام وقد  
بثت العيون والارصاد حتى في بلاط الخليفة وأعرف كل حركة تجري في  
بيت الامين وأعرف اهواء العامة وأغراض الخاصة — وقد علمت يقيناً  
أن الامين خلع أخاه المأمون ولا ندرى ما يأتيه بعد ذلك . أما العامة فقوم  
طعام يباعون ويشرون وهم لا يعلمون وأما الخاصة فانتم عمدتهم فبادروا الى  
العمل . فقد بلغ السيل الربى »

فأطرق القوم هنيهة ثم وقف الرجل الجليل وقال بصوت هادىء « أما  
وقد ثبت خلع المأمون فالامر هام ولكن سعينا لا يضمن فيه الفوز الا  
بالتؤدة فان هؤلاء العامة لا يفادون إلا بالدين وهذا امر كان أوله في خراسان  
ولا يقوم إلا من هناك »

قال « ان تدير ذلك هين علينا وخراسان سيفنا وذخيرتنا وأما الدين  
فهو الوسيلة لجمع كلمة العامة وهذا في أيدينا سندبر ذلك في خراسان . ان هذه  
الاقبية الخضراء ستملك أمر الدين باذن الله ؟ »

ففهم الرجل مراده من اتخاذ مذهب الشيعة سلاحاً لنقل الخلافة فقال  
« متى صارت الحضرة شعار الخلافة وذهب سواد العباسيين لننا المراد ولكن  
أنى لنا ذلك ؟ »

قال « ذلك يكون لنا ان شاء الله في خراسان ولا بد من اعمال السيف  
فكونوا أتم في يقظة من أمر شيعتنا في بغداد . واذا أتت الساعة يحاسب كل  
منا على عمله » ثم أشار الى الصندوق وقال « وأما شعارنا الحقيقى فهو ما  
رأيتموه في هذا الصندوق وسأضيف اليه رأساً آخر اذا رأيتموه علمتم أنكم  
اذا بذلتم أموالكم وانفسكم انما تبدلونهما في سبيل حسن . . . اذا كنتم من  
الحرمية فانكم تنتقمون لامام قديم ورجل عظيم . تنتقمون لأبى مسلم صاحب  
الرايات السود مؤسس الدولة العباسية وهو يناديكم من أعماق قبره أن تغلبوا  
هذه الدولة وتعيدوا دولة الفرس وتؤيدوها بالشيعة العلوية صاحبة الدعوة  
الاصلية التى أضعها المنصور بغيره ودهاته . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب  
ينقلبون »

## الفصل السادس والثلاثون

### الى المنزل

وكان بهزاد يتكلم والعرق يتصبب من جبينه وقد أخذت منه الحية مأخذاً عظيماً واستهض عزائم أولئك الرفاق وسحرم بحماسة وبسالته حتى وهوا أن ذلك الايوان الحرب أهلاً بالجند والاعوان وكان متكلمهم كسرى أنوشروان . وكانوا يعرفون بهزاد قبل ذلك المساء طيباً فارسياً وهو بالطبع ناظم على العباسيين ولم يكن يخطر لهم انه رسول من الاحزاب السرية القائمة في خراسان للانتقام من دولة العرب — ومن أشهر تلك الاحزاب جماعة الحرمية وهم طائفة ظاهرها ديني واختلفت الاقوال في حقيقة مذهبها ولكنها كانت حزبا سياسياً يستخدمها رجال المظالم في طلب السيادة وفي جملتهم أصحاب أبي مسلم وأهله ولا سيما ابنته فاطمة فان الحرمية كانوا يقدسونها ويذكرونها في أدعيتهم وللحرمية دخل كبير في تاريخ الاسلام وكانوا اذا اشتدوا ظهروا واذا ضعفوا اختفوا وكانت لهم مخبرات سرية في المدائن الاسلامية يتعاونون ويتكاتفون وفيهم المسلمون والزرديشتيون والمجوس وانما يجمعهم جماعة الفرس

ولا بدع اذا كان منهم جماعة في بغداد كالذين جاءوا مع بهزاد وهم من وجهاء القوم وأصحاب الثروة والنفوذ هناك وفي نفوسهم أشياء على الخلفاء لما رأوه من قتلهم أبا مسلم وجعفر البرمكي وغيرهما . وكانوا يتحدثون بذلك سرا وهم ينتظرون تبدل الاحوال وآمالهم عالقة بالأمون إذا تولى الخلافة ولم يخطر لهم ما أتاه الامين من خلعه . فلما أنبأهم بهزاد بذلك ثارت الغيرة في نفوسهم وتحمسوا ونهض أحدهم وقال « اننا على ما أقسمنا عليه لاندخر في سبيل ذلك مالا ولا رجالا ولكن لا بد لنا من التثؤدة »

فقال « ذلك ما عزمنا عليه . . أقيموا أتم في أعمالكم كالعادة حتى تأتي الساعة وأنا أعرف أما كنكم فكونوا على استعداد . . » قال ذلك وتحول

والسراج لا يزال في يده فوضعه في مكانه وهو يقول « قد آن لنا الانصراف  
وهذا آخر اجتماع لنا في هذه الديار على هذه الصورة وسنجتمع على غير كافة  
أو حذر قريباً ان شاء الله . . »

فهض رفاقه وأخذوا يتأهبون للخروج فالتفوا بعبادتهم وهموا  
بالانصراف وتناول بهزاد عبادته فالتف بها وأطفأ السراج وتركه في مكانه  
وخرج . فلما أظلم الطاق لم تعد ميمونة تستطيع ضبط نفسها والصبر على  
التستر فهمت أن تنادي بهزاد فأمسكت جديتها بيدها وطلبت اليها أن  
تصمت ريثما يتفرق القوم ونهضت وأشارت اليها ان تتبعها بخفة وهدوء  
فأطاعتها ومشيت وركبتها تتلاطمان من الارتعاش لا تكادان تحملانها وزادت  
رعديتها وارتجافها حتى اصطكت أسنانها كأنها أصيبت بتشنج

ولم تتوسطا الطاق حتى رأنا الجماعة امتطوا خيولهم بعد أن صافحوا بهزاد  
وودعوه وانصرفوا وبقي هو وحده فتحول نحو مربط جواده ليركبه فسمع  
وقع خطوات تتبعه فالتفت فرأى شبحين بلباس النساء فتحول نحوهما بهدوء  
ورباطة جأش وقال « من أرى ؟ . »

فترأى ميمونة نحوه وترامت على ذراعه وصاحت « أنا ميمونة وهذه  
جديتي عبادة »

فشعر بهزاد برعديتها فتجدد وقال « وما الذي جاء بكما الى هذا المكان ؟ »  
فقالت عبادة « جئنا للتفتيش عنك فقد شغلت خاطرنا بغيابك »  
ومولانا بنت المأمون أصيبت بحمى لا ترضى معالجتها الا على يدك ولما  
ابطأت بالرجوع لم نر أحداً أولى منا بالبحث عنك هنا لاننا نعرف منزلك  
وطرقك . . »

فأطرق وهو ممسك لجام الفرس بيده والصندوق باليد الاخرى ثم قال  
وما الذي جاء بكما الى هذا المكان وكيف عرفتما أنني أجيء اليه »

فقالت ميمونة « قد ساقنا اليه العناية والحديث في ذلك يطول وأنت  
الآن في حاجة الى الراحة ونحن كذلك . . »

فقال « هلم بنا الى المنزل » ثم التفت الى عبادة وقال « أظنك أكثرنا تعباً  
فاصعدي الى الفرس فاركبيه ونحن نمشي بجانبه »  
فقلت « العفو يا سيدي هذا لا يكون .. لا يركب فرسك سواك ولكن  
الى اين نذهب . . ؟ »  
قال « الى المنزل »  
قلت « الى المنزل في المدائن ؟ »  
قال « نعم »  
فأمسكت يده بكلتا يديها وقالت « لا بالله . لا تذهب الى هناك »  
قال « ولماذا ؟ »  
قلت « لان في الذهاب خطراً عليك »  
فأجابها وهو لا يزال ماشياً « وأي خطر ؟ »  
قلت « رأينا الجند والعيارين جاءوا للبحث عنك في منزلك » وقصت  
ختصر مشاهداته الى أن قالت « فأخاف ان يصيبك سوء »  
فقال وهو يتغير « أنت تخافين وأما أنا فلا اخاف »  
فقلت « بالله أظننا في ذلك وتعال نذهب معاً في الطريق نحو الشاطئ »  
فان الحراقة في انتظارنا هناك »  
فقال « لا بد لي من الذهاب الى منزلي يا خالة »  
فلم تصبر ميمونة على السكوت فهمت أن تتوسل اليه ليغير عزمه  
فاذا هي تسمع وقع أقدام مسرعة فالتفتوا جميعاً فرأوا شبحاً قادماً نحوهم  
من جهة المدائن فأجفلت ميمونة وصاحت « ويلاه أظنه واحداً من  
العيارين »  
فسمعت الرجل يقول « كلا لست منهم »  
فعرفوا صوت سلمان فدهشوا وصاح بهزاد « سلمان .. ؟ »  
قال « نعم يامولاي . . . » فوصل اليهم وهو يلهث من سرعة الركض  
فابتدره بهزاد قائلاً « ما وراءك ؟ »  
قال بصوت متقطع من التعب « ان المنزل يامولاي محاط بالجند والعيارين

«وم جماعة كبيرة أرسلهم الامين للقبض عليك . . .»

قال « وكيف أتيت اللدائن حتى رأيت ذلك وعهدي انك في بغداد »  
قال « عرفت هذا العزم من مصدره فاحتلت في الخروج بأسرع  
ما يستطيع الناس فأدركت المنزل وقد سبقوني اليه ورأيتهم محيطين به  
يتشاورون في فتحه فعلمت انك لست في داخله وتذكرت انك تأتي الايوان  
بعض الاحيان فأتيت لعلى اراك وأنذرك بما هناك حتى لا تعرض نفسك  
للخطر .. »

قال « وهل افر منهم ؟ »

قال « وكيف اذاً . . . ؟ وهل تلتقي بنفسك في الخطر ؟ بالله اطعني »  
قال « هذا لا يكون ولكن اذهب أنت بهذه الحالة وميمونة الى الحراقة  
وأنا لا بد من ذهابي الى المنزل لامر هام فاذا لقيت فيه جنداً يحكم الله بيني  
وبينهم »

فلم تعد ميمونة تتالك عن التصريح بما في خاطرها فقالت « وهل نحن  
خائفون على حياتنا ؟ وحياتك هي العزيزة ... ان حياتك عزيزة يا سيدي ...  
أظننا لم نسمع حديثك .. ؟ فقد عرفنا مهمتك وفي نفسى من هذا الصندوق  
شيء فأحب الاطلاع عليه .. »

قال « ربما اطلمت عليه بعدئذ وأما الآن فلا بد من الذهاب الى البيت  
إني لم أعود الفرار »

فازدادت ميمونة اعجاباً به ولم يروا بدأ من اطاعته فقالوا « نسير جميعاً  
حيثما تشاء ويصينا ما يصيبك »

فمشى وسلم زمام الفرس الى سلمان وأراد هذا أن يحمل الصندوق  
عنه فأبى ومشت عبادة وهي تتناقل في خطاها وتبالغ في اظهار عجزها  
وكذلك سلمان وميمونة كأنهم مساقون الى القتل رغم ارادتهم وبهزاد  
يطاوعهم بالتأني

## الفصل السابع والثلاثون

### حديث الغرام

أما ميمونة فلا تسل عن قلبها وما قاساه من الاضطراب في ذلك المساء بما تضارب فيه من الامل والخوف والفرح والاسف . فكانت تمشي معهم وهي ساجدة في بحر الهواجس تراجع ما سمعته أو شاهدته في الطاق فاذا تصورت مساعي حبيبها في نصرة الفرس اختلج قلبها فرحاً فيعترض فرحها ما تخلل أفوائه من التعريض بسفره الى خراسان فتنبض نفسها وهي مع ذلك لم تفهم محلها من قلبه . وأحست بافتقار كلي الى خلوة تستطلع فيها أفكاره واذا تصورت مجالسته على انفراد شعرت بتيب وخجل

قطعوا مسافة الطريق والظلام شامل وم سكوت يمشون الهوينا وكل منهم يفكر في امره ويتشاغلون بتجسس الطريق لأن أكثرها وعراً . وكما اقتربوا من البلد تطلعوا الى ما عساه أن يكون من أمر أولئك الجند . فلما دخلوا الاسواق استأذن سلمان بالمسير أمامهم ليستطلع حال المنزل فمضى ثم عاد وهو يقول « ان الجند انجلوا عن البيت بعد أن كسروا ابوابه ونهبوا ما فيه . . . »

فقال بهزاد لا يهمني مما في البيت الا شيء واحد اذا ابقوه فهو يكفيني «  
فظنه سلمان يعني كتبه وأوراقه فقال « إنهم أخذوا الكتب ومزقوا  
الاوراق »

فقال « وهذا لا يهمني » وظل ماشياً وهم يتبعونه حتى وصلوا المنزل فرأوا الباب مكسوراً فدخلوا منه وسبقهم سلمان الى غرفة يعهد فيها مسرحة فأضاء السراج وعاد ليضيء طريقهم فرأوا آثار النهب ظاهرة في كل خطوة وبهزاد يسير والصندوق بيده وهو يتفرس في الارض . ثمروا في باحة كبيرة فيها كثير من الآثار الدالة على ان ذلك البيت بني على انقاض ايوان سابور حيث

كان المنصور يقيم قبل بناء بغداد . فاستطرقوا من الباحة الى باب آخر هو باب البيت الداخلى فرأوه مفتوحاً فدخلوا فيه وبهزاد لا يزال يتفرس في الارض وهم يعجبون لسكوته وقلة اهتمامه بما أصاب بيته من النهب . وبينما هم يسيرون في الدهليز رأوا بهزاد تحول عنهم الى كوة في جداره الايمن فتناول منها معولاً كان هناك وقد بدا البشر في حياه ودفع المعول الى سلمان وقال « احتفظ بهذا » ومشى ولم يعد يلتفت الى شيء حتى دخل غرفة كبيرة في وسط المنزل في أرضها بساط عليه تراب من أثر المشى وأوراق مبعثرة من أثر النهب والى جوانبه وسائد فأشار الى عبادة وميمونة بالجلوس وأمر سلمان ان يتبعه ودخل من باب في صدر الغرفة الى حجرة وأغلقا الباب وتركوا السراج في الغرفة

فلما خلت ميمونة بجدهتها نظرت اليها فرأتها تلهث من التعب والعرق قد بلل خمارها وهي في حاجة الى الاستراحة فودت لو انها تنام فتغتم الفرصة لمحادثة بهزاد . فتشاعت عنها ولم تخاطبها في شيء فرأتها تكبو وتتشاءب من النعاس فقالت لها « توسدي ياسيدي واستريحي » ونهضت فأنتها بوسادتين استلقت عليهما وهي تقول « اذا خرج بهزاد أيقظيني » فقالت « سأفعل ذلك »

ولم تمض دقائق قليلة حتى نامت عبادة وشخرت وظلت ميمونة وحدها كأنها في بحر تتقاذفها أمواجه واستغرقت في التفكير عن سبب تتحلله لمخاطبة بهزاد

وهي في ذلك فتح باب الغرفة فاجفلت والتفتت فرأت بهزاد خارجاً وقد بدل ثيابه فالنظ برداء خفيف واعتم عمامة صغيرة . وخرج سلمان في أثره والمعول بيده فأشار الى سلمان بالخروج بمعوله فخرج وظل بهزاد واقفاً فوقفت ميمونة احتراماً له وهي مطرقة حياء وهياماً فألقى يده على كتفها وهو يقول « اجلسي يا ميمونة يا بقية البرامكة »

فلما سمعته يكتنحها بأهلها وهذه أول مرة أظهر انه يعرف نسبها خجلت وجلست وقد ارتج عليها . فبادر الى وسادة ثناها وأشار اليها ان تجلس عليها

وهو يقول « افعدي على هذه الوسادة يا ابنة جعفر »  
 فازدادت ميمونة استغراباً من هذا التصريح وتجلدت حتى لا تضيع هذه  
 الفرصة منها وقالت وهي مطرقة وقد توردت وجنتها « أراك تخاطبني بلقب  
 جديد »

فقال وهو يتناول وسادة اخرى ليقعد عليها « اني أخاطبك باسمك الحقيقي  
 وان كنت تحسبيني أجهله ... رحم الله جعفرأ وأحياه »  
 فرفعت بصرها اليه وقد ابرقت عينها بما غشيهما من ماء الحب وقالت  
 وصوتها يتقطع من شدة تأثرها وهي تحاول اخفاء ذلك بالابتسام « هل ترجو  
 قيامة الأموات في هذه الدنيا ؟ »

قال « ان لم يحيي بدنه فسيحيي ذكره . . ان جعفرأ لم يميت يا ميمونة لأن  
 الرشيد قتل بدنه ولا سلطان له على ما خلفه من الذكر الحميد . . »  
 فقالت وهي تتشاغل بتثنية طرف كعها وقد انقبضت نفسها عند ذكر مقتل  
 أبيها « اني أشكر احسانك ومجاملتك ياسيدي . فانك طالما أحسنت الينا وسترت  
 قفرتنا » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فلما رآها تبكي تفطر قلبه وكاد يبوح بما في نفسه ولكنه لم يكن يرى  
 التصريح بحبه في ذلك الحين فغالطها وقال « ان فضل جعفر وأحسانه شمل الملا  
 كافة وما من مسلم او غير مسلم الا وهو مدين له واذا وفينا بعض الدين فأى  
 فضل لنا »

فلم يعجبها هذا الجواب وهي انما كانت تتوقع ان يقول كلمة غير هذه . .  
 كانت ترجو أن تسمع منه كلمة الحب . . فخافت ان يكون ضميرها خانها  
 فتهتدت وسكتت وأرسلت يدها الى وجهها وأخذت تمسح عينيها باناملها .  
 فامسك معصمها ورفع يدها عن وجهها وقال وصوته يكاد يختنق « ما بالك  
 تبكين ؟ »

فقالت وهي لاتزال مطرقة وقد أحست بمجري كهربائي يجري من يده الى  
 كل عروقها « انى حزينه ياسيدي دعني افرح كرتي . . »  
 فقال « وما سبب حزنك . . ؟ »

قالت « تسألني عن حزني وانت تعلم سببه . وهل اتعس من فتاة يتيمة الابوين . تخاف ان يعرفها الناس ؟ . ان انتسائي الى جعفر بن يحيى وبقائى حية بين هؤلاء الاقوام من أكبر أسباب شقائى . قالت ذلك وجذبت يدها من يده وقد غصت بريقها

فاستأنف القبض على يدها وضغط عليها بين كفيه وهو يغالب حبه وقال « معاذ الله أن تكوني تعيسة كما تقولين »

فأولت اخراج يدها من بين يديه وهي تقول « بل أنا تعيسة . . وكيف لا أكون كذلك وقد عرفت الليلة أن . . » وتشاغلت بابتلاع ريقها وأمسكت عن الكلام ونظرت اليه فاذا هو يتفرس في عينيها ويتجاهل غرضها والهوى يكاد يشف عن سريره . ومخاطبة العيون أفصح من مخاطبة اللسان

العين تبدي الذي في قلب صاحبها من الشنأة أو حب اذا كانا

ان البغيض له عين يصدقها لا يستطيع لما في القلب كتمان

فالعين تنطق والافواه صامته حتى ترى من صميم القلب تبيان

فأدركت ميمونة من تلك النظرة ان بهزاد يحبها ولكنها أحبت أن تسمع ذلك من فيه لحولت نظرها عنه الى جدتها وكانت قد استغرقت في النوم وقد علا صوت غطيظها ثم أطرقت وسكتت فابتدرها قائلاً « كملى حديثك . قولى ما هو الذي عرفته الليلة يا ميمونة ؟ »

قالت « ان ذكره يؤلمني . . ودعني وشأني . . ولا أحب ان تهتم بي . . فانك في شاغل عن مثلي بما أنت فيه من المطالب الهامة . . فلا أريد ان أشغلك بما تحدثني به نفسي من احلام الصبي »

فقالت « لعلي مشتغل بمثل هذه الاحلام . . قولى . . »

فاستبشرت بقرب التصريح فرفعت بصرها ونظرت اليه نظرة عتاب وهيام وابتسمت والدمع يترقرق في عينيها وقالت « اعذرني يا سيدي على تطفلي وصغر نفسي . اني على يقين من خيبة أملى وحاشا لهزاد القائد العظيم ان يقع في ما وقعت فيه فان اشتغاله بجمع الاحزاب لقلب الدول واستنهاض الامم ينزهه عن الالتفات لفتاة مثلي . قد تفتضي مساعيه ان يدوس الجماجم ويقتل الثقات

فهل يبالي بقلب فتاة يقيمة مسكينة مثلي ؟ » وكانت يدها لا تزال بين يديه فاجتذبتها وغطت بها وجهها وأخذت في البكاء  
فلما سمع قولها ورأى بكاءها غلب عليه الهيام ولكنه تجلد وقال « وهل تريدان ان امسك عن السفر ؟ »  
فتهدت وقالت « آه .. حبذا ذلك .. ولكن ما الفائدة لي من بقائك .  
لا .. أنا أطمع بعدولك عن السفر ولكن .. » وسكتت  
فصاح فيها « ولكن ماذا ؟ قولي »

## الفصل الثامن والثلاثون

### أحبك بلا شرط

فمظم عليها صغر نفسها والتجاؤها الى الحيلة في استطلاع حبه لها فأطرقت وقد شق عليها تحيلها على تلك الصورة وشعرت بتقيد قلبها وحبس احساسها وعلمت انها انما سيقت الى ذلك من عظم حبها وخافت مع ذلك أن تسمع منه ما يوجب أملها . فغلبت عليها الانفة ونقمت على نفسها لتصاغرها الى هذا الحد فاسترجعت رشدها وعزمت على أميالها فظهر عليها الاتقياض وحدثتها نفسها ان تجافيه وتقطع الحديث فهضت وهمت بالخروج فامسكها بطرف ثوبها وقد استغرب نفورها فجأة وجذبها نحوه وهو يقول ويظهر العتاب « الى أين يا ميمونة ؟ »

فقالته وهي لا تلتفت اليه « دعني يابها زاد .. قالت ذلك وغطت بريقها وهي تحاول التملص من يده

فقال « اقعدي يا ميمونة لاسبيل الى الذهاب الآن .. فانك غريبة هنا ولا منزل لك تلجأين اليه »

فأثر قوله في نفسها وتذكرت مصائبها فوقفت وغطت عينيها بكفيها وأطلقت لنفسها عنان البكاء

فرق لها قلبه وسكت وقد كاد يخنق ووقع في حيرة وهو يتجلد في كتمان

إحساسه وقال كنت تريدن ان تقولى شيئاً . . . قولى «  
 فظلت واقفة وهى تغالب عواطفها وتحاول كتمان هيامها ولا تجد الى ذلك  
 سبيلاً وشعرت انها مغلوبة على أمرها وهيات أن تقوى على التجلد فاصطكت  
 ركبتيها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وهى تتشاغل بمسح عينيها بطرف  
 كمها ثم نظرت الى عينيه فرأت فيهما شيئاً يكاد ينطق بمكنونات قلبه فهمت  
 أن تصرح بما ترجوه منه فغلب عليها الحياء فاذا هو يتسم لها وعيناه تبرقان  
 وجداً وهياماً ومع ذلك مازالت خائفة من التصريح فظلت ساكنة  
 أما هو فاستأنف الكلام قائلاً « قولى يا ميمونة . . . قولى »  
 واختنق صوته

فنظرت اليه وقد احمرت عيناها وذبلت أجنانها فازدادتا سحراً وفتنة  
 وقالت « أراك تبالغ فى المجاملة . . . كفى يا سيدي . . . كفى استخفافاً بي . . .  
 قل انك لا يهكم أمرى وهذا يكفيك مؤونة الاهتمام بي . . . »  
 فقال « بل أمرك يهمنى كثيراً . الا يشعر قلبك بذلك ؟ أراك تتجاهلين  
 أكثر من تجاهلى أم انت لاقاب لك » واخشوشن صوته  
 فأبرقت أسرتها وحدثت فى عينيه كأنها تستطلع حقيقة ما يعنيه وابتسمت  
 والدمع يحول فى عينيها كما يضحك الطفل اذا منعه لعبة يطلبها ثم دفعها اليه  
 فجأة . . . وتجلدت والحياء يغالبها وقالت « يهكم أمرى كثيراً . . . كثيراً قل  
 اذاً انك . . . »

ففهم مرادها لكنه أظهر انه لم يفهم فقال « ماذا أقول يا ميمونة قولى  
 أنت أولاً . . . »

فقال « وهل تحتاج حالى الى قول وهذه دموعي تقول عني ققل انت . . .  
 قل بالله انك تحبني . . . أو دعني وشأني » قالت ذلك وحوات وجهها عنه وهى  
 تكاد تختنق من تضارب الحب والحجل وخوف الفشل  
 فلم يعد بهزاد يستطيع إمساك هواه ولكنه تراجع وفكر فيما هو فيه  
 من الامر الهام فخاف أن يحول ذلك التصريح دون مشروعه « ان ذلك  
 لا يحتاج الى تصريح . . . نعم إنى أحبك . . . »

فلما سمعت تصريحه غلب عليها السرور حتى كادت تضحك فغصت بالضحك كما كانت تغص بالبكاء وتساقت دموعها رغم ارادتها ولم تنالك أن صاحت « انك تحبني يا بهزاد ؟ .. تحبني ؟ .. أحقيقة ما اسمه أم وم ؟ أنا في يقظة أم في منام ؟ حبيبي بهزاد أنت تحبني ؟ »

فلما رأى لطفها تذكر ما يسببه فبدا الاهتمام في وجهه وقال « نعم إني .. » وتشاغل ببلع ريقه وحك ذقنه وسكت فخافت أن يكون قد ندم على ما قاله فبظرت إليه وقد امتزجت في عينيها ملامح الخوف والرجاء وقالت « مالك ؟ أراك تردد .. ماذا جرى .. الا تحبني ؟ »

قال « بل احبك ولكن .. »

قالت « ولكن ماذا ؟ »

قال « ولكن اسمحي لي ان اقول شيئاً آخر .. »

قالت وقد باتت الوجع في عيناها « اما وقد قلت انك تحبني فقل بعد ذلك ماشئت .. » ثم قالت « لا .. لا .. لا تحمل .. لا تقل .. أخاف ان تهددني بالفراق .. »

قال « لا أهددك به ولكنه شرط من شروط حبك .. »

فنظرت إليه شزراً وقلبها يختلج وفي عينيها امارات العتاب وقالت بصوت خافت ناعم « اراك تشترط في الحب . وانا احبك بلا شرط » فأطرق خجلاً من ذلك التوبيخ اللطيف ثم رفع بصره اليها وقال صدقت .. الاخير في الحب اذا تقيد بشروط .. ولكنني اشترط امراً يعود لمصلحتك .. ائذني لي بذكره واطيعني فيه »

قالت « اني احببتك بلا شرط . ومن مقتضيات هذا الحب المطلق ان لا أضع عائقاً في طريق حبك فاشترط ماشئت »

وقال « قد علمت الآن اني مسافر .. فاذا سافرت فأنا المسافر في خدمتك .. وقد تحسبن انك عرفت حالي وهان عليك الحكم على مستقبلتي .. سمعت اني رسول من جماعة الخرمية .. إني لم اكذب ولكنني اكثر من ذلك

واقول بالأسف أنى لا أستطيع التمتع بهذا الحب الا بعد الانتقام فاذا بقيت حياً وعدت ظافراً فتلك هى السعادة ان اكون قد انتقمت لأبيك وللقتيال قبله والا فما انا قادر على مقاومة الاقدار ولا اجهد ان هذا الشرط صعب عليك بل هو ظلم منى ولكن لاخيرة فى الواقع «

قال ذلك ونهض وهو يقول « انهضى الآن الى فراشك »

فنهضت وقلبها يرقص طرباً وان ساءها فراقه وتأجيل الاقتران ولكن سرها سعيه فى الانتقام لوالدها على انها شغل ذهنها بما قاله عن نفسه من انه اكثر مما عرفت عنه فقالت فى نفسها من عساه ان يكون ولكنها لم تجسر على مراجعته او استفهامه فأطاعته وهمت بالذهاب الى الفراش . فأشار بهزاد الى باب تلك الغرفة يستطرق الى حجرة وحمل المصباح بيده ومشى بين يديها وهى تتبعه وافكارها تائهة فدخلت الحجرة وفيها سرير عليه فراش من جلد فوقه وسادة وغطاء وقال « هذا هو فراشك الليلة . » ورجع والمصباح فى يده ولم تمض هنيهة حتى توارت أشعة ذلك المصباح عنها فنزع الخمار ونامت

## الفصل التاسع والثلاثون

### الحفر

توسدت الفراش كما هى وتغطت واستولى السكوت على ذلك البيت الا شخير جدتها فانه مازال يشوش ذلك الهدوء وقد خيم الظلام . فلما حلت بنفسها عادت اليها هواجسها وتذكرت ما مر بها فى ذلك اليوم من الالهوال منذ كانت مختبئة فى الايوان الى أن اطمأن خاطرها وتحققت حبة بهزاد لها فانشرح صدرها ولكنها تنهت لأمر كانت شديدة الميل للاطلاع عليه وقد شغلت بمحدث العتاب — انتهت لذلك الصندوق ورغبتها فى معرفة ما فيه فعولت على اغتنام فرصة ثانية لاستطلاع

قضت ميمونة ساعة وساعتين وهى تتقلب على الفراش وأجفانها

لا تغمض لعظم تنبها على أثر ذلك الحديث رغم ما شعرت به من التعب البدني والعقلي . وطال أرقها حتى ملت الوساد وحدثتها نفسها أن تنهض ولكن الظلمة أقعدتها عن كل حركة فصبرت نفسها على ملازمة الفراش ريثما يطلع النهار

وهي في تلك الحال من الارق والقلق وقد زاداها السكوت وحشة سمعت حركة وراء الحائط فأصغت فإذا هي تسمع ضرب معول في الارض يخفق قلبها وظنت لأول وهلة أنها واهمة فتنصت فسمعت تهامساً فهضت مذعورة وتلقت الى جدران الحجره فرأت فوق سريرها نافذة صغيرة يبدو منها بصيص نور ضعيف . فأخرجت رأسها من النافذة فرأت خلاء بين البيت والسور على أرضه مصباح عرفت انه مصباح بهزاد ورأت رجلا طويلا قد حسر عن ساعديه وشر عن ساقيه وكشف رأسه ويده معول وامامه حفرة وقد اخذ ينش بمعوله وبين يديه رجل آخر عرفت حالا انه بهزاد وتفرست بصاحب المعول فإذا هو سلمان . فزادت دقات قلبها وارتعدت ركبناها وتعاطم ارتعاشها حتى كادت تسقط فتجلدت واسندت نفسها الى النافذة وهي تحاول الاختفاء لئلا يراها بهزاد . وتربصت فسمعت بهزاد يقول « لا بد ان يكون هنا . . احفر ايضاً »

فقال سلمان « اخاف أن تكون مخطئاً ، ياسيدي فقد اخرجنا تراباً كثيراً ولا اجد اثرراً للجثة »

فقال « لا . . لست مخطئاً . ألم يكن هنا ايوان سابور ؟ »

قال « بلى . »

قال « وقد أكد لي ذلك الشيخ الهرم ان المنصور كان يجلس في قاعة الايوان مكان هذا البيت وانهم دفنوا الجثة في بستان الايوان ولا يمكن ان يكون البستان في غير هذا الخلاء وقد نبشنا كل بقعة منه ولم يبق غير هذه . فاحفر »

قال « ليت ذلك الشيخ كان معنا الليلة فيهدينا الى . . »

قال « ألم اقل لك انه مات ونشكر الله لبقائه حيا حتى دلنا على المكان وهو

على ثقة من قوله لأنه كان في عهد المنصور شاباً واصابه مما شاهده تأثير عزن لم ينسه في عمره . احفر . اننا على هدى»

فعاد سلمان الى الضرب بمعوله وجرف التراب الى الخارج وهو يقول « انى لا أرى اثرأ للجة يامولاي »

وكان بهزاد في أثناء ذلك يتفرس بما يخرج من التراب ثم انحنى وقبض على قطعة من نسيج نفص التراب عنها وقال « اليست هذه قطعة من ذلك البساط ؟ »

فأمسك سلمان عن الحفر وتناول ذلك النسيج وقد تهرأ وتقطع وقال « بلى . بلى . . إنها جزء منه . . » وعاد الى الحفر بهمة ونشاط وميمونة تتفرس فيه وتستغرب حركاته

وبعد أن اشتغل برهة تعب وصار يلهث وتصيب العرق عن ساعديه ووجهه فوقف وأسند يده على المعول وتهد تنهداً شديداً فابتدره بهزاد قائلاً « أظنك تعبت ولكن لا بد لنا من انمام عملنا في هذه الليلة . هات المعول » ومد يده فتناول المعول وأخذ يشتغل بالحفر بسرعة ونشاط ولم يحفر هنيهة حتى سمعت ميمونة مصادمة المعول لجسم صلب كأنه أصاب حجراً ورأت بهزاد توقف عن الحفر ومد يده فاستخرج قطعة عظم مستطيلة وصاح « هذه ساقه أو نخذه . ابشر يا سلمان »

فتقدم سلمان ونزل الحفرة بنفسه وجعل يجرف التراب ويبحث فيه حتى عثر على شيء تناوله بين السبابة والابهام ودفعه الى بهزاد وقال « هذا خاتم »

فأخذ بهزاد الخاتم وتقدم نحو المصباح وتفرس فيه وقال « إنه خاتمه بعينه » قال « وكيف عرفت ذلك يا سيدي ؟ »

قال « ألا تذكر أنه واحسرتاه عليه لما استقدمه المنصور من خراسان أوصى كاتبه اذا جاء كتابه وعليه ختمه كاملاً لا يعمل به وانما يعمل بالكتاب اذا كان عليه نصف الختم فقط ؟ »

قال « بلى . . »

قال « انظر ان هذا الخاتم عليه اسمه وهو محو من أحد جانبيه . . فهو خاتمه وهذه هي ساقه فأبحث عن الجحمة »  
 فأخذ سلمان يحفر بيده ويخرج قطعاً من أقمشة متهرئة أو من عظام نخرة وأخيراً أخرج الجحمة وناولها الى بهزاد فنفض التراب عنها وقد بدا البشرى في وجهه يتخلله انقباض ثم امتنع لونه وقال « هذا هو رأسه . . هذا هو رأس المقتول ظلما . . انت عشورنا عليه يساوي نصف الخلافة واذا انتقمنا له فقد لنا الخلافة كلها » وما تمالك أن قبله وأكب سلمان عليه فقبله وأخذ يمسح التراب عنه بطرف ثوبه بلطف واحترام وبهزاد واقف ينظر الى الرأس وقد تغيرت سحته وتجلى الغضب على عينيه فابتدره سلمان وقال « أهنتك ياسيدي بما توقفت اليه فقد وقعت على ضالتك وكفى الآن . فاذا شئت رجعا الى المنزل للراحة فقد كان هذا الليل شاقاً عليك . . » قال ذلك وتحول نحو المصباح فجعله باحدى يديه والجحمة باليد الأخرى ومشى بهزاد في أثره وقد تولاه السكوت والغضب كأنه أصيب بمحمود

أما ميمونة فلما رأتهما تحولا نحو المنزل قدمت على فراشها وقد أنهكها التعب وزادت هواجسها وتهدت من الخروج الى بهزاد في تلك الساعة للاستفهام عن سر ما شاهدته وصبرت نفسها الى الصباح

قضت بقية ذلك الليل كأنها في بحر هائج ولم تغمض عينها الا قبيل الفجر فاستغرقت في النوم ولم تستيقظ حتى أيقظتها جدتها ففتحت عينها فرأت جدتها واقفة عند رأسها وهي تقول لها « قومي يا ميمونة اننا على أهبة السير »

## الفصل الأربعون

### الفراق

فنهضت مذعورة وندمت على استغراقها في النوم وتلثمت بخمارها واحتذت نعالها ومشيت في أثر جدتها حتى خرجتا من الدهليز فسمعت صبيلا

فالتفت فرأت بهزاد على جواده وقد تزلزل بعباءته وجعل الصندوق بين يديه على القربوس والتفت الى ميمونة وعبادة وأشار اليهما اشارة الوداع وأوماً الى سلمان قائلاً « اذهبا مع سلمان .. » وهمز جواده

فأحست ميمونة كأن قلبها قد نزع من مكانه وهمت أن تستوقف بهزاد فإذا هو قد ساق فرسه مسرعاً فبهتت وكاد الدم يجمد في عروقها ونسيت موقفها ولم تتذكر عن البكاء حتى انتهت واذا جدتها قد أمسكت بيدها وقالت « هلم بنا الى القارب فإنه في انتظارنا على الشاطئ .. وأما الطبيب فإنه سيوافينا في قصر المأمون »

فشت وقد تولتها الدهشة وعيناها شائعتان نحو بهزاد حتى تواري وجدتها لا تعلم بما يكنه قلبها أو لعلها علمت ببعض ذلك وتجاهلت رفقا بعواطفها خلافاً لعادة العجائز في حب الاستطلاع والبحث عن الاسباب وان كانت لاتهمن خصوصاً اذا لم يكن لمن ما يشغلن عن أمور الناس فانهن يجدن في الحديث عن الآخرين لذة . واذا توسمت إحداهن في جارتها شيئاً جديداً بذلت كل وسيلة في استطلاع كنهه . أما عبادة فقد ربيت في بيت رجل كبير وتعودت معاناة العظام ومشاهدة الغرائب وانقطعت لتربية ميمونة وتولت كفالتها ولازمته ملازمة الظل فهي لا تخاف أن تأتي أمراً يخالف . ولو لحظت فيها ميلاً الى رجل لا ترضاه لها ما سكنت عنها . وأما بهزاد فانها أكثر ميلاً منها اليه فأثرت السكوت حتى ترى ما يأتي به القدر

ساروا الهويناء نحو الشاطئ . وسلمان بلباسه الاصلى وقد التفت بعباءته وما زالوا سائرين حتى أقبلوا على دجلة فرأوا الحراقة في انتظارهم فركبوا فيها وأمروا الربان فأدار الدفة نحو بغداد وأرخى الشراع وجلست عبادة بجانب حفيدتها على مقعد في صدر الحراقة وكل منهما في هاجس . وجلس سلمان بجانب الربان وهو يتلفت نحو الشاطئ على الجانبين كأنه يراقب أمراً يتوقع حدوثه

ولم تصعد السفينة بهما ساعة حتى رأيا حراقة نازلة من جهة بغداد تشق عباب الماء وعليها علم عرف سلمان حالاً أنه علم الفضل بن الربيع وان

السفينة من سفنه فاختلج قلبه في صدره واسرع الى ميمونة وعبادة وأشار اليهما أن تنزلا عن المقعد وتستترا . فلما رأَت ميمونة إشارته ولهفته خافت ونزلت وعيناها تراعيان الحراقة التي دنت منهم وقد فرشت بالسجاد والوسائد . فرأوا فيها جماعة من الخدم وقوفا وفي صدر المجلس شاب جميل الحلقة عرفت عبادة حالا أنه ابن الفضل والتفتت الى ميمونة قرأتها تنظر اليه وحالما تحققت انقبضت نفسها وضائق حتى صارلون وجهها كلون التراب وأغضت بصرها وتشاغللت باصلاح خمارها

أما عبادة فنظرت الى سلمان كأنها تستطلع رأيه فاذا هو يتسم تشجيعا لها وقال بصوت منخفض « لا تخافي يا مولاتي ان هذا الغلام لا يتجرأ على أمر ونحن في حراقة مولاي المأمون »

فقال « وما الذي كان يفعله لو كنا في سواها ؟ »

قال « ربما أوقفها واستفهم عمن فيها لانه ذاهب الى المدائن للبحث عن . . . وأوما بعينه الى ميمونة

فقال « قبحه الله انه لا يزال على عزمه ؟ »

فقال وهو يتسم « وقد استشار النجمين واستكتبهم الارصاد التماسا لمحبتها فقالوا له إنها خرجت من المدائن فالظاهر أنه لم يصدق قولهم فذهب ليتحقق ذلك بنفسه . . . »

وسمعت ميمونة قول سلمان وتجاهلت حياء وأنفة ولكنها عجبت لاطلاع سلمان على خبرها مع ابن الفضل وتركت الكلام لجدتها فقالت هذه « خسيء النذل إنه لا ينال قلامة من ظفرها وأنا حية »

وكانت حراقة ابن الفضل قد حاذت حراقتهم ووقف بعض الخدم على حافها يتفرسون في ركبها فلم يقع نظرم على غير سلمان وهب أنهم رأوا غيره فان هية المأمون تمنعهم من التحرش بها

مرت حراقة ابن الفضل وميمونة ترتعد خوفاً وكرهاً فلما تجاوزتهم أراد سلمان أن يعث بالفتاة ليخفف ما بها فقال « أرى مولاتي كثيرة النفور من ابن الوزبر وهو يكاد يموت شغفاً بها . . . »

فرفعت نظرها اليه لتتحقق غرضه من ذلك الكلام فرأته يتسم  
فأمسكها الحياء عن الكلام فقالت جدتها « إننا لا نقدر على النظر الى هذا  
الشاب »

فقطع كلامها وقال « ولا الى أبيه »

وكانت عبادة تظن سلمان يجهل حقيقة حالها فلما سمعت ما قاله استغربته  
ورنت اليه كأنها تنكر عليه قوله فابتدرها قائلاً « يحق لك يا مولاتي أن  
تكرهيه وتكرهى أباه ولا تعجبي لاطلاعي على سبب هذا الكره فأني خليفة  
مولاي الطبيب في نصرتكما .. اركنا الى وثقا بي فأني خادم لكما . . . »  
فلما سمعت عبادة قوله توسمت الصديق في لهجته فاطمان بالها . وأما  
ميمونة فلما سمعت ذكر حبيبها تنهت لما هي فيه وقالت وهي تظهر السذاجة  
« ألعل الطبيب مسافر ؟ . . »

قال « نعم انه مسافر للبحث عن بعض العقاقير الطبية » وضحك  
فأدركت ميمونة انه يمازحها وهو لا شك عارف بأسرار مولاه فابتسمت  
وقد استأنست بمزاحه وارتاحت الى خفة روحه وقالت « هل تظنه مسافر  
قريباً ؟ »

فأجابها وهو يضحك « انك تسألين هذا السؤال قلقاً على مولاتنا  
بنت المأمون لانها لاترضى العلاج الا من يده . . بارك الله فيك . . نعم أظنه  
مسافراً قريباً والحق يقال اننا إن حتمنا بعمل يعمله فأنما نتكهن ونخاف أن  
يخطيء . ظننا لأنه يعمل مايعمله فجأة . . »

فقالت عبادة « يلوح لي انك تتجاهل يا سلمان فان الطبيب لا يخفى عنك  
شيئاً على ما يظهر . . وأنت تقول انك لا تعلم بوقت سفره »

فلما سمعها تتكلم بصيغة الجدل أراد أن يغالطها لئلا تعتمد على قوله فيكون  
قد باح بما يعنيه وإن كان لا يخاف عاقبة اطلاعها عليه فقال « إن مولاي  
الطبيب حريص على مقاصده ضنين بما يمكنه ضميره وهب انه ينوى سفره فهو  
لايكشفني به صريحاً فاعمله كاشفك بذلك يا مولاتي ؟ » قال ذلك ووجه كلامه  
إلى ميمونة

أما هذه فاحترست مما احترس منه وهب انهما لم تخف التصريح بما تعلمه  
فالحياء يمنعها من الخوض في هذا الشأن فاطرقت وتساعد الدم الى وجهها  
فتوردت وجتهاها فاكتمت سلسان بذلك وأراد تغيير الحديث فتحول نحو  
الربان وقال له « العلنا لا نزال بعيدين عن بغداد ؟ »

فاجابه وهو يشير باصبعه الى الامام « اليست هذه قصور كلواذة »  
فالتفت سلسان وتفرس في الأفق وقال « بلى إني أرى ابنية هذه البلدة  
عن بعد . . . فاذًا نحن على مقربة من دار السلام »  
قال « نحن على مقربة منها ولا نلبث أن نرى مأذنة جامع المنصور ثم  
نشرف على قصر مولانا »

ولما سمعت ميمونة ذكر القصر تذكرت دنانير وزينب وكيف ذهبت  
مهمتها من حيث استخدام بهزاد الطبيب عبثًا. وأخذت تفكر في ما تقوله لدنانير  
هل تجربها بحقيقة الحال أم تكتم ما اطلمت عليه . وهي تفكر في ذلك وإذا  
بسلسان يدنو نحوها باهتمام فلما اقترب منها قال وهو يوجه خطابه الى  
عبادة « لا يخفي على مولاتي ان ماشاهدناه الليلة من حال مولانا بهزاد  
يجب أن يبقى مكتومًا »

فقال عبادة « وماذا تقول لدنانير اذا سألتنا عنه ؟ »

قال « نقول اننا لم نجده في بيته »

فقال « حسنًا »

## الفصل الحادي والاربعون

### السفر

تركنا دنانير في صباح الامس بعد ذهاب عبادة وميمونة وهي قلقه  
على سلامة زينب تنتظر رجوعهما بالطبيب . فانتضى ذلك النهار وهي في  
انتظارهما على احر من الجمر . على ان الفتاة تحسنت حالها قبل انقضائه  
وبرحت الفراش وعادت الى اللعب كالعادة كأنها لم تكن تشكو مرضًا

وباتوا تلك الليلة وم يتوقعون رجوع عبادة وميمونة في الصباح فلما مضى نصف اليوم التالى ولم يأت أحد اشتغل بال دنانير وحسبت لذلك التأخير غير حساب . وفي اصيل ذلك اليوم جاء بعض الخدم ينبئها بقدوم الحرافقة . فخرجت لاستقبالها على المسناة فلم تر الطبيب فيها وبعد ان رحبت بعبادة وميمونة ورأت سلمان معهما سألتهم عن الطبيب فقال سلمان « إننا لم نقف له على خبر ألم يأت اليكم ؟ »

قالت « كلا . . ان أمره لعجيب . . أين ذهب ياترى ؟ »

فقال « لا أدري . . وهذه عادته في غيابه كأنه مشتغل بأمر خاصة لا

يعرفها احد وسأبحث عنه في بغداد »

وكانوا في أثناء الحديث قد دخلوا القصر فأنتهم زينب ووجهها مشرق لا بأس بها فقبلتها عبادة وميمونة وشغلاها عن الطبيب والسؤال عنه . وبعد ان استتب بهم المقام أظهر سلمان أنه ذاهب للبحث عن مولاه في بغداد وخرج ومكث اهل القصر في انتظاره

وعاد في اليوم التالى وهو يظهر الاهتمام وطلب مقابلة دنانير وكانت مع عبادة وميمونة في الحديقة فجاءها بعض الغلمان يقول « ان سلمان يرجو مقابلتك الآن اذا شئت »

فأسرعت وتركت رفيقتها في حيرة من أمر تلك الدعوة ولا سيما ميمونة فاضطرب بالها لما عساه أن يكون المراد منها

أما دنانير فلما لقيت سلمان تقدم اليها سرا وقال « انى وجدت مولاي الطبيب على الجسر وكان عازما على الحجىء اليك فلما رآنى عهد الى برسالة أبلغك اياها »

فقالت « وما هي ؟ »

قال « اخبرنى انه جاءه كتاب من مولانا المأمون يستقدمه اليه حالا . . »

فقطعت كلامه قائلة « من ولى العهد . وهل به بأس ؟ »

قال « كلا ولكنه أمره بالشخص الى مرو بلا سبب يعلمه . فأنا بنى

بإبلاغ ذلك اليكم وأمرني أن ابقى هنا تحت أمرك بما تريدن »

قالت « وهل يطول غيابه ؟ »

قال « لم يخبرني عن مدة الغياب »

فأطرقت حيناً وقد ساءها ذلك السفر السريع لأنها كانت تستأنس بهزاد وتعتمد عليه على الخصوص بشأن زينب كما علمت . فقالت « ساعه الله . . ولكن لعل له عذراً . . ما الذي حمل مولانا المأمون على استقدامه اليه بهذه العجلة ؟ » قالت وتحولت تطلب الرجوع الى الحديقة وهي تقول « فأنت تقيم عندنا الآن ؟ »

قال « لا استطيع الاقامة هنا ولكنني اتردد اليكم وقت الحاجة . كوني مطمئنة »

وعادت دنانير الى الحديقة فرأت ميمونة قد تركت جدتها جالسة في مكانها وتقدمت لملاقة دنانير وقد بدت اللهفة في حياها فلما رأتها تذكرت ما لحظته فيها من الميل الى بهزاد وعلمت ان خبر سفره يسؤوها فأرادت التظاهر بعدم الاكتراث وكتمان خبر سفره فرأتها تنظر اليها والحياء يمنعها من الاستفهام فأدرت مرادها فابتدريتها قائلة « ما بالك يا بنية . . لماذا تركت جدتك وحدها ؟ » قالت ذلك وألقت ذراعها على كتفها بتعجب فأحست بارتعاشها فقالت « كأنني أشعر بارتعاشك . . »

فرفعت ميمونة نظرها وفي وجهها ملامح الاستعطاف وقد اطمانت الى ملاحظتها فقالت « ما الذي أتانا به سلمان ؟ »

قالت « اتانا برسالة من الطبيب ؟ »

قالت « وما هي ؟ هل سافر ؟ »

فاستغربت دنانير صدق ظنها وارادت مداعبتها فقالت « وهل ذلك قلبك على سفره ! فقد قيل من القلب الى القلب دليل »

نفجبت الفتاة لتلك العبارة وهي الى تلك الساعة لم تشعر باطلاع دنانير على شيء مما يكنه قلبها . فلما سمعت هذا التلميح احمر وجهها وتشاغت باصلاح احدي ضفائر شعرها وقالت « لماذا تقولين ذلك يا خالة ؟ فانما همى الأمر

بالنظر الى مولانا بنت ولي العهد لعلى بتعلقها به . . . »  
 قالت وهي تبسم « بارك الله بمروءتك . واذا علمت انه سافر هل يسوؤك  
 سفره من اجل مولانا؟ »

قالت وهي تظهر السذاجة وقلة الاكتران « هل سافر حقيقة ؟ »  
 قالت « نعم سافر » قالت ذلك وتفرست في وجهها فرأت البغته ظاهرة  
 فيه وقد تحول احمرار الخجل الى صفرة الوجع فاستدركت بقولها « ولكنه  
 يعود قريباً . . لأن قلبه لا يطاوعه على الفراق »

فخافت ميمونة اذا ظلت بين يدي دنائير ان ينفضح امرها فتظاهرت  
 بما يدعو الى ذهابها وانصرفت تطلب غرقها لتخلو بنفسها فلقبها سلمان في  
 الدهليز . فلما وقع نظرها عليه بغتت وخفق قلبها وابتدرته قائلة « هل  
 سافر بهزاد حقيقة ؟ »

قال « نعم يا مولاتي »

قالت « الى أين ؟ »

قال « الى مرو في خراسان حيث يقيم مولانا المأمون . . »

فقالت « كيف سافر وتركنا ؟ . . » وغصت بريقها

فقال « قد تركنا جميعاً الا أنت وهذا كتابه اليك » قال ذلك ودفع اليها  
 منديلاً ملفوفاً فتناولته وعلمت من ملمسه ان في جوفه كتاباً فاشرق عيها  
 وخبأت المنديل في جيبيها وهمت بالانفراد في غرقها فاستوقفها سلمان قائلاً  
 « هل تحتاجين الى شيء آخر ؟ »

فخجلت له بجنتها واهماله فقالت « أشكرك يا سلمان . انى لا ألسى جميلك  
 وهل استغني عن مروءتك وقد قلت انه اوصاك بي فافعل بما تراه »

فقال « اني رهين اشارتك وساتردد اليك وأقوم بأوامرك »

قال ذلك ومضى

## الفصل الثاني والأربعون

### الكتاب

أما هي فأسرعت الى غرقتها وما صدقت أنها انفردت بنفسها فجلست على البساط وفتحت المنديل واستخرجت منه لفافة من الكاغد وكان الكاغد لا يزال قريب العهد بالاستعمال في المكتبات والفضل في ذلك لايها جعفر فانه أول من استخدمه في الدواوين بدل الجلود ففضت الكتاب وقرأته بلهفة فاذا فيه :

« من المحب الذي تسمونه بهزاد الى ميمونة بنت جعفر بن يحيى المقتول ظلماً »

« أما بعد فقد كنت عازماً أن اكتب اليك بلسان أجدادنا العظام لو كنت تفهمينه ولكن قضت ظروف الزمان ان تنقام بلسان أمة ظلمتنا وغلبتنا على أمرنا بالعدو والحياة فقتلت ره وساءنا واستخدمت قوادنا وحكامنا واستبدت في شؤوننا. وسيأتي يوم نقلب لهم فيه ظهر الحجر ونأخذ بالنار . فيعلم الظالمون أي منقلب ينقلبون . وكنت أحب أن أراك قبل سفري وأودعك مشافهة لولا خوفاً من أن يغلبني قلبي كما غلبني في اثناء ذلك الاجتماع ففضح سرراً كتمته عدة أعوام وكنت عازماً على كتابته حتى يأتي وقته فابوح به في يوم آتى به عملاً يؤهلني لحبك . ولكن أبيت الا أن أقول لك اني احبك فقلت وأقول اني احبك . . اني احبك يا ميمونة . . احبك حباً مبرحاً . . أقول ذلك الآن وانا لا احاذر ان يحول قولي دون ما عقدت النية عليه منذ عرفتك وقبل ان أعرفك . ولو كنت بين يديك ما قلت ذلك مخافة ان يغلب علي الغرام فاطيعك بل أطيع قلبي في البقاء عندك فاضيع سعياً قضيت العمر في تدييره . أما وانا في مأمن من ذلك فلا أبالي ان ابوح لك بمكنونات قلبي . . اعلمى يا منيتي اني اوقفت حياتي لك وللانتمام لوالدك وما أنا بهزاد ولا أنا طبيب ولا كهاوي ولا انا رسول من جماعة او جماعات وانما أنا

من ستعرفينه وتفتخرين بحبه . ولا اقول من انا حتى تأتي الساعة ودون الوصول اليها قطع الرقاب والاستهداف للحراب . انى ذاهب الى خراسان لا بدعوة من المأمون ولا بأمر احد من الناس وانما انا ذاهب لآتمام امر بدأت به ولا بد من اتمامه انى ذاهب طوعا لصراخ صاعد من أعماق القبور ينادى اهل النجدة أن ينتقموا للمظلوم من الظالم — واما الصندوق فقد كنت احب ان اريك ما يحويه ولكنني اشفتت على قلبك . وسافتح لك الصندوق كما فتحت لك قلبي ولكل اجل كتاب . اقيمى في بغداد في حراسة الله وقد اوصيت غلامى سلمان ان يقوم بخدمتك وهو امين صادق فاعتمدى عليه وثقي به واحتفظي بما اطلعت عليه حتى يأتيك النبأ الصحيح من خراسان يوم تنقلب الاحوال وينتصر الحق على الباطل واذا لم يسعدني الزمان بما ارجوه فاني اموت ناعم البال وقد فملت فعل الرجال . وغاية ما يستطيعه الانسان أن يجود بنفسه في نصره الحق . والله من وراء ذلك وهو على كل شيء قدير ، وما أنت على آخر الكتاب حتى امتقع لونها وتغيرت سحنها وكادت تسمع نبضات قلبها باذنها وقد خارت عزائمها وتوهمت نفسها في حلم ففركت عينيها . ولما تحققت يقظتها طوت الكتاب وخبأته في جيبها واستلقت على البساط واستغرقت في بحار المواجس فراجعت في مخيلتها خلاصة علاقتها بهزاد منذ عرفته بالمدائن وما كان من عنايته بها وبجودتها وكانت تحسبه يفعل ذلك رغبة في الاحسان وانه لا يعرف حقيقتها وقد ظهر لها من ذلك الكتاب أنه كان مشغوقاً بها عالقاً بحبها فندمت على ما أضاعته من الفرص بمكاشفته الغرام

على أنها تذكرت بعض ما جاء في كتابه من الوعود والاشارات فاشتقت الى تلاوته فاستخرجته وأعدت قراءته ثانية وثالثة وهي تعاذر أن يدهمها قدم أو يراها راء ثم سمعت خطوات قريبة فاخفت الكتاب واستلقت وهي تظهر الليل الى الرقاد ثم تباعدت الخطى وعاد السكوت فعادت الى هواجسها فراجعت ما ارتسم في ذهنها من عبارات حبيبها فرأت أنه معرض نفسه لخطر الموت فاختلج قلبها خوفاً عليه وفضلت رجوعه عن عزمه وبقائه معها تتمتع

برؤيته فلما تصورت عزمه على الانتقام لوادها هان عليها الفراق وتكبد مضض  
البعاد وخيل لها أنه سيعود ظافراً منصوراً فتفاخر به وتعوض عما قاسته من  
الذل والاستنار

## الفصل الثالث والأربعون

### الشاكري

على أنها تحيرت في أمره ومن عساه أن يكون إذا لم يكن بهزاد الطيب  
ولارسول الحرمية . ولما أعيها التفكير استسلمت الى التقدير وصبرت  
نفسها لترى ما تأتي به الايام ولما طال تفكيرها واستغرقت في هواجسها  
وهي مستقية غلب عليها النعاس وكادت تنام واذا بقارع يقرع الباب  
فنهضت وفتحته فرأت دنائير وحدها فرجت بها . فدخلت وهي تضحك  
فاظهرت ميمونة أنها كانت نائمة فقالت دنائير « مالي أراك منفردة يا بنية ؟ »  
قالت « استلقيت على هذا البساط لاستريح فشمعت بألم الرأس وغلب  
على النعاس »

فاظهرت أنها صدقتها وتحولت تريد الخروج وهي تقول « نامي يا حبيبتى  
تربيه في الحلم »

فاستغربت تعريضها وانكرت وقالت « وماذا تعنين ؟ »  
قالت وهي تلتفت نحوها « لا تخافي يا ميمونة . ان جدتك غائبة الآن  
فلا تكنمى . على ان تكتمك لا ينفعك وانا قهرمانه قد عانيت الزمان ولا فائدة  
من الكتان لاني قرأت الكتاب من عنوانه »

فتوهمت ميمونة أنها تشير الى ذلك الكتاب مع علمها أنها لم تره فقالت  
« وأي كتاب تعنين ؟ » وبدا الارتباك في وجهها  
قالت « لا أعني كتاباً مرقوماً » وتحولت نحوها يحملتها وقالت « وانما  
أعني ان دلائل الحب لا تخفي على أحد وقد عرفت حبك بهزاد من أول مقابلة  
ويسوؤني أنه سافر قبل ان ... وأومات بحفنها

نفجات ميمونة من ذلك الاعماء ولكنها سرت لبقاء الكتاب مكتوما  
عنها وهان عليها مكاشفة دنائير بجها وفي المكاشفة راحة للمحجين اذا وثقوا  
من كتبان حبهم فابتسمت واطرقت

فاستبشرت دنائير بقرب اقرارها وهي انما تلتبس ذلك منها لمشاركتها  
بالسعي في نيل مطلوبها فألقت يدها على كتفها وأشارت اليها أن تقعد فقعدت  
وقعدت ميمونة الى جانبها وهي تلاطفها وتهش لها لتجرئها على المكاشفة ثم  
قالت سامح الله طيبينا كيف سافر قبل ان يتم العقد... لا تحجلي يا ميمونة فانك  
تخبينه جبا طاهراً ولا شك انه يجبك ايضاً . وهو من خيرة الشبان لا حرمك  
الله منه ،

فتجرات ميمونة على الكلام وقالت « وهل الحب عيب يا خالة ؟ »  
قالت « معاذ الله .. ألم اقل ذلك .. ؟ فلا يصعب عليك فراقه فانه لا يلبث  
أن يعود فلا تجزعي »

فنهدت وسكتت والسرور باد في اسرتها ثم قالت « انى يتيمة مسكينة  
فلعل الله أشفق على ذلى وأراد تعزيتي وفي كل حال فانا لا غنى لى عن مساعدتك  
لانى في حماك وتحت رعايتك »

قالت « انك مولاتى وبنت مولاي ولا انسى فضل والدك رحمه الله  
فكونى على يقين أنى عون لك بكل ما أستطيعه وهذه مولاتنا زينب قد أحبتك  
واستأنست بك ... »

ولم تم كلامها حتى سمعت خطوات مسرعة نحو تلك الحجره وصوت امرتجفاً  
ينادي « أين مولاتنا القهرمانه ؟ »

فعلت دنائير أن بعض الغلمان جاء بهممة فصفقت جفاء الغلام حتى وقف  
بالباب وصاح « أأدخل ؟ »

فقالت « ادخل »

فدخل وقد علتة البفته وحيأ

فصاحت به « ماوراءك ؟ »

قال « ان شاكر يا بيب القصر يقول انه يحمل كتابا اليك »

قالت ، شاكرى ؟ وما شأن الشاكرية عندنا . انهم رسل الخليفة وليس  
في القصر رجال ... لعله غطىء برسالته »  
قال « قد أخبرته بذلك فقال انه يحمل رسالة الى قيصة القصر ، ومماك  
باصمك

قالت « اذهب وهات الرسالة لىرى لغواها ،  
طرح وظلت دنانير وقد استغربت الخبر أما ميمونة فارتبكت في امرها  
وخافت ان تكون الرسالة بشأنها أو لامر يسوؤها . ومن تتوالى عليه النواب  
انما يسبق الى ذهنه ما يسوءه ويقلب أن يصدق ضميره فيه

## الفصل الرابع والاربعون

### الكتاب

ولم تمض هنية حتى عاد الغلام وفي يده كتاب مختوم دفعه الى دنانير وخرج  
فنظرت في الختم قرأته ختم الفضل بن الربيع وزير الامين فتشاءمت من رؤيته  
واخذت في فضه ويدها ترتجف وادركت ميمونة بفتحها فاختلج قلبها ولبثت  
تنتظر ما يبدو منها . ففضت دنانير الكتاب واخذت تقرأ والدهشة بادية في  
عينها وميمونة تراقب حركاتها وتكاد تخطف الكتاب من يدها لتطلع على  
ما فيه ولكنها تجلدت وصبرت نفسها فرأت دنانير بعد ان فرغت من تلاوة  
الكتاب اعادت قراءته وقد ظهر الارتباك عليها ثم تحفزت للوقوف فلم تتمالك  
ميمونة عن أن امسكتها بيدها وصاحت بصوتها يرتجف « الى اين ؟ .. قولى  
لى أليس هذا الكتاب بشأنى ؟ انى ارى عليه ختم الفضل بن الربيع لارىب  
انه يتعلق بي .. »

قالت « واذا كان بشأنك فانه يخاطبني أنا .. »

قالت « إذا هو يتعلق بي .. قولى .. ماذا يريد منى .. وبلاه قولى ... »

فانتثرت دنانير منها ونهضت وهي تقول « لا علاقة له بك .. »

فتبعها وأمسكت بيدها وترامت عليها وقالت « اتوسل اليك ان تصدقني .. »

بأنه قولى ولا تخفى عني واعذري لهفتي ،  
 نخلصت يدها بلطف وقالت وقد بان الغضب بوجهها « ان هذا الرجل  
 قد بالغ في القحة . وتجاسر كثيراً . . . وكأنه اغتم غياب سيدي وحسب اننا  
 نخاف سطوته ونطيع أوامره . . قبحه الله »  
 فزادت ميمونة تأكداً ان الكتاب يتعلق بها فصاحت « مهما يكن من  
 غوى هذا الكتاب فاني احب الاطلاع عليه والامر لك في كل حال .. اطلعيني  
 عليه ولو كان فيه قتي بالله اطلعيني عليه »  
 فلم تردناير بدا من مسيرتها فدفعت الكتاب اليها فتناوله بيدها وهي  
 ترتجف وقرأته وهالك نصه

« من الفضل بن الربيع وزير أمير المؤمنين الى القهرمانة دنانير  
 » اتصل بأمر المؤمنين أن في قصر مولانا المأمون فتاة اسمها ميمونة جاءت  
 القصر من عهد قريب ويجب ان يراها ويسألها عن بعض الشؤون ويطلب سرعة  
 ارسالها مع الشاكري حامل هذا الكتاب ،  
 وما أتمت ميمونة تلاوة الكتاب حتى غشى الدمع عينيها وكاد الكتاب  
 يقع من اناملها لفرط ارتعاشها وصاحت « ويلاه ان حبلى تعاسني لا يزال  
 متصلا . . . ويلاه . . . ماذا افعل . . دعيني اخرج من هذا القصر ولا تتحملوا  
 غضب الخليفة من اجلي »

فأخذت دنانير تخفف عنها وقالت « لا بأس عليك . . لا تخرجي من  
 هنا . . ولا نسلك لاحد انك في ضيافتنا وجوارنا . كوني مطمئنة »  
 قالت ذلك وخرجت وظلت ميمونة وحدها . ولما صارت دنانير في الدهليز  
 صفقت بجاء الغلام فقالت « قل للشاكري ان يذهب ولا جواب عندنا على  
 الرسالة . . . »

ورجعت الى ميمونة وهي ترتجف من الغضب فوقعت ميمونة في حيرة  
 وأخذت تندب حظها ودنانير تطمئنئها وتخفف عنها . وهما في ذلك اتت عبادة  
 وهي خالية الذهن من الامر فلما رأتهما في تلك الحال قالت « ما بالكما . .  
 ماذا جرى ؟ »

فابتدرتها ميمونة قائلة « هلم نخرج من هذا القصر لئلا نكون سبباً في غضب الخليفة على أهله . . . » قالت ذلك وهمت بالخروج فاستغربت عبادة قولها وقالت « لماذا ؟ . . ماذا حدث في هذه الساعة ؟ » قالت ميمونة « ان وزير السوء كتب في طلبي وزعم أن أمير المؤمنين يجب أن يسألني عن بعض الشؤون . . . » فاطرقت عبادة وفكرت هنية وقالت « قد علمت السبب في ذلك . ان هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من أمير المؤمنين وإنما كتبه الفضل لغرض في نفسه أنا أعلمه وأظنكما تعلمانه أيضاً . والاحسن أن نخرج من هذا القصر قبل أن يتفاقم الخطب ويحدث ما لا تحمد عقباه بسببنا » فصاحت دنانير « انكما في ضيافتنا ولا تخرجان مطلقاً . . أيجسر هذا الوغد على أضياف ولي العهد . . حاشا لله أن تخرجا على هذه الصورة » وتذكرت ميمونة سلمان وشعرت بافتقارها الى رأيه فقالت « وأين سلمان الآن . فقد زعم ان بهزاد أوصاه بنا . . » فلما سمعت دنانير اسم سلمان هدأ روعها واسترجعت رشدها وقالت « إذا جاء سلمان شاورناه في الامر فانه خير . ونرى ما يكون »

## الفصل الخامس والأربعون

### مجلس الفضل

أما سلمان فانه رجع من قصر السأمون في ذلك الصباح الى مخدعه فغير هندامه وجعل نفسه الملقان سعدون وسار حتى دخل مدينة المنصور وتوجه الى قصر باب الذهب وهو يتوكأ على عكازه ويسرح لحيته وقد تأبط كتابه ومشى يلتمس المنزل الذي أعد له في أثناء اقامته هناك بأمر الامين . فدخل حجرتة وتظاهر باستغراقه في المطالعة والاهتمام بكشف أمر أهمه . ظل في ذلك الى العصر وهو يتوقع من يأتيه في استفتاء أو استطلاع لعله ان الجواسيس والعيون مبسوثة بالابواب ينقلون خبر القادمين والذاهبين الى صاحب الشرطة سرّاً

وهو في ذلك سمع وقع حوافر جواد يقترب من حجرته فاصاح باذنيه فسمع الراكب يتحول ويخطو نحو بابه مسرعاً فادرك من رائحة الطيب التي فاحت انه ابن الفضل وعلم من سرعة خطوه انه جاء متلهفاً فظل جالساً حتى قرع الباب فنهض وفتح له واستقبله بفتور واستخفاف على غير عادته فتهيب ابن الفضل من رؤيته لما سبق الى ذهنه من اقتداره على استطلاع الغيب خياها وهو يتسم وقال « كيف حال المملكان سعدون اليوم ؟ »

فاجابه بالاشارة أن يدخل ويجلس وظل ساكناً

فابتدريه ابن الفضل قائلاً « ما بالك ياملكان ؟ مالي أراك غاضباً »

قال « تفضل يا ابن الوزير واجلس . . من انا وما هو غضبي ولكني رأيت أهل هذا الجيل لا يلبق بهم غير الخداع والكذب ، قال ذلك وأشار الى ابن الفضل أن يجلس

فقال ابن الفضل « لاجابة بي الى الجلاس . اني لم آتک لامر يهمني وانما أدعوك لمقابلة والدي »

قال « اذا كان والدك يسيء الظن بي ولا يصدق قولي كما فعلت أنت فلا فائدة له من سماع كلامي »

فاستغرب ابن الفضل تعريضه به وعلم أنه يشير الى ذهابه للبحث عن ميمونة في المدائن بعد ان اكد له سعدون أنها خرجت منها ولكنه تجاهل وقال « ما هذا التعريض والتلميح وأى متي أسأت الظن بك ؟ »

قال « أظنك تحملت المشقة في الذهاب الى المدائن لانك صدقت قولي انها خرجت منها ؟ . هل وجدتها هناك ؟ »

فجعل ابن الفضل وغلب على حجته ولكنه غير الحديث وقال « سنعود الى هذا الشأن في فرصة أخرى . . والآن تفضل الى والدي فانه سيسألك عن أمر هام يتعلق بالدولة والخلافة . . »

ففهم من هذه العبارة على سذاجة قائلهما ما يغنيه عن بحث طويل وقال « اني رهين اشارة الوزير . . أين هو الآن ؟ »

قال « هو في قاعة صاحب الشرطة بهذا القصر »

فشي سعدون الى نعاله وشدها بقدميه وتأبط كتابه وقبض على عكازه  
 وخرج في أثر ابن الفضل وهو يفكر في ما عساه أن يسمع من الاسئلة وان  
 كان قد أدرك ان الغرض الاول السؤال عن بهزاد . استتج ذلك من القرائن  
 الجارية ومن قول ابن الفضل ان أباه سيسأله عن امر يتعلق بالدولة . ولكنه  
 كان يهاب الفضل ويخاف فراسته ودهاهه ولا سبيا بعد ان رآه مطاعاً على خبر  
 بهزاد ومجيئه الى بغداد وأمر بالقبض عليه ففشل . فسار سعدون في أثر ابن  
 الفضل وهو مطرق يتمم ولم يكن يخاف ابن ماهان صاحب الشرطة لعله  
 يضعفه واغتراره بنفسه

وبعد هنية وصلا الى مجلس صاحب الشرطة فدخل ابن الفضل بلا  
 استئذان وظل الملقان سعدون واقفا . فلما وصل ابن الفضل الى القاعة ناداه  
 فدخل فرأى الفضل متكئاً في صدر القاعة على وسادة كبيرة وقد اقطب حاجبيه  
 وظهر الاهتمام في وجهه ويده مذبة يذب بها عن وجهه وكتفيه ولا هوام  
 هناك وانما كان يتشاغل بذلك لما تراحم في خاطره من المشاغل الهامة وابن  
 ماهان جالس بجانبه على وسادة وقد أرسل لحيته على عرض صدره وبالغ في  
 صبغها بالحناء فجاءت شديدة الحمرة ومع طعنه في السن مازال ينكر على نفسه  
 عدد سنن عمره ويغالب الشيخوخة فقدم مقعناً وفي وسعه أن يتكلم بين  
 يدي الفضل على غير كلفة وانما خاف أن يعد ذلك منه عجزاً وهرماً

فلما دخل ابن الفضل لم يتحرك أبوه من متكئه وانما وجهه بصره الى سعدون  
 وقال « هذا هو الملقان سعدون ! أظنني رأيتك بالامس هنا ؟ »

فقال نعم « يا أبتى . . وهو رئيس المنجمين في دار مولانا الامين »  
 ف اشار اليه أن يقعد وهو مطرق يتظاهر بالسذاجة وقلبه يخفق تهيماً  
 من الفضل بعد تلك المقابلة الباردة ( ويكاد المرعب يقول خذوني ) على انه  
 تمالك وهدأ روعه وتشاغل بتسوية المنديل الحريري حول كتابه الممهود . ولم  
 يمهله الفضل أن جلس حتى سأله « أعلك رئيس المنجمين ؟ »

قال « هكذا يقولون يا مولاي ولكني لا أستحق هذا اللقب »  
 قال « يظهر انك أهل لأكثر من ذلك لما بلغني من أخي صاحب الشرطة

وابني هذا عن مقدرتك العجيبة على استطلاع الخبآت . . .  
قال « اذا ظهر ما يعجب فالفضل فيه لهذا الكتاب ولما تلقيته من القواعد  
الحقة التي يستعان بها في كشف الغوامض . فانا أقول ما يظهر لي أو ياتي الي  
وقد أتلو العبارة وأنا لا أفهم معناها »

فالتفت الفضل الى ابن ماهان كأنه يستطلع رأيه في ذلك فاجابه هذا  
باشارة حاجيه وجيئنه مصداقاً لما قيل كل التصديق . فابتسم الفضل ابتسامة  
تشف عن ارتياب وقال « أنا أجربه وعند الامتحان يكرم للمرء أو يهان .  
هل أنت مجيب لما أسألك عنه ؟ »

فرفع الملقان رأسه نحو الفضل وبصره متجه الى المذبة يتحرك بحركتها  
كأنه يظهر التهيّب من النظر الى وجهه وقال « أسأل ماتريد وإنما العلم عند  
الله فاذا فتع على بشيء قلته والا اعترفت بعجزتي فلا حياء ولا خوف . . . تلك  
عادتي وذلك هو شأنى . . . »

فلما قال ذلك عقب ابن ماهان وابن الفضل على قوله معاً « تمام » لأنهما  
خبرا ذلك فيه

فاعتدل الفضل بمقعدده وقال « انى أسألك عن أمر هام يتعاق بالخلافة  
فاصدقني خبره كما تراه . . . ولا تظنني أسألك عن أمر أجهله ولكنني أختبر  
معرفتك . . . »

فابتسم الملقان ابتسام الاستعطاف وقال « اذا كنت في ريب من صدقي  
فلاولى اطلاق سبيلي فاني . . . »

فقطع الفضل قوله قائلاً « لا . . . لا أطلق سبيلك قبل أن أختبر صدقك  
أو خداعك . . . فاذا كنت من أهل العلم الصحيح قل لي عما أضمره »

فلما سمع سعدون جفاء عبارته خافه فعمد الى الملاينة وقال « الامر لمولاي  
في ذلك وله أن يطلق سراحي أو يقيدنى أو يقتلني أو يفعل بي ما يشاء  
بلا اختبار »

فاحس ابن ماهان باستياء سعدون من تلك العبارة فقال « لا يريد الوزير  
بك الا خيراً واسكنه تعود أن يرى في بلاط الخليفة جماعة من النجمين الدجالين

ولما قلنا له عن عمالك وفضلك أحب اختبارك . . . فقل مايدو لك من  
أمر الخلافة ،

## الفصل السادس والأربعون

### التنجيم

ففتح الكتاب وأخذ قلب فيه وبتمتم ويطرق وم سكوت ينتظرون  
مايدو منه الى أن قال وهو يوجه خطابه الى ابن ماهان « ألم أخبرك عن أمر  
الخلافة قبل أن يعرف أحد بخبرها ؟ »  
قال « بلى ولكن المراد أن نعرف أعداءنا وما عساه أن يكون  
من أمرم »

فماد الى التفتيش في الكتاب وهو يقرأ حتى بدا التعب في وجهه وتصبب  
العرق من جبينه فاستخرج من كفه قطعة بخور مضغها في فيه وأشار أن يعطوه  
قدحا فيه ماء ووعاء فيه نار فأتوه بموقد صغير من النحاس كالمبخرة وضعوه  
بين يديه فالتقى قطعة البخور في النار وتناول القدح وأخذ يفرس في الماء  
تفرس الحائف من امر يطرأ عليه ثم صاح بغتة « الى المدائن . . . في قصر  
شاهور ؟ »

وكرر التفرس في الماء جيدا وهو يقول « اليس هذا قصر شاهور . . .  
ومن سكن فيه ؟ » وسكت وهو يختلس النظر الى سامعيه ليرى هل هم يضمرون  
بهزاد فرأى ابن ماهان يشير بالاعجاب فلم انه أصاب ولكنه تظاهر بالتعب  
فالتقى القدح من يده وتناول منديله واخذ يمسح العرق من جبينه وهو ساكت  
فقال له الفضل « وماذا جرى في ذلك القصر ؟ »

فالتقى في النار بخورا وأعاد النظر في القدح وقال « انى ارى جندا وعبارين  
نزلوا من المراكب الى البر مسرعين . . . دخلوا ذلك القصر »  
فقال الفضل « ثم ماذا . . . »

قال « ذهب التعب سدى يا مولاي لأنهم لم يجدوه في البيت . . . »

فأبرقت اسرة الفضل ولكنه ما زال يظهر الاهتمام وقال « بارك الله فيك  
قد عرفت ما في نفسى فاعلم انى أطلب الرجل الذى كان يقيم في ذلك القصر هل  
تعرف اسمه ؟ »

فأطرق كأنه يراجع امرأً ألقى اليه ثم قال « يسمونه بهزاد الطبيب  
الخراسانى . . . »

فلم يتألك الفضل عن اظهار الاعجاب فقال « هو الذى اطلبه . . . أين هو  
الآن . . . ابعث لنا عن مكانه . . . »

فعاد الى الكتاب وقلبه وبخر ونظر في القدح قليلاً ثم وضع القدح من  
يده وصفق وقال وهو يشير بيده الى خارج بغداد « هو خارج بغداد على  
جواده في صحراء بعيدة وعليه لباس السفر »

فصاح الفضل « هرب . . . هرب الخراسانى للمعون . . . وهل رأيت  
خادمه ؟ »

فأعاد نظره إلى القدح وقال « لا أرى معه أحداً »

قال « وهل عرفت بالتنجيم شيئاً عن خادمه أو رفيقه . . . »

فعلم سلمان أنه يعنيه لان الذى أطلع الفضل على خبر بهزاد ذكر رفيقه  
وانهما جاءا معاً لمهمة سرية من خراسان الى بغداد . سمع الفضل ذلك في  
خراسان فلما دخل بغداد أمر بالقبض عليهما فلم يظفر بهما . وقد علم سلمان  
باطلاع الفضل على خبرهما وارساله الجند للقبض عليهما وساعده ذلك على انقاذ  
بهزاد كما رأيت فلما سأله الفضل عن رفيق بهزاد تجاهل وقال « علمت أن له  
رفيقاً يسمونه سلمان . . . »

قال « نعم سلمان . . . أين هو الآن . . . ؟ »

فلما بلغ السؤال الى هذا الحد اضطربت جوارحه ولكنه لم يردأ من  
التجد فقال وهو ينظر في القدح ثم بتلفت يمناً ويسرة « انه في بغداد . . .  
وأظنه في مدينة النصور ولكنى أراه مستتراً وقد أقام بينه وبين المنجمين  
ستراً كثيراً ربما غلبت عليه وكشفته في فرصة أخرى »

فقال الفضل « ان بقاء سلمان هذا في بغداد غنيمة كبرى تعوض عن فرار رفيقه وقد بلغني أن سلمان هذا يتزيا كل يوم بزى جديد ويتظاهر بقيافة جديدة .. »

فقال « ولهذا السبب ظهر لي بهذا المندل مستتراً ولكنه لا يخفى على الملقان سعدون ولو تمنطق بالنجوم وتعمم بالشمس واتعل القمر . والامور مرهونة بأوقاتها »

ثم رأى أن يغتم هذه الفرصة لنيل البغية التي يسعى اليها أعداء العباسيين فقال « وهل يظن مولاي أن فرار بهزاد خير من بقاءه هنا ؟ . »  
قال « ان فراره منجاة له من أيدينا وكأنك ترى غير ذلك ؟ »  
ففتح الكتاب وقلب صفحتين وقرأ ثم قال لكنه ذاهب لنصرة رجل كبير في خراسان

فادرك الفضل أنه يعني المأمون فقال وما الفائدة من نصرته وهو بعيد قال أرى ذلك الرجل الكبير صاحب سلطان خوله إياه أمير المؤمنين يخشى أن يحاربه به إن لم يتلاف أمره ويقص جناحيه « وقد أراد سلمان أن يعرض الفضل على خلع المأمون ليتسع الحرق بين الاخوين فتسنع الفرصة للطامعين

فادرك الفضل إشارته فالتفت الى ابن ماهان فرآه ينظر اليه مثل نظرتة فتفاهما وعولا على تحريض الامين على خلع أخيه والفضل أكثرها رغبة في ذلك لما يعلمه من حقد المأمون عليه لماعيه ضده ولكنه تجاهل وأراد تغيير الحديث فقال بورك فيك يا ملقان . . . والتفت الى ابنه وقال لقد أسأنا الى رئيس المنجمين وأسأنا الظن به وأخشى أن نكون قد فرطنا في الامر . . . »

فقال ابن الفضل « كنت واثقاً بالملقان ولكنك حملتني على الشك به حتى فعلنا ما فعلناه . . . »

ولم يكن الملقان عالمًا بما فعله الفضل من مكاتبة دنانير بشأن ميمونة فنظر الى الفضل وقال « أرجو ان لا يكون في ما فعلتموه ضرر »

فقال « إنما أسأت بك الظن لما رأيته من انكار المكان الذي تقيم فيه تلك الفتاة ثم علمنا من جواسيسنا أنها في قصر المأمون فكتبت الى قهرمانته أطلب ارسالها الينا فاساءت الجواب وردت الرسول خائباً فارسلنا اليها جنداً يأتون بها قهراً . . . »

فشق على سلمان ما قد يصيب الفتاة من الاذى ولكنه تجاهل وقال « لم أنكر على مولانا ( وأشار الى ابن الفضل ) مكانها ولكنني قلت له إنها خرجت من المدائن ولم تكن نزلت ذلك القصر بعد ولو سألتني بعد نزولها لأخبرته بمكانها وكنت عازماً على أن احملها اليه بالحسنى فاستعين على ذلك بهذا الكتاب فليته لم يستعجل » قال ذلك وقد ساء ما توسمه من الغلظة التي استخدموها في هذا السبيل . . . »

فقال الفضل « ان قهرمانه القصر أساءت الأدب في رد الشاكري ولعلها لا تعلم أن تلك الفتاة مغضوب عليها وعلى كل أهلها وانما أردنا تشریفها واستبقاء حياتها لأنها وقمت من ولدي هذا موقع الاستحسان »

## الفصل السابع والأربعون

### مجلس الامين

وم في ذلك جاء الحاجب وقال « إن رسول الوزير بالباب »  
فقال « يدخل » والتفت الى الحضور وقال « هذا رسولنا مع الجند الى قصر المأمون لنسمع ما جاء به »  
ثم دخل الغلام وهو من الشاكرية . وألقى التحية وتأدب . فقال له الفضل « ما وراءك ؟ »

قال « هل أقول ؟ »

قال « قل ... هل أنيتم بالفتاة ؟ »

قال « نعم ولكنها لم تأت وحدها »

قال « ومن جاء معها ؟ »

قال « جاءت معها مولاتنا أم حبيبة بنت ولي العهد ،  
فاجفل الفضل وقال « أعوذ بالله وكيف أتيتم بها ومن قال لكم ذلك ؟ »  
قال « لم يقل أحد ولا نحن رضينا بمجيئها ولكنها جاءت رغم ارادتنا  
فتعلقت بالفتاة وتمسكت باثوابها وقالت ان تأخذوها نخذوني معها »  
قال « إنا لله وإنا اليه راجعون .. ألم يكن في وسعكم اجتناب مجيئها . »  
قال « كلا يا مولاي لأنها تعلقت بالفتاة ولم تبال باقوالنا وتهديدنا حتى  
حدثتنا أنفسنا ان نرجع خائبين فأتيننا بالاثنتين ومعهما القهرمانة دنانير »  
قال « ودنانير أيضاً . »

قال « نعم ياسيدي وعرضت نفسها للقتل وقالت انها تفضل الموت على تسليم  
ضيفتها فأتيننا بالثلاث معاً »  
قال « وأين هن الآن ؟ »

قال « هنا في دار النساء وأم حبيبة تطلب مقابلة عمها الخليفة ،  
فتغير وجه الفضل عند ذلك لدخول المسألة في مركز حرج ولكنه كان  
واثقاً بتسلطه على إرادة الامين ولا سيما اذا أطلعه على سر الفتاة وانها بنت جعفر  
الوزير وانه إنما أراد القبض عليها ليقدمها للامين يرى رأيه فيها . فنهض وهم  
بالخروج ثم تحول الى ابن ماهان وقال « صدق من قال إن في العجلة ندامة  
ولو اطعنا الملقان ما وصلنا الى هذا المشكل ولكن لا بأس » والتفت الى سعدون  
وأشار مودعاً وكان الملقان قد وقف فاحى رأسه شاكرًا واطمأن على ميمونة  
لمجيء أم حبيبة معها إذ يطلع الأمين على امرها ويحتفظ بها اكراماً لبنت أخيه  
وتنجو من ابن الفضل ثم خرج من المجلس وقد غابت الشمس وأضيت الشموع  
الكبيرة المشهورة بشموع محمد الامين

وكان الامين ساعتئذ مختلياً بمغنيه وندمائه في مجلس غناء هو عبارة عن  
ايوان كبير بين قاعات القصر في وسطه بركة يتدفق فيها الماء من أنابيب بشكل  
رموس الشعابن وحوها أغراس الرياحين ومقاعد الجلساء والمغنين . وقد قام  
الوصفاء من الخصيان بخدمته وفيهم السقاة وعليهم الالبسة الثمينة الباهرة بزي

الجوارى وقد ارسلوا شعورهم جدائل مفردة ومزدوجة وفي أيدي بعضهم الدفوف أو المزاهر أو العيدان يدقون ويغنون . غير الجوارى الحسان بالبسة الغلمان مما أهدته اليه والدته زبيدة أم جعفر . وكان الامين يغالى في اقتناء الحصيان من أقاصي البلاد وينفق في استجلابهم الاموال حتى صيرم لخلويه ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه (١)

وكان في ذلك المساء بلباس المنادمة وهو غلالة صفراء مصقولة صقلا شديداً وعل رأسه عمامة خفيفة وقد جلس على سرير من الآبنوس المنزل بالعاج وبين يديه مائدة عليها أنواع الاطعمة والاشربة والرياحين وقد فاحت رائحة المسك وغيره من الاطياب حتى ملأت الفضاء

وبينما هو في مجلسه هذا أنبأ الحاجب « ان ابنة ولى المهدي الباب ، فبغت وظن مخبره واهماً فاستفهمه قائلاً « ابنة اخي . »  
قال « نعم يا مولاي »

فتحير في أمره ولم يدرك بماذا يجب إذ يعز عليه أن تقابله ابنة أخيه وهو في مجلس الشراب على تلك الصورة : ولم يكن سلطانه وقوة بطشه ليمعنا خجله من فتاة صغيرة يسترضيها الناس بتفاحة أو لعبة - لأن سلطان الأدب والحشمة أغلب على النفس من سلطان السياسة والشدة ولذلك كان الادب قوة ولأديب النفس هبة يجلبها العقلاء وغير العقلاء وصاحب الرذيلة مهما عظم سلطانه وان استغرق في المنكرات لا يزال في ضميره بقية من احترام الفضيلة وأهلها . ألا ترى أرباب المعاصي وان تساهلوا في ارتكابها يستنكفون من أن ينتسبوا اليها أو يقال انهم من أهلها فهم اذلاء وان عزوا ويغلب عليهم الجبن في موقف الانسانية وان كانوا أبطالا في مواقف القتال أو على سدة الملك . ان مرتكب المعصية محكوم عليه بالمنذلة والضعفة من عند نفسه لاعتقاده أنه يخالف السنن الادبية فضلا عن الدينية وقد يكون سيداً مطلقاً لا سلطان عليه ولا يخشى حكماً ولا قصاصاً وربما كان معطلا لا يخاف عقاباً ولا يرجو ثواباً ولكنه يخاف شيئاً لا صورة له في الوجود - يخاف « ما قيل عنه وما يقال » وقد لا يضره ذلك ولا ينفعه

(١) راجع رواية العباسة أخت الرشيد صفحة ٦٢

ولكنه فطر على التماس حسن الاحدوثة وهي الشهرة ولولاها لكان الناس كالبهائم يأكلون وينامون - إلا من عصمهم دينهم وهم قليلون

فهذا الامين مع تهتكه وسكره وعلمه بمخالفة ذلك للشرع والعرف وكم نصحه الناس ولم يرعو فانه خجل أن يقابل ابنة أخيه وهي فتاة صغيرة حرصاً على كرامته . وما ذلك إلا لعلمه بطهارة قلبها وصفاء سريرتها - وللجنس اللطيف هبة في مثل هذا المقام

فلما أتىء باستئذانها عليه تردد بالأذن لها في الدخول وأكبر من الجهة الثانية أن يظهر خجله من مجلسه هذا وينهض لمقابلتها في غرفة أخرى وهو الخليفة صاحب السلطان الأكبر مالك رقاب العباد . ولا هو يستطيع من الجهة الثالثة ردها ولا عذر له في ذلك فغلب عليه اجابة طلبها فقال و تدخل ابنة أخينا ،

## الفصل الثامن والاربعون

### زينب ودنانير

وكان القدح بيده فوضعه على المائدة وتردى بالحشمة على قدر ما يستطيع الجالس هذا المجلس . فلما رأى جلاسه ذلك جنحوا الى التهييب وتولام السكوت وألقوا أدوات الشراب من أيديهم وأشار الامين الى الغلمان والجواري فتباعدوا واستولت الحشمة على تلك الجلسة وأصبح القوم سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير

فدخلت زينب وعليها مطرف من خز قد التفت به وخمار مزركش يكسو رأسها إلا بعض وجهها وقد اشرق ذلك الوجه حياة وتجلت فيه الطهارة وسلامة القلب . وفي طهارة الاطفال رونق للناظر وهيبة للمتأمل وعظة للعاقل - فيستدل علماء الاخلاق من ذلك على ما فطر عليه الانسان من الليل الى الخير وأنه انما يساق الى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع أو يمارسه

من اختلاف المشارب . وإذا أتى شراً انما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله -  
وقد يظهر أنه مهاجم متعدد ولو خصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت  
أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه

فالاطفال مثال الفطرة البشرية الساذجة لا يعرفون الكذب أو التملق أو  
الخداع . يقولون ما يعتقدون لا يخافون ولا يحاذرون ولا سيما اذا ربوا كما ربيت  
زينب على أيدي دنائير وقد تثقت واستنار عقلها على قدر ما يسمح به سنها  
وتعودت أن لا ترد ارادتها فلما رأت الجند يخالفونها في استبقاء ميمونة شق  
عليها اباؤهم وأكبرته ولما زجرت ارادتها بكنت وجاءت معهم كما تقدم فدخلت  
في تلك الساعة على عمها وقد أبرقت عينها وفيها أثر البكاء

فلما رآها الامين لم يتمالك أن يش لها ونهض لاستقبالها فلم يبق أحد من  
الحضور الا وقف تهيئاً ولم يروا بدءاً من تخلية المكان لينفرد الخليفة بابنة أخيه  
فخرجوا وغادروا المائدة وأباريقها وأقداحها وزهورها ورياحينها وقد تبعثرت  
قطع الفا كبة واقداح الشراب ومشور الازهار وقد اضاءت منائر الشمع في  
جوانب الايوان وود الامين لو تنطق لتخني تهتكه

فلما دنت زينب من عمها ترامت على ذراعيه وقد غلب عليها البكاء فضمها  
الى صدره وقبلها وهو يقول « لا بأس عليك يا ابنة أخي ماذا اصابك »  
أما هي لما لبثت أن شم رائحة الخمر في فيه حتى نظرت الى ما حولها نظر  
الاستغراب فاراد أن يلمبها عن الاستفهام فقال « ما بالك يا حبيبة ماذا تريدين ؟  
لماذا لم تدخلي دار النساء ؟ »

فقلت « قد كنت هناك وأحبيت أن أراك ولم أكن أعلم أنك على المائدة ،  
فسره أنها تحسبه مشغولاً بالطعام فقال « ألك حاجة نفضيها لك ؟ »  
قلت « نعم لي حاجة ... » والتفت نحو الباب وقالت « نعم لي حاجة ..  
أين دنائير ؟ .. هي تقص عليك خبري »

فتجلد الامين وهو يحسب لهذا المجيء الف حساب لما يعلمه من اساءته الى  
أبيها ولكنه استبعد أن تطلع هي على شيء من ذلك فتجاهل وقال « هل  
القهرمانه معك ؟ »

قالت « نعم كانت معي في دار النساء وقد ارادت ان لا افاجئك وانت في هذا المجلس » ثم نظرت في ما على الارض من الادوات وقالت « ارى مائدتك يا عماء تختلف عن مائدتنا أعل هذه مائدة الخلقاء » قالت ذلك بسذاجة واخلاص ولكن قولها اصاب قلب الامين لما حواه من التوبيخ الصريح عن غير عمد فقال « إنها مائدة بعض الاضياف كانوا عندنا الليلة . . . هلم بنا ندخل دار النساء » قال ذلك ولم يعد يصبر على البقاء هناك لكلا يسمع توبيخاً آخر فنهض وهو قابض بيدها وهي تتوكأ عليه حتى دخلا دار النساء الى قاعة مفروشة بالبسط والتمارق ليس فيها احد واجلسها إلى جانبه وهو مشتاق الى سماع شكواها ليطلع على جلية الخبر . ثم صفق لجأه غلام فقال « ادعو القهرمانه دنانير »

وبعد قليل دخلت دنانير وهي مطرقة وقد غطت رأسها بالنقاب وهمت بتقبيل يده ثم وقفت متأدبة فقال « ما الذي جاء بك يا دنانير ؟ » قالت « يسوؤنا اتنا ازعجنا امير المؤمنين وكدرنا عليه مجلسه ولكن سيدتي أم حبيبة أبت الا ان تجيء الليلة ولم استطع منها » فقال « وما الخبر ؟ »

قالت « ألم ترسل الينا في طلب ضيفتنا ؟ »

قال « وأي ضيفة تعنين ؟ »

قالت « ضيفتنا ميمونة »

قال « لم أفهم مرادك افسحى »

فادركت دنانير ان الفضل فعل ذلك من عند نفسه فقالت « نزلت عندنا منذ يومين فتاة غريبة اسمها ميمونة ألفتها سيدتي زينب وأحبها لجأني كتاب من الفضل وزيرك يطلبها باسمك فاعتذرت اني لا استطيع تسليمها لانها ضيفة ولها حق الجوار فارسل الينا جنداً ليأخذوها قسراً فلما رأته مولاتي اصراراً على اخذها تعلقت بها وابت إلا أن تأتي معها فلم استطع التخلي عنها جئت معها » فاطرق الامين وقد اكبر في الفضل انتحال اسمه بغير اذنه ولكنه تجلد وقال « من هي ميمونة هذه ؟ ألعلمها من موالينا ؟ »

قالت « هي فتاة يتيمة لا ملجأ لها ولا معين وقد يكون في قصر امير المؤمنين  
عشرات أو مئات أمثالها »

قال « وأين هي الآن ؟ »

قالت « هي في هذه الدار يا مولاي »

قال « استقدميها لأراها »

فلما خرجت دنانير كان الامين واضع يده على كتف زينب فضمها اليه  
تحميماً وقال « تحملت هذه المشقة من اجل هذه الجارية »

قالت « اني احبها يا عمها . . . لانها لطيفة وحلوة سترها الآن وقد قلت  
للجند ان يتركوها فابوا .. الا تريد ان تعطيني إياها ؟ »

فاستلطف الامين سداجتها ولطف تعبيرها وقال « سأفعل ما تريد  
طبي نفساً » وبعد قليل عادت دنانير وميمونة تتبعها وهي مطأطئة رأسها  
تذلاً وقد توردت وجنتاها وتكسرت اهداب عينيها من البكاء

فلما اقبلت عليه ترامت على قدميه وصاحت « اني جارية أمير المؤمنين »  
فلما رأى الامين جمالها أعجب بها ورق لبكائها فأمرها بالنهوض وهو  
يقول « لا بأس عليك يا بنية طالما كنت في ضيافة بنت أخينا ولك هذه المنزلة  
عندها . . . قومي » والتفت الى دنانير وقال « خذيها الى دار النساء وامكثوا  
الليلة عندنا ريثاً أنظر في أمرها . . . وانت يا زينب ضيفة علينا الليلة كوني  
مطمئنة اننا لا نردك طلباً »

فاستأنست الفتاة بعنقها وهي في معزل عن أحوال السياسة لا تعلم شيئاً مما  
جرى بعد وفاة جدها بين ابنه ولما رأت عمها يضمها ويبش لها تذكرت والدها  
فقالت « ومتى يأتي والدي يا عمها »

فلما سمع سؤالها انقبضت نفسه وقال « قريباً ان شاء الله » ولم يزد  
وكانها شعرت برغبته عن التوسع في هذا الموضوع وأمسكت ونظرت في  
الارض وهي لا تستطيع التعبير عن شعورها — وهو شأن النساء في احكامهن  
فانها مبنية على الاحساس بقطع النظر عن الحكم العقلي فان المرأة اذا سألتها  
عن عمل انت عازم على الشروع به هل هي تتوسم فيه النجاح أو تخاف الفشل

أجابتك عن رأيها واذا طالبتها بالدليل على صحتها قالت لا أستطيع برهانا ولكنني أشعر بذلك شعوراً داخلياً . ويغلب أن تصدق المرأة في شعورها كما يصدق الرجل بعقله على تفاوت في شعور النساء وعقول الرجال . فكما تتفاوت عقول الرجال قوة في الاستنتاج واستخراج الاحكام وتمييز الصحيح من الفاسد فكذلك يمتاز النساء في قوة هذا الشعور باختلاف ما فطرن عليه من دقة الاحساس وسلامة الذوق . ولا يكون هذا الشعور مستقلاً عن العقل ولكنه يغلب في المرأة كما يغلب العقل في الرجل — والرجل اذا جرد من ذلك الشعور كان ضربة على الانسانية لان الانسان يعامل عملاءه بالعقل ويعاشر أصدقاءه وأهله بالاحساس . ويتفاوت الاحساس في الناس فمن قل احساسه ساءت عشرته واستنقل الناس روحه وان كان رجيح العقل قوي الارادة . ولذلك رأيت جماعة من الاذكياء المجتهدين يستنقل الناس دمهم ويتجنبون معاشرتهم . ويكون ذلك عثرة في سبيل نجاحهم لأن الانسان يحتاج في اكتساب ثقة الناس الى شعور حي يجتذب به قلوبهم بحسن العشرة ووضع الشيء موضعه

وكانت زينب على صغر سنها كبيرة العقل دقيقة الشعور فلما سمعت جواب عمها مع خلوه من الدلائل على ما في خاطره شعرت بانقباض نفسها عن الحوض في هذا الشأن ونوسئلت وكانت مدركة ما استطاعت لتعليل انقباضها أما هو فأسرع الى قطع الحديث وصفق بجأه الغلام فقال « ادع لنا قيمة الجوارى »

فلما انت قال لها « خذي ابنة أختنا الى قصرنا واكرمي مشواها واحتفظي بالجارية ميمونة وعاملها مثل سائر جوارينا » والتفت الى زينب وقال « أظنك تحتاجين الى الراحة والطعام فكوني مطمئنة لا يكون الا ما تريدين » وربت على كتفها ووقف فوقفت واصطحبت القهرمانة إلى دار النساء

أما الامين فلما خلا بنفسه عاد الى التفكير في ما سمعه عن الفضل وكتابه الى بيت أخيه بشأن هذه الفتاة وأحب ان يستقدمه ليساله عن حقيقة الخبر

فاعترض ذهنه ما كان فيه من الانس قبل مجيء زينب فعاد الى مجلسه ولم يكذب  
يستقر فيه حتى تسرب اهله من كل صوب وعادوا الى الغناء والشرب والمنادمة  
وعاد الغلمان والجواري الى ما كانوا فيه

أما الفضل فقد تركناه خارجاً من مجلسه وهو يستعيز بالله مما آل اليه  
تسرع في طلب ميمونة وأخذ يهيم الاعذار للدفاع عن نفسه وهي كثيرة  
بما له من النفوذ والدالة على الامين وهو الذي أحله هذا المحل وأيده في الخلافة  
وليث ينتظر أن يدعوه الامين ويسأله

أما سعدون أو سلمان فانه مع تأسفه على وقوع ميمونة في قبضة الخليفة قد  
سره اغراء الفضل وابن ماهان على توسيع الحرق بين الامين وأخيه لان أصحاب  
المطامع السياسية لا يفهمون لغة القلوب ولا يباليون بحركاتها وانما يهمهم الوصول  
الى الغرض الذي يسعون نحوه واذا اعترضهم رأس أو قلب داسوه . على ان  
سلمان يعرف منزلة الفتاة من بهزاد وقد أوصاه بها خيراً فأصبح يهيمه التخفيف  
عنها والمحافظة على سلامتها حتى يرى ما تأتي به التقادير

## الفصل التاسع والاربعون

### الامين والفضل

وفي صباح اليوم التالي بعث الامين الى الفضل فجاءه في دار الخاصة فاجلسه  
الى جانبه وتلطف في الاستفهام عن أمر الفتاة فقال « لعل امير المؤمنين  
يستغرب جسارتى بطلب هذه الفتاة باسمه من بيت أخيه ولم أفعل ذلك الا  
اضطراباً وفي خدمة مصلحة الدولة . هل عرف أمير المؤمنين من هي  
هذه الفتاة ؟ »

قال « كلا »

قال « لو تأملها لرأى صورة أيها فيها . . . انها بنت جعفر الوزير السابق  
قتيل أمير المؤمنين الرشيد جزاء حياته . . . »

فبغت الامين ونظر الى الفضل باستغراب وقال « ابنة جعفر بن يحيى ؟ ..  
أظنك واحما »

قال « كلا يامولاي ولو سألتها ما أنكرت ذلك وقد علمت بنزولها بيت  
مولانا المأمون في صباح الامل فكتبت الى قهرمانة القصر ان أمير المؤمنين  
يريد ان يراها فارسليها فاجابت الشاكري جواباً قبيحاً . فصيانة لاسم أمير  
المؤمنين شددت في طلبها قهراً ولم أكن أحسب العلائق وطيدة بهذا المقدار  
بين طرائد امير المؤمنين وبيت أخيه .. . وكان يجب ان يكون أهل ذلك البيت  
عوناً لنا في القبض على أمثال هؤلاء . نعم انها فتاة لاخوف منها ولسكننا نقدر  
ان نستفهمها وهناك أسباب للظن .. . لأنني » وسكت وهو يلعب ريقه ويظهر  
انه يكتم شيئاً يخشى ابداءه فابتدره الامين قائلاً « قل ما بدا لك »

قال « ان أمير المؤمنين أعلم مني بهذه الاحوال ولا أحب أن أدخل بينه  
وبين أخيه ولسكنني لأستطيع السكوت عما يأول الى مصلحة الدولة وصيانة  
حقوق المسلمين . ما معنى اقامة بنت جعفر الذي قتله الرشيد انتقاماً لتدخله في  
أمر الخلافة بين ولديه وهو الذي أطمع المأمون بولاية العهد بعد ان كانت  
لامير المؤمنين وحده فاصبح لاترضيه ولاية العهد وربما طمع بالخلافة كلها .. »  
فلما سمع الامين تعريضه بالخلافة أجفل وحملق عينيه في الفضل فازدادتا  
صفراً وغوراً ولولم يكن الفضل قد تعود له لتهيب من منظره لأنه كان شديد  
الهيئة قوي البدن يلقي الأسد ولا يبالي به . فاستدرك الفضل قائلاً « لأعني  
ان مولانا المأمون يطلب الخلافة لنفسه ولسكنني أخاف اذا طال حلم أمير المؤمنين  
أن يغريه بعض خاصته الفارسيين بطلبها التماساً للكسب من وراء ذلك »

فانصرف فكر الامين عن ميمونة إلى الخلافة وأخيه وانما جره  
الفضل الى ذلك عمداً ليشغله عن لومه في طلبها باسمه وليتدرج الى اغرائه على  
خلع المأمون لانه يخاف على نفسه وهو على يقين أن المأمون حالما تفضى الخلافة  
اليه اذا كان الفضل حياً انتقم منه أو انتقم من أهله وربما نكل بهم تنكيلاً ولا  
نحاة له من ذلك الا بخلعه عن خراسان إذ يتفرق رجاله عنه ويضعف أمره

فقال الامين « ان هؤلاء الفارسيين هم أصل بلائنا وما زالوا من زمن ابي

مسلم وهم يناوئوننا ويمنوننا لاعتقادهم انهم ساعدونا على نيل الخلافة مع انهم لم ينالوا شيئاً الا باسمنا كما تعلم . . . . . وهم الآن يغرون أخي على التماسها لنفسه وانا حي ؟ »

قال « اذا كان امير المؤمنين لا يصدقني فهذا رئيس المنجمين اسأله عن الرجل الخراساني الذي تقدمت اليك بالقبض عليه يوم وصولي ولم اذكر لك سبب ذلك . . . . . ان هذا الرجل رسول من حزب الخراسانيين انصار المأمون أرسلوه لدس الدسائس علينا — انبأني بذلك جاسوس وأنا في طوس وذكر لي مقر الرجال فلما وصلت بغداد ارسلت في القبض عليه فلم يجدوه في منزله ثم لقيت الملقان سعدون رئيس المنجمين بالامس واستطلعت ما يعلمه وكان صاحب الشرطة حاضراً فعرف الرجل وقال انه هرب من بغداد الى أحزابه الطالبين للسلطة وارجاعها الى الفرس ولا ريب انهم يستخدمون لذلك اسم مولانا المأمون لانهم بدون دم قرشي لا يملكون واذا ملكوا لا اظنهم يستبقون أحداً ولا المأمون نفسه . . . . . لا تغضب اذا قلت ما يخطر لي خدمة لمصلحة الدولة ومع ذلك فهذا الملقان حي ومولاي ابن ماهان صاحب الشرطة موضع ثقتك استشره والرأي في كل حال لأمير المؤمنين . . . . . »

وكان الفضل يقول ذلك باهتمام ويتظاهر بالغيرة على الدولة والأمين يصنى وقد همه الأمر فامسك عن التصريح برأيه حتى يشاور ابن ماهان وعاد الى الكلام عن ميمونة فقال له « سننظر في ذلك وأما ميمونة التي تقول انها بنت جعفر البرمكي فانها في قصرنا بين جوارينا ولا أرى ان نسيئها أو نسيء أحداً بسببها الا اذا ظهر لنا ما يوجب ذلك انما اردت التلطف بها لان ابنة أخي كلتني بشأنها »

فقال الفضل « الرأي لأمير المؤمنين » وهو لم يهمه امر الفتاة بقدر اهتمامه بمخلع المأمون وان كان ابنه يفضل الحصول على ميمونة ولو ضاعت الدولة كلها لأنه شاب ربي في الرخاء ولم يمان السياسة وقضى مامر من عمره متكلاً على ابيه وقد علق بميمونة وهو حسن القصد لا يريد بها الاخيراً وهي لولا ما سبق من حبها بهزاد وحقدتها على الفضل لما كان ثمة ما يمنعها من قبوله

ورأى الفضل ان الأمين يريد فض الجلسة فنهض وخرج وظل الأمين وحده يفكر بما وعد به ابنة اخيه من اطلاق سراح ميمونة ويرى في اطلاقها من الجهة الأخرى خطرا خوفاه الفضل منه فوقع في حيرة واخيرا نهض وسار الى دار النساء وسأل عن مقر بنت اخيه فدلوه عليه

وكانت ميمونة قد شعرت منذ دخلت قصر الخلافة بانقباض شديد وقام بنفسها انها اضاعت آمالها لعلها بما ينويه حبيبها من نكاح الأمين ومع ما حاولته دنائير من التخفيف عنها لم تجف لها دمة منذ دخلت ذلك القصر وكانت زينب تزداد شفقة عليها ورغبة في انقاذها وقد طمأنتها ان عمها وعدّها باطلاق سراحها . فباتوا تلك الليلة وميمونة بثت من الرجوع لعلها ان الفضل لايسكت عن كشف حقيقة امرها للأمين حتى ينجو من اللوم

فاصبحت في اليوم التالي وقد جاءتها دنائير وزينب ودار الحديث بينهن ومداره التخفيف عن ميمونة وهي منقبضة النفس لا يفرج كربتها غير البكاء ولا سيما إذ تصورت نفسها منفردة هناك وجدتها ليست معها ولا هي تعرف أين هو سلمان . فكثت صامته ودموعها تتساقط على خديها بلا بكاء وقد ظهر عليها النكد والانكسار . وكلما زادت انكسارا زادت زينب انعطافاً نحوها ولكنها كانت واثقة بوعدها . وبينما هن في ذلك سمعن حركة وهرجا في خدم القصر ثم جاءت بعض الجوارى تقول ان امير المؤمنين قادم الى ابنة أخيه

فنهضت زينب للقائه بالباب ووقفت دنائير وميمونة موقف الاحترام . . اما هو فدخل وقعد على وسادة هناك واجلس زينب الى جانبه وقال لها الملك في شوق الى قصرك يا زينب ؟

قالت ، كما يشاء امير المؤمنين ،

فاستحسن تأديتها على صغرسنها وقال « اذهبي مع حاضنتك بامان وقد امرت القهرمانه باعداد هودج يحملكما الى دجلة ثم تركبان الحراقة الى القصر ،

فنظرت اليه زينب نظر المدلل الطامع وقالت « وميمونة ؟ »

فقال وهو يضحكها « تبقى في ضيافتنا يوماً أو يومين ثم نبعث بها اليكم معززة مكرمة »

قالت « لا . . . انت قلت انك ترسلها معي »

قال « قلت لك وقد رأيت الآن ان تبقى عندنا ضيفة كما كانت عندك .

وهل هي ترفض الضيافة في قصر الخلافة يا حبيبة ؟ »

فشعرت الفتاة باصراره رغم تلطفه في الجواب ورفعت بصرها الى دنانير كأنها تستغيث بها فنظر الامين الى دنانير وقال « قولي لمولاتك ان ميمونة ستبقى عندنا ضيفة ثم ترسلها .. »

فعلت دنانير انه مصر على استبقائها عنده وادركت سبب استبقائها لأنها تنسبت من اخبار القصر انه اختلى في ذلك الصباح بالفضل . فوعدت في حيرة ولكنها أجابت « ان أمير المؤمنين لا يرد أمره وبقاء جاريته في قصره شرف لها وتفضل منه . »

فلما تحققت ميمونة انها باقية لاعمالة ظلت ساكتة والدمع ينحدر على خديها فوق نظر الامين عليها فرق لها وكاد يامر باطلاق سبيلها ولكنه تذكر كلام الفضل فأمسك نفسه ونهض وهو يقول لزینب « بحراسة الله يا ابنة أخي . . احتفظي بها يادنانير » والتفت الى ميمونة وقال « لا بأس عليك يا بنية » وخرج وأمر قيمة الدار أن تعد ما يلزم لنقل زينب وحاضنتها الى قصر المأمون . فارادت زينب أن تتعلق بميمونة وتمنع عن الذهاب فامسكتها دنانير وأفهمتها بالتعقل ان أمر الخليفة لا يرد لثلاثين يوماً وان ميمونة لا بأس عليها فلما حلت ميمونة بزینب ودنانير بعد خروج الامين اطلقت لنفسها عنان البكاء حتى كاد يغمر عليها فاخذت دنانير تهون عليها ووعدتها ان تخبر سلمان بخبرها وهو يسعى في انقاذها وانها ستوسط سواء عند الاقتضاء فلم يكن ذلك ليخفف ما بها . ولما تحققت بقاءها أسرت الى دنانير ان تبذل جهدها في تسلية جدتها المسكينة فانها تركت الدنيا من اجلها فوعدتها بذلك وخرجت وقلبها يتقطع حزنا عليها ولما ودعت قهرمانه بيت الامين اوصتها بها خيراً فوعدتها بذلك

## الفصل الخمسون

### عبادة وزيدة

ولما وصلت دنانير الى قصر المأمون رأت عبادة في انتظارها على  
 المسناة وكانت قد عاينت ما اصاب حفيدتها من القسوة والاهانة في  
 أخذها الى الامين وحدثها نفسها ان تصحبها الى هناك لكنها خافت  
 أن يكون ذهابها سببا لزيادة النعمة عليها وأشارت عليها دنانير بالبقاء في  
 القصر ريثما تعود ووعدتها بارجاع ميمونة معها . فقضت بقية ذلك اليوم  
 وطول ليله ساهرة وقد أخذ القلق منها مأخذاً عظيماً وأصبحت في اليوم  
 التالي وهي جالسة على المسناة ترقب السفن النازلة حتى رأت حراقة عرفت  
 من شكلها انها من سفن الامين . فلما وصلت ولم ترميمونة فيها صاحت  
 « اين ميمونة . . ؟ »

فأخذتها دنانيريدها وقصت عليها الخبر باختصار ووعدتها بقرب رجوعها  
 فقالت « لا . . لن ترجع ان الامين اذا عرف من هي أوقع الاذى بها  
 ويبي لمماذا لم اذهب معها فيصيني ما يصيبها . . لقد اضعفت تعبي في خدمتها »  
 وجعلت تندب سوء حظها وتبكي بكاء الشكلى

فأخذت دنانير تهون عليها عبثاً وبعد هنيهة سكن روعها ففكرت  
 في ما تستطيعه في سبيل انقاذ حفيدتها فوقعت يدها على حق الزمرد في  
 جيبها فخطر لها أن تستخدمه في هذا السبيل . وكان الناس يتحدثون منذ  
 أيام بمجيء زيدة أم جعفر والدة الامين من الرقة ومعها خزائن الرشيد  
 فقالت في نفسها « لعلى اذا سرت اليها واستعطفتها باسم زوجها استحث  
 عاطفتها بما في هذا الحق من آثار الرشيد فتتوسط عند ابنها بالافراج عن  
 حفيدتى . ولما خطر لها ذلك شعرت براحة وطمأنينة واستشارت دنانير في  
 الامر فاستحسن رأياها وقالت « لم يبق لنا باب نظرقه غير هذا ولعل هذه

المرأة اذا رأت آثار زوجها وسمعت ما أصابك من البلاء تنسى حقدها . سيرى  
على بركة الله »

فخرجت عبادة في ظهر ذلك اليوم تطلب دار القرار قصر زبيدة وقد  
كان ذلك الذهب صعباً عليها ولكنها استهانت كل صعب في سبيل انقاذ  
ميمونة

سارت من قصر المأمون في حراقة حتى نزلت الشاطيء بقرب دار  
القرار ومشت من هناك بثوبها الاسود وهي تتوكأ على عكازها وقد  
بدا الانكسار في عيائها فضلا عن الشيخوخة والانكسار يبدو في الشيوخ  
مضاعفاً

وصلت باب القصر نحو الاصيل فرأت عنده جماعة من الشاكرية وقوفاً  
باسلحتهم فوقفت وحيثهم فلم ينتبه اليها أحد وظنوها من ابناء السبيل فتقدمت  
الى احدم وقالت « أعل مولاتنا ام جعفر في القصر ؟ »

فاجابها الرجل « هي هنا وماذا تريدن منها ؟ »

قالت « اريد ان اراها واتبرك بلثم ثوبها »

قال « لا تقابل أحداً الآن واذا كنت تلتهمسين احساناً فليس اليوم

موعده »

قالت « كلا يا ولدي لا أريد شيئاً من ذلك ولكن لدي حديثاً أريد أن

اقصه عليها »

قال « وما هو حديثك يا خالة ؟ »

قالت « انه حديث خاص بها ادخلني عليها اذا شئت »

فاستخف الرجل بقولها والتفت الى رفقائه وكانوا وقوفاً يسمعون

ما دار بينهما فتقدم شاكري آخر وقال « اتريدن مقابلة مولاتنا أم الخليفة

نفسها ؟ »

قالت « نعم أطلب مقابلة ام الخليفة السيدة زبيدة . . اتقدم اليك

أن تستأذن لي في ذلك ولا تماطاني فقد تعبت من الطريق ولا صبر لي على

الوقوف . . »

قال « اراك مسكينة وسأطلب لك احساناً من قيمة القصر واكفيك  
مؤونة الدخول على مولاتنا أم جعفر لانها يندر ان تقابل أحداً ،  
فأثر ذلك القول في نفسها وتذكرت سابق أيامها وكيف أصبح حالها  
لا يدل على غير الاستجداء فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها « لاأطلب احساناً  
يا بني ولكن لدي أمراً يهم مولاتنا أم جعفر أريد عرضه عليها فاستأذن لي  
ولك الفضل ،

فلما رأى الشاكري بكاءها رق لها ودخل للاستئذان وظلت هي بالباب  
وقد تعبت فعمدت على حجر . وبعد هنيهة عاد الشاكري وهو يقول « سألتني  
عن اسمك ،

فتحيرت بماذا تجيب وفكرت قليلاً ثم قالت « قل لها اسمي أم الرشيد ،  
فأجفل الجميع واخذوا يتفرون بها وهم لا يعرفونها واستغربوا هذا الاسم  
فقال احدهم « اسمك أم الرشيد ؟ وأي رشيد تعنين ؟ ،

قالت « أم تسألك عن اسمي فقل لها ان ام الرشيد بالباب تلتمس مقابلتك ،  
فعاد الشاكري ومكثت هي بانتظاره وقد سرها تقدمها الى زيدة بهذا  
الاسم لعله يكون فألا حسناً لهذه المقابلة . وما عم الشاكري أن عاد وهو يقول  
« تفضلي يا خالة ادخلي ،

فدخلت في اثر الشاكري وهي تتوكأ على عكازها حتى تجاوزت الحديقة  
الى باب القصر ونزعت نعالها ودخلت في الدهليز فأنهت منه الى غرف يستطرق  
بعضها الى بعض والجواري المقدودات يخطرن بين يديها وهن ينظرن اليها  
ويعجبين من حالها . أما هي فكانت تمشي مطرقة حتى افضى بها المسير الى قاعة  
كبيرة فاحت منها رائحة الطيب . فلما اطلت على القاعة رأت سقفها قبة مصنوعة  
من خشب الصندل ومكسوة بالوشي والسمور وانواع الحرير بالوانه الزاهية  
يتدلى على جدرانها ستائر مطرزة بايات من الشعر ومعلقة بكلايب من الذهب  
وفي ارض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين وعليه الوسائد والكراسي  
نما يهر النظر (١) ولكنه لم يهر عبادة لانها تعودت نحو ذلك في قصر ابنتها

أيام نعيمها واقبال سعدها وانما كان همها في ذلك اليوم ان تنال رضى زبيدة في انقاذ حفيدتها

## الفصل الحادي والخمسون

### التقاء العين بالعين

فلما وصلت الباب رأت زبيدة في صدر القاعة متكئة على وسادة من الحرير الموشى فوق سرير من الابنوس المرصع . فتركت عصاها خارجاً والقت التحية باحترام ونظرت الى زبيدة ووقفت تنتظر امرها بالدخول أو الجلوس وكانت زبيدة بثوب سماوى اللون يأخذ بالابصار وقد تعصبت بعصاة مرصعة بشكل الطلوس من الحجارة الكريمة على غير عاداتها كأنها فطت ذلك عنوة في تلك الساعة . ظلت عبادة واقفة وزبيدة متشاعلة بجمام من العاج فيه فتات السك وقد تساقط بعضه فأخذت بالتقاطه عن الوسادة فظنت عبادة انها لم تنتبه لها فتنحنت فرفعت زبيدة بصرها اليها باستخفاف وقالت « من هذا ؟ »

فاستأنست بذلك السؤال ومشت نحوها وهي تقول « انى جاريتك عبادة » ولما وصلت الى وسط القاعة نظرت اليها زبيدة شزراً وقلبت شفتها السفلى ورفعت حاجبها اشارة الاستهجان وقالت « عبادة . . ؟ وقد قيل لى ان أم الرشيد تطلب الدخول على . . »

قالت « هى جاريتك يامولانى .. انظري في وجهي فعى ان شحوبه لا ينسبك صاحبه »

فضحكت زبيدة وقالت « عرفتك . . يا عبادة ألا تزالين حية بعد ؟ » فاستغلظت عبادة هذا السؤال الدال على الاحتقار ولكنها كظمت وقالت « بلى لا أزال حية لسوء حظي »

فقهت زبيدة وقالت « ذلك جزاء نكران الجميل يا عبادة . . اجلسي » فجلست وهي ترتعد من الفيظ وندمت على عيئها ولكنها تذكرت ضيق

ميمونة وأنها جاءت لانقاذها فهان عليها الصبر . فقالت لم انكر جميلا يا مولاتي ولكن لله الامر يفعل ما يشاء ،

قالت « صدقت لله الامر ولكنه يجزي كل نفس وما فعلت . . . . . أرأيت عاقبة سعيك وسعى زوجك وأولادك في نزع الخلافة منا . . . . . أرأيت عاقبة الغدر؟ أرأيت عاقبة الجرأة على مولاكم . . . . . أرأيت كيف رد الله كيدهم في نحركم . . . . . وكنت أحسبك قضيت نحبك قهراً من الشكل فاذا أنت لا تزالين حية تسعين ،

وكانت عبادة وهي تسمع كلام زبيدة مطرقة فلما فرغت من قولها قالت « لم آت يا مولاتي لأناقشك الحساب وإنما جئتك الآن مستعطفة فانك والدة وتعرفين انعطاف الوالدات وقد صرت جدة وتعرفين انعطاف الجدات ، فقطعت كلامها وقالت الآن عرفت حنو الوالدة والجدة . . . . . أين كان ذلك الحنو لما أراد ابنك المقتول أن يخلع ولاية العهد عن ابني ويديرها لابن مراجل « تعني المأمون ،

فقالت وقد جاشت أحزانها في صدرها وكاد السكظم يخنقها « قلت لك يا مولاتي إنما جئت مستعطفة . ولا استعطفك بحسنة أتيتها وإنما أتقدم اليك بكرامة صاحب هذه الآثار ، واستخرجت حق الزمرد من جيبها ومفتاح الذهب معلق به ونهضت ومدت يدها نحوها لتعطيها اياه . فتباطأت زبيدة بتناوله مبالغة بالازدراء ويد عبادة ممدودة كأنها سائل يستعطي وأخيراً قالت زبيدة « وما الذي يحويه من الآثار ؟ ،

فأخذت عبادة تعالجه بالمفتاح ويداها ترتعشان من ضعف الشيخوخة وشدة التأثر حتى فتحته وتقدمت الى زبيدة فوضعت بين يديها على الوسادة وتراجعت الى مكانها فنظرت زبيدة فاذا في الحق خصلة من شعر زوجها وبضع أسنان من أسنانه وقد فاحت رائحة المسك فقالت « ما هذا الشعر والاسنان ؟ ،

قالت « إنها شعر مولانا الرشيد وأسنان طفولته . . . أم أكن ظنره ؟

ألم أرضعه وكان يناديني أم الرشيد . . ؟ بهذه الآثار أتقدم اليك أن تسمعي  
شكواي وترحمي ضعفي ليس من أجل بل من اجل فتاة بريئة من كل ذنب  
كانت في عهد تلك الحوادث طفلة ربية على مهاد الرغد والرخاء وهي الآن  
يتيمة طريفة لا ملجأ لها ولا نصير وحياتها او موتها بين شفيتك . . بالله إلا  
عطفك عليها بكلمة تنقذها من الموت . . ، قالت ذلك وشرقت بدموعها —  
وناهيك بمجوز تبكي وتستعطف

فلما سمعت زبيدة كلامها ورأت ثنايا زوجها وشعره كاد الحنو يغلب  
على عواطفها فسكنت هنيهة وعبادة تراقب حركاتها ولم تشك انها أصفت الى  
ندائها

ثم رأتها اقلعت الحق وهي تقول لها « ألم تتقدمي بهذه الآثار الجامدة الى  
الرشيد في حياته ؟ »

قالت « بلى فعلت »

قالت « ولماذا تقدمت بها اليه ؟ »

قالت « تقدمت اليه بها ليعفو عن زوجي يحيي »

قالت « وماذا كان جوابه ؟ »

فبعت ريقها وحارت في الجواب ولكنها لم تر بداً من الصدق فقالت  
« انه ردني خائبة يامولائي »

قالت « وهل ينبغي أن أكون أنا أعرف منه لحقك ياعبادة ؟ »

قالت « انى تقدمت الى الرشيد مطالبة بحق كنت أحسبه لى عليه وأما  
الآن فاني أستعطفك والتمس تفضلك ولا حق لى . . أطلب احسانك على  
فتاة لادخل لها في أمرنا — أما أنا فاذا قلت انى ارتكبت ذنباً نحوك فهذا  
عنى بين يديك ولا آسف على حياتى . أما تلك الفتاة المسكينة فلا ذنب لها . . »  
فقالت « وأي فتاة تعنين »

فاستبشرت بسؤالها وقالت « أعني فتاة هي بقية ذلك القتييل السيء  
الطالع ساقها شقاؤها الى الفرار مما أصاب أباه واعممامها وجدها فبقيت في  
قيد الحياة وظللت انا حية لأعوها وأتولى تربيتها فقضينا عدة اعوام ونحن

نتستر ونعيش عيش التسولين وقد قبلنا حكم القضاء بذلك فسأقت لنا التقادير اناساً وشوا بنا الى أمير المؤمنين وحملوا الفتاة المسكينة الى قصره فخفت ان يغروه بقتلها فلم اجد لي باباً اطلب الفرج منه سواك فأتيتك بهذه الآنار لعلها تعطفك على تلك المسكينة فتقولى كلمة يكون لها فيها الحياة فيأمر أمير المؤمنين باخراجها فاذهب بها واقضى بقية الحياة معها في كوخ حقير او اغادر هذه البلاد الى حيث تأمرين . بالله ترفقى . . . . اسألك برأس ابنك وبخنوك عليه إلا اصغيت لتذلى . . . وانت تعلمين اني لم استعطف احداً على هذا الشكل في عمري حتى ولا الرشيد رحمه الله . . . ولم تعد تستطيع امساك نفسها عن البكاء

وكانت عبادة تتوقع أن تسمع منها كلمة الانعطاف فاذا هي تسألها وما اسم الفتاة ؟

قالت « ميمونة يامولاتي »

فابتسمت وحول مبسمها هالة من الحقد والنقمة لاسبيل معها الى الانعطاف وقالت « ميمونة اجئت تطلبين النجاة ليمونة ؟ لماذا لم ينجها حبيبها الخراساني شاهر سيف النقمة على آل عباس كافة . . الذي لو أتيح له أن يشرب دمنا لشربه »

فلما سمعت قولها ارتج عليها ودهشت لاطلاعها على ذلك السر وهي تحسبه مكتوماً عن كل انسان وقد فاتها نفسي الجاسوسية في ذلك العصر وان لكل انسان جاسوساً على صاحبه . حتى الاب يتجسس على ابنه والابن على أبيه وكان لزبيدة عيون في بيت المأمون بأتونها بالاخبار عن كل حركة فيه وقد علمت بخبر الخراساني بالأمس وعزمت على أن تخبر ابنها به ولم تعلم انه غادر بغداد ونجا من حائلها

أما عبادة فبغتت وجمد الدم في عروقها ولم تحر جواباً فظلت ساكنة ثم خافت أن يثبت سكوتها التهمة عليها فأرادت التنصل منها على قدر الامكان فقالت « لم أفهم مرادك يامولاتي ومن هو ذلك الخراساني وما هو شأننا بالدسائس والنقمة ونحن لانكاد نملاً جوفنا طعاماً . . . بالله اقبلى

استعطاني فقد صغرت نفسي واكاد أتميز صغراً واستهانة وانما أطلب منك اخراج هذه الفتاة من قصر أمير المؤمنين ومهما أمرت بعد ذلك فاني طوع ارادتك . . . »

فحاولت زبيدة وجهها عنها ومدت يدها بالحق اليها وقالت « كفى يا عبادة خذي هذا الحق لعله ينفعك في غير هذا السبيل واذا كنت في حاجة الى عطاء من مال أو طعام أعطيناك .. »

## الفصل الثاني والخمسون

### الغضب

فعلت عبادة أن الكلام ذاهب عبثاً وان زبيدة تطلب انصرافها فتناولت الحق وهي تقول « كنت أقبل عطيتك ياسيدتي لو بقى لي مطمع في الحياة فاستغفرك على ما بدا من جسارتى وأرجو أن يديم الله سعدك وبؤيد عرش ابنك » قالت ذلك وتحولت تظهر عزمها على الخروج وهي تتوقع أن يلين قلب زبيدة بما سمعته من التفرع فبلغت الى باب القاعة ولم تسمع صوتها ولا رأتها تحركت من مكانها . . فأكبرت أن تخرج من بين يديها ذليلاً مغلوبة فعادت اليها أنفتها وتذكرت حالها على عهد ابنها وما أصابها من البلاء بسبب زبيدة وما رأته من قساوة قلبها وشماتها بذلها فالتفت اليها فاذا هي لانزال جالسة على السرير وعيناها على الوسادة تتشاغل بالتقاط فتات المسك عنها وحول شفيتها ابتسامة تغني في شرح عواطفها عن مجلد لانها جمعت بين الاستخفاف وعز الانتصار وانفة الكبراء وشماتة الحاقدين

وكانت زبيدة تتوقع رجوع عبادة لانها لم تشف كل غليلها منها ولم تجبها ساعة الوداع رغبة في رجوعها وقد لدها الحديث مع امرأة ساعدتها الاقدار عليها حتى سحقتها سحقا بعد أن قتلت ابنها وأذلت زوجها وسائر أهلها وشتت شملهم وقبضت على أموالهم وضياعهم وأصبح اسمهم فزعة

يخافها المتمنون اليهم — لان الرشيد انما نكب البرامكة برأيها وتحريضها وقد لدها النصر — وليس على قلب الانسان ألد من النصر . ولو حملت أسباب السعادة تحليلاً دقيقاً لرأيته ترجع الى النصر أو مافي معناه . فالغالب في الحرب يتمتع بالنصر على أبسط معانيه وناهيك بلذة القائد عند ما يرى جيشه ظافراً وجيش عدوه مدحوراً . وطلاب المال لا يجمعونه خوف الجوع فان الانسان يشبعه مالا يعجز أفقر الفقراء عن الحصول عليه وانما يجمع المال ليستعين به في تنفيذ أغراضه أو تقوية نفوذه في الدولة أو الهيئة الاجتماعية وهو النصر أو الفوز . وطلاب الشهرة على اختلاف وجوهها انما يطلبونها التماساً لمثل هذه اللذة — فطالب الشهرة من طريق السياسة يشعر اذا مدحه الناس على عمل أعجبوا به انه تغلب على آرائهم بقوة عقله وان اعجابهم به انما هو اقرار بتقصيرهم عنه في ذلك السبيل . وطلبها من طريق العلم أو الشعر أو غيرها من المهن القلمية يلذ له اعجاب الناس بنفثات يراعه أو بنات أفكاره مثل شعور القائد بانتصاره على اعدائه فزيدة لذ لها الانتصار الباهر الذي توقفت اليه على البرامكة وجاءت مقابلة عبادة وتذللها تزكية للنصر فاستغرقت في تلك اللذة حتى نسيت عاطفة الشفقة أو تناستها أو لعلمها أبعدت تلك العاطفة عمداً لان البرامكة تعمدوا اهانة ابنها واخراج الملك من زوجها فلما التفتت عبادة نحوها ظلت هي مشغلة بالتقاط المسك عن الوسادة وقلبها يخفق توقفاً لما عساه يبدو من تلك الوالدة المقهورة المغلوبة على أمرها فاذا هي تقول لها : أخرج من بين يديك ولم أنل جواباً منك غير الشتمة والاستخفاف وقد تقدمت اليك بحرمة زوجك المدفون في طوس . . فاكثفت بقولك ان الله انما أوصلنا الى هذه الحال جزاء ما جنته أيدينا . . وقد سرني انك تعرفين ذلك وان الله قادر على مثله في كل زمان ومكان ،

ولما قالت ذلك لم تتالك زبيدة عن النظر اليها فاذا هي قد تغيرت سحتها من الاستعطاف والتذلل الى الغضب والنفور واحمرت عينها وجف دمعها وارتجفت شفتها وارتعشت يداها ورجلاها حتى كادت تقع الى الارض وهي تتجلد وكانت قد تناولت عكازها فتوكأت عليها ولم تزد على ما قالت

وأخذت تبحث عن نعالها لتلبسها وتخرج فصاحت بها زبيدة « عبادة ! »  
فتخافت وظلت سائرة في الدهليز فصاحت بها ثانية « عبادة ! يا أم  
الرشيد ! »

فلما سمعتها تنادىها بهذه الكنية استبشرت وتراجعت وكظمت ما في  
نفسها لعلها تستطيع أن تنفع ميمونة فالتفتت واحدى يديها على العكاز  
والاخرى على خصرها كأنها تتمسك من الضعف فوقعت عيناها على عيني  
زبيدة وهي ترجو أن تقرأ شيئاً جديداً يشف عن انعطاف أو حنو لعلها  
تغير رأيها في ميمونة فرأتها لا تزال تبتم ولم يتغير شكل ابتسامها وقد زاده  
رهبة ما بدا في عينيها من دلائل الغضب فظلت عبادة في هذه اللقطة بضع  
لحظات وهي تنفرس في عيني زبيدة ومع أنها قرأت الغضب فيهما ما زالت  
تغالط نفسها رغبة في انقاذ ميمونة وإذا زبيدة تقول بصوت محتق « تدعين  
على ابني بالقتل ؟ . »

قالت « معاذ الله يا سيدي . . أطلب اليه تعالى أن لا يريك مكروهاً به . .  
بل أتوسل اليه أن يحرس كل أبناء الناس لعله يصيب حفيدي المسكينة طرف  
من عنايته » ثم تغير صوتها واختنق

فقطعت زبيدة كلامها وقالت « ألم تكوني تطلبين ذلك من قبل ؟ »  
فأدركت عبادة أنها تشير إلى أيام عزها قبل مقتل ابنها فقالت « ويلاه  
كنت أرجو ذلك ليني ابني ولكنتي لم أكن أقوله بحرارة قلب ولطفة كما أفعل  
الآن لاني كنت لم أجرب بعد . . كنت مثلك يامولاتي لا أعرف من الدنيا الا  
نعيمها وراحتها وكنت أحسب الدهر يدوم لي فاذا هو قد أذاقني ما لم يسمع  
بمثله في الارض . . . . وأصبحت بعد أن عاداني الدهر أرى العناصر  
تغالبنى ولا أرى من دنياي غير المصائب ولا أتوقع غير النوائب »

فأدركت زبيدة انها تعرض بما تخافه عليها من النكبة فكرهت أن تسمع  
شيئاً يكدرها اذا هي أطالت الحديث معها فوقفت وأخذت في اصلاح  
عقدها المعلق في صدرها والعصابة التي حول رأسها كأنها تتأهب للخروج .  
فاكتفت عبادة بما قالته وتحولت الى نعالها فلبستها وخرجت وهي لا تبالي

بما أصابها من الفشل بعد أن اجابت زبيدة ذلك الجواب  
سارت عبادة توأاً الى قصر المأمون وقضت الطريق وهي تمشي مسرعة  
وقد نسيت عجزها لفرط ما كان من تأثرها على أثر ما دار بينها وبين زبيدة  
وكانت دنائير في انتظارها فلما قصت عليها ماجرى اسفت لفشلها وجعلت  
تخفف عنها وتهون عليها

## الفصل الثالث والخمسون

### الفضل بن سهل

لترك أهل بغداد في حالهم ونظر في ما كان من أمر بهزاد بعد رحيله  
فقد قرأنا في كتابه الى ميمونة انه مسافر الى خراسان وقد فعل ذلك بعد  
ان اوصى سلمان بما عليه من السعي في اثناء غيابه . وغادر بغداد على  
فرسه وقد شد ذلك الصندوق الى السرج والتمس اقرب الطرق وكان  
اذا بات في خان أو نزل ادعى انه طيب وصندوق العقاقير معه . .  
قضى في سفرته اياما قطع في اثنائها جبالا وسهولا واودية وانهاراً حتى  
اشرف على مدينة مرو الشاهجان عاصمة خراسان في ذلك العهد  
وهي في منبسط من الارض حولها سور مربع الشكل وفي وسط المدينة قلعة  
ضخمة يقال لها في اصطلاحهم « القهندز » تظهر للمطل على مرو عن بعد  
ويحسبها الناظر اليها بلدا ويفرسون على سطحها المطابخ والباقل كأنها بستان  
على رأس جبل ولم يكن ذلك المنظر ليؤثر على بهزاد فانه نشأ في هذه المدينة  
وشب فيها فدخل توأاً يلتمس منزل الفضل بن سهل

والفضل بن سهل أصله من سرخس نشأ مجوسياً وكان عالماً بالنجوم وقد  
أدخله في خدمة الدولة يحيى البرمكي في أيام الرشيد ولم يسلم الا سنة ١٩٠ هـ  
على مذهب الشيعة وانما أسلم رغبة في نصرة الفرس بخراسان . وكان هماماً  
فقدمه يحيى في الدولة حتى صار من خاصته ثم جعله قهرمانا له . وتوسم الفضل  
في المأمون نجابة وتعقلا فتوقع ان تصير الخلافة اليه فلزمه وخدمه وتقرب

منه . وكان المأمون يحبه ويقدمه ولم يكن الفضل طامعاً بأقل من الوزارة —  
يحكى أن مؤدب المأمون قبل الخلافة لما رأى جميل رأيه بالفضل واكرامه اياه  
نقل ذلك للفضل وقال له « لا أستبعد أن يحصل لك منه ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم »  
فاغتاز الفضل وقال « والله ما صحبته لا كتب منه مالا قل أو جل ولكني  
صحبته ليمضي حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب »

وكان الرشيد لما بايع لأولاده بولاية العهد جعل للأمين العراق والشام الى  
آخر المغرب وهو الخليفة بعده وجعل للمأمون خراسان وسائر المشرق على ان  
يتولى الخلافة بعد أخيه الأمين . وكل ذلك بتدبير جعفر وغيره من أحزاب  
الشيعة وفي جملتهم الفضل بن سهل . ولما أراد الرشيد سنة ١٩٢ هـ أن يسير  
الى خراسان أمر ابنه المأمون ان يبقى في بغداد حتى يرجع . وكان الرشيد  
مريضاً يخاف الفضل ان يموت الرشيد في الطريق فيذهب سعيه هدرأ فجاء الى  
المأمون وقال له « لست تدري ما يحدث بالرشيد وخراسان ولايتك ومحمد  
الأمين المقدم عليك وأن أحسن ما يصنع بك أن يخلمك وهو ابن زبيدة  
وأخواله بنو هاشم وزبيدة وأموالها كما تعلم فاطلب إلى أمير المؤمنين ان تسير  
معه » فطلب المأمون ذلك من ابيه فامتنع أولاً ثم اجاب — ولا بد لامتناعه  
من سبب كان يحول في خاطره وهو يتوقع قرب أجله ويرى لأولاده عليه  
رقباء يحصون أنفاسه ويستطيون بقاءه

فسار المأمون مع ابيه والفضل معها واهتم الفضل في أثناء الطريق بتأيد  
امر المأمون فاخذ له البيعة على كل من في عسكر الرشيد من القواد وغيرهم  
واقرله الرشيد بجميع ما معه من الأموال . ثم نزل المأمون مرو قسبة خراسان  
واشتد المرض على الرشيد وهو في طوس والأمين في بغداد وله عيون مع الرشيد  
اشدم غيرة عليه الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة . فلما بلغ الأمين  
اشتداد المرض على ابيه بعث الى ابن الربيع وغيره يستحثهم على بيعته . فلما  
مات الرشيد هناك سنة ١٩٣ هـ احتال ابن الربيع على من كان في ذلك العسكر  
والمأمون غائب في مرو وحرصهم على اللحاق بالأمين . فاطاعوه رغبة منهم في  
الرجوع الى اهلهم واولادهم في بغداد واغفلوا العهد التي اخذت عليهم

للمأمون وحملوا ما كان في عسكر الرشيد الى الأمين وتمت البيعة له كما تقدم  
خبر ذلك مفصلاً

فلما بلغ المأمون موت أبيه ورجوع رجاله الى أخيه بالاحمال والاموال  
وقد نكثوا عهده خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورم في الامر واظهر  
لهم ضعفه وانه لا يقوى على أخيه فنشطوه ووعدوه خيراً ولبت الفضل يتربص  
الفرص لنيل بغيته التي اسلم من اجلها وكان من جملة مساعيه قبل موت الرشيد  
في هذا السبيل انه انفذ بهزاد هذا طبيباً الى بيت المأمون وهو يعرفه من زعماء  
الحرمية وفيه اقدم وغيره على الشيعة ونصرة للفرس ومعه سلمان خادماً له  
وهو من رجال هذه الطائفة . وكانت الخبايا السرية دائرة بين بهزاد  
والفضل فلما مات الرشيد واستأثر الأمين بالخلافة وآن العمل في خراسان ركب  
بهزاد اليها ليشارك مع الفضل في التدبير

وكان الفضل يوم وصول بهزاد الى مرو جالساً في قصره مع أخيه الحسن  
فجاءه الحاجب ان بهزاد بالبواب فامر بادخاله فدخل وهو لا يزال بلباس السفر  
وفي يده الصندوق فوضعه بالبواب وسلم فرحب به الفضل والحسن وأجلساه في  
صدر القاعة . وكان الفضل ليغاوي المزاج رقيق البدن أصفر الوجه مع صحة  
ونشاط وهو يومئذ في حدود الكهولة اذا نظرت الى عينيه رأيتهما ينطقان  
بما في صدره من المطامع وما يضره من المكائد وما يفكر في نصبه من الحبايل  
مع صبر وتربص ولم يكن أخوه الحسن في مثل مزاجه ودهائه بل كان أقرب  
الى ظهور ما في نفسه وتجلي أغراضه في وجهه اذا غضب بان الغضب في وجهه  
او سر ظهر السرور عليه أما الفضل فكان وجهه لا يغيره تأثير ولا تظهر فيه  
عاطفة كأنه لا يغضب ولا يفرح فلا تنف الحدة في سبيل أغراضه أو يعرقل  
الغضب مساعيه كما يصيب اصحاب المزاج الدموي أو العصبي فانهم لا يصبرون  
على ضم ولا يستطيعون الكظم فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة حتى يخرجوا عن  
الصواب فرجاء بدرت من أحدم كلمة يقولها عن غير روية تذهب بها مساعيه  
هدراً بخلاف أصحاب المزاج الليمفاوي

فلما جلس بهزاد أخذ الفضل واخوه يسألانه عما فعله فقص عليهما ماجرى

له وهما يعجبان بشجاعته وغيرته على الفرس وهو لا يرى انه فعل شيئاً يذكر  
فسأله الفضل عن حزب الحرمية ببغداد

فقال « انهم على دعوتنا لا يذخرون في سبيلها مالا ولا انفساً

قال « كيف فارقت ذلك الغلام » يريد محمداً الامين

قال « فارقته بين الكاس والطاس والجواري والعلمان »

فقال الحسن « ان دولته ذاهبة لا محالة ولكن . . . »

فاجاب بهزاد على الفور « ولكن ذلك لا ينفعنا الا اذا اذهبناهما نحن »

فضحك الفضل ضحك الظافر وقال « ونحن فاعلون ان شاء الله إنما

ينتقصنا أن يستحكم الخلاف بين الاخوين حتى يستنصرنا هذا على ذلك فنشترط

عليه ما يضمن غرضنا »

قال بهزاد « لا تلبثون أن تسمعوا بذلك قريباً بفضل صاحبنا سلمان . . .

وإلا ذهب إسلامك عبثاً . . . »

فشق هذا التصريح على الفضل لأنه مع اشتهار ذلك عنه واشتراكه مع

بهزاد في المنفعة من اسلامه لم يكن يرضى ان يقال عنه انه اسلم رغبة في الدنيا

أو لعله بعد أن أسلم احتيلاً أصبح يرى الاسلام حقاً . فسكت ولم يبد ملاحظة

على انه أراد أن يثبت قدم بهزاد في هذه الخدمة لما أظهره له من اقتداره على

العمل بعد رجوعه من تلك المهمة وتوقع ان يحتاج اليه في مثلها فنظر الي أخيه

الحسن وضحك كأنه يكتم أمراً يتردد في التصريح به ففهم غرضه وابتسم وهو

ينظر الي بهزاد فظل بهزاد ساكناً ثم استلم الحسن الحديث فوجه كلامه الي

بهزاد قائلاً « اننا نرى لك فضلاً كبيراً في نصرته الفرس وسيأتي يوم تنال فيه

نصيبك من هذا الفوز »

فقطع الفضل كلامه قائلاً « بل هو يناله من اليوم . . . وهل نجد أليق منه

بيوران » يعني بوران بنت الحسن بن سهل وكانت بارعة في الجمال يتحدث اهل

خراسان بجملها وتعقلها

فلما سمع بهزاد اسمها اجفل لأنه مقيد القلب كما تعلم ولكنه لم يكن يستطيع

رفض ذلك الانعام فكادت البغته تظهر في وجهه ولكنه تجدد وأخفى رأسه

شاكراً وقال « انها نعمة لا أستحقها ... ولم اعمل عملاً يخولني هذا الانعام بعد ونحن لا نزال في اوائل الطريق . . . »

فلستحسن الفضل عنده ولم يخطر له انه يأبى الزواج ببوران وليس في كبراء خراسان واحد إلا ويتمنى الحصول عليها فابتدره قائلاً « هذا فضلا عن تقدمك في مناصب الدولة عند سئوح الفرصة »

فقال بهزاد « اعذرني ياسيدي اذا استعفيت من المناصب فأنا أخدم مصلحة أمي بما تشاء من طريق آخر » ثم تحفز للوقوف وقال « واستأذن الآن في الذهاب إلى منزلي لتبديل ثيابي والراحة . . . » قال ذلك ومشى الى نعاله فلبسها وتناول الصندوق وم بالخروج فاستوقفه الفضل قائلاً « وما هذا الصندوق ؟ » قال « انه صندوق العقاقير يامولاي » ومشى

## الفصل الرابع والخمسون

### فاطمة

فلما خرج من القصر ركب فرسه وأوغل في المدينة وهو يسير في أزقتها الضيقة حتى بلغ الى بعض أطرافها وهو غارق في بحار التأمل وقد ساءه ما ذكره الفضل عن بوران لاعتقاده ان الفضل يعني ما يقوله من تزويجه بها وقد فاته انه انما قال ذلك ترغيباً له في مناهضة العباسيين ولوعلم الفضل حقيقة بهزاد لراه أرغب أهل فارس في مناهضتهم

على أن تلك الذكرى هاجت أشجانه وأذكرته ميمونة وكيف تركها في بغداد مع علمه أن العداة لا يلبث أن يتمكن بين الاخوين وتنتشب الحرب بين البلدين . ثم تذكر انها مقيمة في قصر المأمون فاطمأن خاطره . وأنسته هذه المواجهات طريقه فانتبه لنفسه فاذا هو قد تجاوز المكان الذي كان يقصده فدار حتى أتى زقاقاً انتهى منه الى باب ترجل عنده ووقف والصندوق بيده وقرع الباب قرعاً مخصوصاً وليث واقفاً وبعد هنيهة فتح الباب وخرج منه عبد طويل القامة عليه سمات الشيخوخة وحالما وقع نظره على بهزاد ترامي على يديه وأخذ

يقبلهما ويقول « سيدي . . سيدي . . أنت جئت ؟ لقد طال غيابك ، قال ذلك وأراد ان يتناول الصندوق فامتنع عن تسليمه اليه ومشى فادخل العبد الفرس الى الاسطبل واقفل الباب وسار بين يدي بهزاد مهرولا من الفرخ في دهليز استطرقامنه الى فناء واسع وتحولا من بعض جوانبه الى غرفة في صدرها عجوز طاعنة في السن قد شاب شعرها وتغضن جبينها وطال حاجبها حتى غطيا عينيها وقد تزلزلت بمطرف وجلست الاربعاء فلما أطل العبد عليها صاح « مولائي جاء سيدي . جاء سيدي »

فبغتت وصاحت « جاء ؟ اين هو » وكان بهزاد قد وصل اليها فجثا عند قدميها وقبل يدها فرفعت بصرها اليه وعانقته وضمته الى صدرها واخذت تقبله وهي تبكي وتقول بصوت مخنق « أهلا بولدي وجيبي . اهلا بك . انت جئت يا كيفر . لقد طال انتظاري يا بني وخفت ان أموت قبل ان اراك واني ندري . . » قالت ذلك وخنقتها العبرات

اما هو فتجلد وقال « ما الذي يبكيك ياسيدي احمدي الله على لقائي » فراجعت وامسكت عن البكاء وقالت « اني احمد الله حمداً كثيراً يا بني على رجوعك سالماً . من اين انت آت الآن ؟ » قال « من بغداد »

قالت « وهل توقفت الى ما أردت . . »

قال « توقفت وجئتك بما تطلبين »

قالت « وقد دهشت « جئت برأسه ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

قالت « أين هو ؟ »

فأشار الى الصندوق وقال « هو في هذا الصندوق »

فمدت يدها لتتناول الصندوق وقد نشطت كأنها استعادت شبابها وقالت « في هذا الصندوق ؟ افتحه . . أرني رأس مولاي . . ارني اياه لأتمتع برؤيته قبل انقضاء أجلي . . »

فقعد معتدلاً والتفت الى العبد فانصرف من الغرفة . فلما خلا بالعجوز أخذ

يعالج الصندوق حتى فتحه واستخرج جمجمة وضعها بين يديها وقد فاحت رائحة  
التراب المتعفن فنظرت الى الجمجمة بعينين محمقتين وصاحت « هذا هو رأس  
أبي مسلم . . هذا هو رأس والدي البطل . انك أحييته يا بني ، وأخذت تقبل  
الرأس وقد شرقت بدموعها

أما هو فكاد يبكي معها ولكنه تجلد وقال « وستفرحين يا سيدتي متى  
انتقمتم له . . »

قالت وقد تماسكت رغم ما كان يبدو من ارتعاش أناملها « نعم يجب  
أن تنتقم له وأنا إنما دعوتك « كيفر » رغبة في ذلك . . ان اسمك يا بني  
معناه الانتقام .. انك ستنتقم لهذا القتل ظلماً . وكيف عثرت عليه وقد بلغنا  
أنهم رموه في دجلة ؟ »

قال « كنت أظن ذلك ولكنني توقفت الى شيخ كان حاضراً مقتله ودلني  
على مدفنه في المدائن وأعاني على استخراجه .. هذا هو رأس أبي مسلم بلا  
ريب تفرسي فيه جيداً . . »

فأعدت النظر الى الرأس وعيناها تغشاها الدموع وقالت « نعم هو  
بعينه ويدلني على ذلك خفقان قلبي . . هذا هو رأس والدي أبي  
مسلم . . كيفر يا كيفر انك نعم الرجل أنت . . انك ستنتقم له . . هل آن  
وقت الانتقام ؟ »

قال « قد آت يا سيدتي . . وآن أن تفصي على خبري وأصل نسي  
وتمنحيني الوديعة التي وعدتني بها وقلت إنني سأستخدمها في ذلك الانتقام »

قالت « انها حاضرة يا ولداه تمهل قليلاً .. ولا بد قبل تسليمك إياها من  
أن اقص عليك خبرها .. اجلس .. الاتحتاج الى طعام اء

قال « كلا يا سيدتي »

## الفصل الخامس والخمسون

### النسب

فنهضت من مكانها وقد تشددت ومشت منتصبة القامة كأنها في عنفوان الشباب وضغطت على كتف بهزاد لتمعه من النهوض معها ومشت الى خزانة في جانب الغرفة وأخرجت من جيبها مفتاحا عالجت الخزانة به حق فتحتها وهو ينظر اليها بلهفة فأخرجت من الخزانة لفافة مستطيلة من الخبز ورجعت بها فوضعتها بين يدي بهزاد وقعدت وهي تقول « أنت تعلم إنى فاطمة بنت أبي مسلم الحراساني ... »

قال « نعم »

قالت ويعتقد الناس وانت منهم انك ربيت في حجري ولا تعرف أبويك»

قال « نعم »

قالت « وانه لا يعرف أبويك أحد سواي »

قال « صدقت »

قالت « ان جماعة الحرمية يكرموني لأنى من دم أبى مسلم ولسكنهم لا يعلمون انك أنت من دمه أيضاً »

فصاح قائلاً « أنا من دم أبى مسلم ؟ وكيف ذلك . . ! »

قالت وهي تبسم « لانك ابني »

قال وقد ظهرت الدهشة في وجهه « ابنك ؟ أنا ابنك ؟ »

قالت « نعم يا ولدي ... انك حشاشة كبدي » وضمته الى صدرها وقبلته

فقبل يدها وقال « وكيف ؟ »

قالت « لأنى تزوجت ولا يعلم الناس إنى خلفت ولدأ من أبيك فيزعمون

انك غلام فقير احتضنتك وربيتك

فتمعجب بهزاد من ذلك والتبس عليه الامر ولم يعد يستطيع صبرأ على السكوت

فقال « وكيف اذا ؟ كيف أنا ابنك »

قلت « لا تتعجب . . . ان أبائك زوجي عمرز بن ابراهيم توفي وانا في حدود الكهولة وقد يئس الناس من حملي ولكنني لما توفي كنت حاملا بك فسترت حتى آن الوضع فولدتك وأخفيت خبرك حيناً ثم أظهرت اني احتضنتك وربيتك ولما كبرت غرست حب جدك ابي مسلم في قلبك ومميتك كيفر أي الانتقام لأن أولئك الظالمين أحرقوا قلبي بقتل جدك تلك القتلة الشنعاء غدرأ ومازلت منذ تزوجت وأنا أعد نفسي بولد من دمي أكرس حياته لهذا الانتقام لان جدك ابا مسلم لم يخلف ولداً ذكراً ينتقم له وطال انتظاري . فلما جئت نذرتك لهذا الغرض . . وقد حفظت من أثر جدك خنجراً لم يخنه قط بل كان النصر مصاحباً له حينما سار به ، قالت ذلك وحلت اللقافة واستخرجت منها خنجراً استلته فلمع فرنده كالبرق ودفعته اليه وقالت « انتقم لأبي مسلم بهذا الخنجر »

فتناول بهزاد الخنجر وقلبه بين يديه ثم قلبه وأغمده وخبأه في جيبه وقال وهو يحسب نفسه في منام « إني إذا حفيد أبي مسلم الخراساني . . قد كنت أجاهد في الانتقام من أجل فضلك في تربيتي فأنا الآن انتقم لجدي . . » ولما قال ذلك ابرقت عيناه وثارَت الحمية في رأسه وتذكر ميمونة — لان الحب يذكر حبيبه على الخصوص في حال سروره أو كدره أما في حال السرور فلكى يشاركه بفرحه وأما في حال الكدر فلكى يتعزى برويته عن مصائبه . ولما تذكر ميمونة تذكر رأساً آخر في ذلك الصندوق فمد يده الى الصندوق وهو يقول « وهنا رأس اخر نحن ناقمون على قاتله ، واستخرج يده وهو قابض على ذلك الرأس من شعرات في ناصيته يس الدم عليها وقد جف جلد الوجه واسود والتصق بالعظم حتى يحسبه الناظر اليه عظماً أسود

فنظرت فاطمة الى ذلك الرأس فلم تعرفه فقالت « رأس من هذا ،

قال « تفرسى فيه . ألم تعرفيه ! »

فتفرست فيه وقالت « لا . . لم أعرفه »

قال « هو رأس جعفر القتيل الثاني »

فصاحت « رأس جعفر ؟ جعفر بن يحيى ؟

قال « نعم يا أماء . انه رأس جعفر المقتول غدرأ ، وحدثه نفسه أن  
يروح لامه بحبه لميمونة فأجل ذلك الى وقت آخر وظل ساكتا وهو يراجع ما  
سمعه من الغرائب في تلك الساعة

قالت وكيف عثرت عليه يا بني ؟

قال « ألم تعلمي أن الرشيد غدر به وقتله ولم يكتف بقتله بل قطع بدنه  
قطعتين نصب كلا منهما على جسر من جسور بغداد ونصب الرأس على  
جسر ثالث . فظلت هذه القطع للحر والبرد والشمس والمطر حتى سافر  
الرشيد الى الري بعد سنين وعند رجوعه عزم على الاقامة في الرقة فمر  
ببغداد وأمر ان تنزل جثة جعفر وتحرق وكنيت في أثناء نصب الجثة قد  
وكلت الى سلمان أن يسعى في الحصول على الرأس فلما اتزوا الجثة أرضى  
الموكل بالاحراق وأخذ منه الرأس فحفظته في هذا الصندوق حتى جمعت اليه  
رأس جدي ،

فأعجبت فاطمة بما أناء ولدها فقبلته وقالت ضع هذين الرأسين في  
الصندوق وضع هذا الخنجر مهمما حتى يأتي وقت تجريده فتقلده وأنت  
فائز باذن الله . . اكنتم ما ذكرته لك كتماناً تاماً عن كل انسان وسيأتي يوم  
تقلده به هذا الخنجر وتقتل به عدوك . . تقتل به بعض ابناء قاتل جدك . .  
ولكن احذر يا بني ان تظهر للملأ ما تعمله فاذا دعيت للحرب فلا تكن قائم  
او اميراً ،

فقال « ذلك ما عزمتم عليه . . وإنما يهمني الانتقام »

فتنهدت وقالت « هل ارى ذلك اليوم واشفى غليلي ؟ »

قال « ارجو أن تريبه وتفرحي بي »

قالت « وستجتمع بالخرمية . فكن لديهم كما يعتقدون بك . هم يعدونك

زعيمهم لأنك ريبي فابق معهم على هذا الحال لكلا يفسد عليك تدبيرك ،

## الفصل السادس والخمسون

### كتاب سلمان

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب وأعد الطعام فمضوا وتناولوه وبات بهزاد (أو كيفر) تلك الليلة وقد أحس بنشاط جديد كأن روح أبي مسلم دبت فيه وتذكر ما علمه من حال الخلافة في بغداد وضعف أمرهم وهو يتوقع أن تسنح الفرصة للانتقام عند ما يخلع الامين أخاه وذلك لا بد منه لعلمه بما دبره سلمان من الاسباب المساعدة على ذلك وأصبح أكثر رغبة في تعجيل الامر من ذي قبل

ونفض في اليوم التالي وسار الى مقابلة جماعة الخرمية ولهم مجتمع سري يجتمعون فيه على أنه اكتفى بمقابلة بعض كبارهم وتردد عليهم وشجعهم وأبلغهم ما شاهده من استعداد أنصارهم في بغداد لنصرتهم بما يملكون وتباحثوا في تدبير الامور والترصص ريثما يأتي الوقت للانتقام وكان هو ينتظر ما يأتيه من أخبار سلمان ببغداد

قضى في ذلك أياماً أو أسابيع ولم يذهب الى الفضل ولا سمع بخبر حتى أصبح ذات يوم واذا بهجان جاءه بكتاب خبأه في نعاله حذراً من أن يطلع أحد فتناول الكتاب وعلم من ختمه أنه من سلمان ففضه وقرأه فإذا هو يقول فيه :

« من سلمان خادم الخرمية الى رئيسهم ومقدمهم بهزاد »

« أما بعد فقد علمت ما نحن ساعون فيه وقد توقفنا الى ذلك بالامس فان الفضل بن الربيع لما قدم من العراق وقد نكث عهد المأمون ما زال خائفاً على نفسه منه اذا ولي الخلافة فأصبح همه النجاة من هذا الخطر فاستعنه رئيس المنجمين . . على تحريض الخليفة ليخلع أخاه من ولاية العهد ويبايع لابنه

موسى ( ابن الامين ) وجعل ابن ماهان يواقفه على ذلك لان الامين كثير الثقة بهذا الشيخ المغرور فقبل الامين رأيهما رغم نصح الناصحين وسمى ابن ماهان شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ولا يبعد أن يوليه قيادة الجيش فاذا انتشبت الحرب كانت قيادته شؤما على هذا الخليفة لان الرجل كثير الغرور بنفسه . وعلمت في هذا الصباح ان الامين كتب الى جميع عماله بالدعاء لابنه موسى بالامرة وأظنه يبعث الى المأمون في خراسان يطلب اليه أن يخلع نفسه فافعلوا ما ترونه ونحن هنا في خير والسلام »

فلما أتى على آخر الكتاب انشرح صدره وشعر أنه تقدم خطوة كبرى نحو الغرض المطلوب وكان يومئذ في منزل والدته فاطمها على الكتاب فاستبشرت وقالت قد دنا الوقت يا بني ولا أظن الفضل بن سهل يجمل ما يجب عليه في مثل هذه الحال واذا جهله فهل تجهله أنت أيضاً ؟ »

قال « ارشديني برأيك يا أماء »

قالت « اذا استفحل الامر بين الاخوين فالفرس ينصرون المأمون على أن ينصرم ويرعى حقهم ولو أرادوا أن يتخلصوا من المأمون ويعيدوا السلطان لانفسهم بدون خليفة أفسدوا تدبيرم وذهب سعيهم عبثاً لان العامة لا يحكمون إلا بالدين فاذا دعاهم داعيان أحدهما خليفة ذهبوا الى هذا »

قال « ولكن معنا خليفة هو المأمون نحكم الناس به »

قالت « وهل يخلد المأمون ؟ فاذا مات انتقل الامر الى بعض أهله ومن يضمن أن يكون خليفته راضيا عنا وقد يكون ناقماً علينا كما كان الرشيد فينتقم منا شر انتقام »

فوقع قولها من نفسه موقفاً عظيماً وأعجب بدهائها وتذكر ما دار بينه وبين كبار الحرمية ليلة الايوان في المدائن وقال « وما الرأي اذن »

قالت « الرأي أن تهيئوا منذ الآن مستقبلاً ثابتاً لأعقابكم . فاذا لم يكن في الحكم بد من خليفة عربي فالعلويون أقرب مودة لنا من سائر العرب فاشتروا على المأمون اذا أعنتموه أن يجعل الخليفة بعده لبعض العلويين

(الشبيعة) فيتم لكم ما تريدون ... اعرض هذا الرأي سرّاً على الفضل بن سهل من عند نفسك وكن عاقلاً حكماً

فلما سمع نصيحتها م بيدها قبلها واستأذنها في الذهاب الى الفضل ليطلعه على كتاب سلمان ويباحته في الامر

وصل القصر في الضحى فدخل ولم يعترضه الحاجب لما يعلمه من منزله عند مولاه فمر في الحديقة وسار توّاً يطلب مجلس الفضل وأخيه فقد كانا يقمان معاً في ذلك القصر فاعترض طريقه قبة في وسط الحديقة رأى يبابها غلاماً فظن الفضل جالساً هنا فتجول وأراد الدخول فاذا بفتاة خارجة من ذلك الباب على غير كافة لأنها لم تكن تعلم بوجود أحد غريب هناك فوقع نظرها على بهزاد فاجفلت وبدت البغته في عياها وتوردت وجتها خجلاً ووقفت لحظة كأنها صنم لا يتحرك وارتبكت في أمرها هل ترجع إلى القبة وفي رجوعها ضعف أو تقابل القادم وتحييه وهي تعرفه وهو لا يجدها . وكانت بلباس البيت وعلى رأسها نقاب خفيف اذا سدته على وجهها لا يغطي إلا بعضه ولما وقع نظر بهزاد على الفتاة أعجب برونق جمالها واشراق عياها وبريق عينيها بما يتجلى فيهما من الذكاء والحياء فخبجل لما سببه لها من الانزعاج عن غير عمد فابتدرها قائلاً « العفو يا مولاتي . أظنني ازعجتك وانا أطلب مولانا الفضل وقد حسبته في هذه القبة على جاري عادته الجلوس فيها صباحاً فقالت وهي تنظر اليه نظر السداجة وصفاء النية « أنت تطلب عمي الفضل إنه خرج مع والدي في هذا الصباح باكراً لمقابلة المأمون وليس في قدومك ازعاج على الاطلاق واذا صدق ظني وكنت بهزاد ؟ » وسكتت كأنها تنتظر جوابه فابتدرها قائلاً « نعم يا سيدتي يسمونني بهزاد »

فقالت « ان والدي وعمي كثيرا الاعجاب بك ولو كانا هنا لفرحنا بقدومك تفضل اجلس اذا شئت »

فأعجب بهزاد بلطف هذه الفتاة وذكاؤها على صغر سنها وعلم أنها بوران بنت الحسن بن سهل وتذكر تلميح عمها بشأنها فرأى أنها جديرة بأفضل الرجال ولو لم يكن قلبه مشغولاً لسكانت نصيباً حسناً فأجابها وقال

أشكرك يا سيدتي على تلتطفك وكنت أود البقاء هنا ولكنني أفضل الذهاب إلى مجلس المأمون لمشاهدة العم والوالد . ائذني لي بالانصراف ، قال ذلك وتحول يطب قصر المأمون وهو قصر الامارة لأن المأمون كان يومئذ أميراً على خراسان

## الفصل السابع والخمسون

### المأمون

وكان المأمون قد جاء خراسان كما علمت فلما مات الرشيد وبلغه ما فعله الفضل بن الربيع من نكث عهده ورجوعه بالبيعة والاموال من طوس إلى بغداد شاور أصحابه من الفرس في مرو عما يفعله وكبيرهم الفضل بن سهل فأشاروا عليه أن يلحق ابن الربيع وأصحابه بجريدة فيردم إلا الفضل ابن سهل فإنه حذره من ترك خراسان لاي سبب كان وقال له « ان فعلت ذلك جعلوك هدية لآخيك ولكن الرأي ان تكتب اليهم كتاباً وتوجه رسولا يذكرهم البيعة ويسألهم الوفاء »

ففعل المأمون ولم يجده ذلك نفعاً فخاف على منصبه فأخذ الفضل يطمئنه وقال له « أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم فاصبر وأنا أضمن لك الخلافة » وأشار عليه ان يظهر التقوى لان العامة لا تحمى بمثل الدين . فتشجع المأمون ولبت ينتظر ما يكون وكان عاقلاً حكيماً لطيفاً وديعاً رقيق الجانب يحب العلم وقد تفرغ له على الخصوص لما أقام بخراسان وفيها جماعة من العلماء فكان يشغل نهاره في مجالستهم ومباحثتهم وقد اطلع على علوم القدماء ولا سيما الفلسفة . وكان ربة في الرجال أبيض جميلاً طويل اللحية خفيف الشعر ضيق ما بين الحاجبين وفي خده خال اسود وفي عينه ذكاء ولطف . واشتهر باللطف والدعة حتى ضرب به المثل (١) وكان قد تربى تربية الشيعة وأحب مذهبهم لأنه شب في حجر البرامكة ثم الفضل بن سهل

ولبت المأمون في خراسان يتشاغل بالمطالعة والتفقه بالعلم ينتظر ما يكون من أخيه الأمين حتى جاءه منه في ذلك اليوم وفد يكلفه أن يبيع ابنه موسى ويقدم اسمه في الخطبة ويدعوه إلى بغداد بحجة أنه قد استوحش لبعده . فارتاب المأمون من هذا الطلب وبعث إلى الفضل ليستشيره في الأمر فجاءه في قصر الإمارة وخلا به في مجلس خاص لم يحضره إلا خواص الأمراء وفي صدرهم الفضل وأخوه الحسن

فقال المأمون « قد جئني من أخينا وفد يطلبون إلى أن أقدم ابنه موسى علي ويدعونني أن أذهب إلى أخي » فقال الفضل « أما ما يطلبه من تقديم ابنه ففيه نكت البيعة والله على الباغي وأما خروجك من خراسان فإن عزمت عليه فانت صاحب الأمر ولكنك لا تبقى لك عليه حجة في الدفاع عنك وليس هذا قولي فقط بل هو قول سائر أهل خراسان وهذا هشام ( كبير وجهاء خراسان ) أسأله « فبعث إليه فاستشاره فقال « إنما أخذت البيعة علينا على أن لا تخرج من خراسان فمتى فعلت ذلك فلا بيعة لك في أعناقنا والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته وحتى همت بالمسير تعلقت بك يميني فإذا قطعت تعلقت بيساري فإذا قطعت تعلقت بلساني فإذا ضربت عنقي كنت أدبت ما علي »

فلما سمع المأمون قوله تشدد وقال له الفضل « هذا هو لسان حال الخراسانيين وهم أخوالك » وأشار عليه باسقاط اسم الأمين من الخطبة والطرز وقطع البريد عنه حتى يستفعل الأمر بين الأخوين . وأكرم المأمون الفضل فولاه الوزارة بكل معانيها للحرب والسلام وسماه ذا الرياستين

وهم في تلك الجلسة دخل الغلام يستأذن لبهزاد الطبيب فسأله المأمون عنه فقال الفضل هو طبيب قصركم في بغداد « فتذكره وقال « يدخل »

فدخل بهزاد وحيا فأشار إليه المأمون بالجلوس فجلس ثم سأله كيف فارق بغداد فقال « فارقتها وهي تندب أهل الصلاح وإذا سألتني أمير المؤمنين عن أهله فقد فارقتم في خير وعافية ولكن ... »

قال « ولكن ماذا ؟ »

قال « ولكن لا اعلم كيف يكون حالهم بعد ما بلغني من استفحال أصحاب المطامع حتى نكثوا البيعة ولا ندري ما يكون من حال بغداد فاذا رأى أمير المؤمنين أن يستقدم اهله اليه فعل . . »

فقال « أصبت أيها الطبيب انى فاعل ان شاء الله »

وبهزاد انما اشار بذلك على المأمون رغبة في استقدام ميمونة ونجاتها من اعدائها ولم يكن سلمان اخبره بشيء مما أصابها في بيت الامين

ثم استأنف الكلام قائلاً « وكيف فارقت ام حبيبة ؟ »

قال « فارقتها بصحة وعافية وهي مشتاقة الى أيها »

فابتسم المأمون عند ذكر ابنته لانه كان يحبها كثيراً ويعجب بذكائها وتعقلها مع صغر سنها وتحقق أن بقاء أهل بيته في بغداد بعد هذا الانقلاب لا يخلو من الخطر فعزم على استقدامهم فنظر عند ذلك الى الفضل وكان جالساً الى جانبه فقال « وكيف ترى الطالع اليوم هل يوافق أن نرسل فيه من يحمل الينا أهلنا ؟ »

فاستخرج الفضل من جيبه اسطراً لاباً صغيراً من الذهب كان لا يفارق جيبه وأطل من بعض نوافذ القصر ونظر فيه وعاد فقال « ان الذهاب اليوم لا بأس به ياسيدي واذا كان في الغد فانه أفضل »

فأمر المأمون خادمه نوفلاً ان يسافر من الغد لاستقدام أهل بيته والتفت الى الفضل فقال « وماذا نجيب الوفد ؟ »

قال « الرأي لأمر المؤمنين واذا أذن بإبداء رأيي فارى أنت ترد الوفد خائباً فانك بين اخواتك امنع منه في بغداد بين رجاله وكلهم يداجونه رغبة في الدنيا . . والافضل ان تلاينه وتكتب اليه كتاباً رقيقاً لا تظهر فيه عزمك على مناوئته وتلطف في استعطافه فان ذلك اقرب الى الدهاء في السياسة » فاستحسن المأمون رأي الفضل وكتب الى أخيه الامين كتاباً هذا نصه « اما بعد فقد وصل كتاب امير المؤمنين وانما انا عامل من عماله وعون من اعوانه امرنى الرشيد بلزوم الثغر ولعمري إن مقامى به ارد على امير المؤمنين

وأعظم غناء للمسلمين من الشخصوس وان كنت مقتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة  
نعمة الله عنده فان رأى امير المؤمنين ان يقرنى على عملي ويعفينى من الشخصوس  
فعل ان شاء الله ، ودفع الكتاب الى رئيس الوفد

ثم تحرك المأمون فعلم أهل المجلس انه ينبغي الانصراف فنهضوا وأكثروا  
رغبة في حل تلك الجلسة بهزاد لانه يحب أن يبلغ الفضل رأى والدته من أمر  
تلك البيعة لأحد العلويين على أن يجعل ذلك شرطاً من شروط نصرة المأمون  
فصبر بهزاد حتى رجع الفضل الى منزله فتعقبه وطلب الخلوته به فلما خلوا  
بدأ بهزاد في الثناء على ما أبداه الفضل من الرأى الصائب في تلك الجلسة ثم مد  
يده ودفع اليه كتاب سلمان وقال « اقرأ هذا الكتاب »

فقرأه ولم يأت على آخره حتى غلب عليه الضحك وقال « اذا صح ما  
يظنه سلمان وعهد الامين بقيادة جنده الى ابن ماهان كان ذلك تنمة توفيقنا  
وهذا ما كنت أتمناه وأسعى فيه لان ابن ماهان فضلا عن غروره وضعفه فقد  
تولى خراسان أيام الرشيد وأساء السيرة في أهلها وظلمهم فعزله الرشيد لذلك  
ونفر أهل هذه البلاد منه وأبغضوه (١) فاذا حاربوه انما يحاربونه وهم ناقدون  
عليه . وهو مع ذلك يظن أهل خراسان يحبونه لان بعضهم خدعوه بكتب  
بعثوا بها اليه يعدونه اذا جاءم سلموا له وهذا ما كنت أتمناه منذ بدأ  
الخلاف بين الاخوين ولذلك قلت إن تعيين ابن ماهان لقيادة الجند تنمة  
توفيقنا »

فقال بهزاد « ماذا تعنى بتوفيقنا يا مولاي ؟ »

قال « أعنى أن نتصر على الامين ونخلمه ونولى المأمون مكانه »

قال « وما الفائدة لنا من ذلك أليس كلاهما عباسياً عربياً وكلاهما ابن

الرشيد قاتل جعفر وحفيد المنصور قاتل أبي مسلم ؟ »

قال « ولكن المأمون ابن اختنا وعلى مذهب الشيعة مثلنا وهو صنيعتنا

يعمل برأينا فيكون التفوذ لنا »

قال « هل تضمن أنه يبقى على ولائنا؟ وإذا ضمنت ذلك فهل تضمن اذا مات أن يكون خليفته مثله؟ فهل تأمن لبني العباس بعد ما ظهر من غدوم بنا وبغيرنا غير مرة؟ »

وكان الفضل يسمع قوله وهو مطرق كأنه أفاق من رقاد فلما بلغ الى هنا رفع الفضل بصره اليه وقال « صدقت يا بهزاد... وقد فهمت مرادك... انك أصبت كبد الحقيقة ولا بد أن تتدارك ذلك من اليوم... وعاد الى الاطراق وهو يحك عثونه ثم قال « ان الخلافة لا بد منها للسيادة وهي لا لا تكون الا في آل النبي من بني هاشم... واقربهم مودة الينا العلويون... وبين ظهرانينا منهم اليوم على بن موسى الرضا من أعقاب الحسين بن على بن ابي طالب وهو عاقل حكيم والمأمون يحبه ويقدمه فاشتراط على المأمون من الآن أن يجعله ولي عهده فتنتقل الخلافة بعد موت المأمون من العباسيين الى العلويين... وهو تمام الظفر » ولما قال ذلك أشرق وجهه وقال بهزاد « انه الرأي الصواب يا سيدي » ونهض للخروج فقال له الفضل « اذا أتاك مثل هذه الرسالة من سلمان اطلعن عليها »

رجع بهزاد الى منزل والدته وهو في قلق لغياب ميمونة وليث يتوقع مجيء بيت المأمون بفارغ الصبر لاعتقاده أنها معهم

## الفصل الثامن والخمسون

### حملة ابن ماهان

ودخلت سنة ١٩٥ هـ وقد جاهر الامين بخلع أخيه واسقط نقودا كان قد ضربها المأمون بخراسان باسمه وليس عليها اسم الامين وأمر فدعى لابنه موسى على المنابر ولقبه الناطق بالحق وقطع ذكر المأمون وبايع لابنه الآخر عبد الله ولقبه القائم بالحق

أما المأمون ففاوض الفضل في التجنيد فاعتنم الفضل الفرصة واشترط عليه مبايعة على الرضا زعيم الشيعة في خراسان بعده فعظم ذلك على المأمون

ولكنه لم يربداً من أن يطاوعه فوعده اذا هو نجح في حربه ووظف على اخيه ونال الخلافة جعل على الرضا ولي عهده . واجتهد ذو الرباستين ( الفضل ) في التأهب للحرب والتجنيد فاعد جنداً بقيادة طاهر بن الحسين للملقب ( ذا اليمينين ) وانفذه الى الري لملاقاة جند الامين اذا جاءوا يطلبون خراسان وكان طاهر قائداً باسلا مع صغر سنه بالنظر الى ابن ماهان أما بهزاد فقد كان في اثناء ذلك يترقب رجوع بيت المأمون وورود الخبر من سلمان وعرض عليه الفضل أن يتولى قيادة الجند فأبى وبعد أن مل الانتظار جاءه كتاب من سلمان هذا نصه :

« لقد صدق ظني ونجح سعيي وقد تعين ابن ماهان رئيساً للجند الذاهب لمحاربتكم فاكتب هذا اليك والجند خارج من بغداد بقيادته وقد شيعه الامين نفسه . وذكر مشايخ بغداد أنهم يروا عسكرياً أكثر رجالا وأوفر كراعا وأتم عدة وسلاحاً من عسكريه وهو يعتقد أن اهل خراسان يحبونه وانه جاءه منهم كتب يعدونه فيها بالطاعة اذا جاءهم . ولما علم ان طاهر بن الحسين رئيس جند المأمون استخف به وقال إنما طاهر شوكة من أغصاني ومماثل طاهر يتولى الجيوش ثم قال لأصحابه « ما بينكم وبين أن ينقصف انقصف الشجر من الربيع العاصفة الا أن يبلغه عبورنا عقبة همدان فان السخال لا تقوى على النطاح والبغال لا صبر لها على لقاء الاسد وان اقام تعرض لحد السيف وأسنة الرماح واذا قاربنا الري ودنونا منهم فت ذلك في أعضادهم » فصدق الامين قوله فولاه امرة الجند وأقطعه كور الجبل كلها وولاه حربها وخراجها وأعطاه الاموال وحكمه في الخزائن وجهز معه خمسين الف فارس وكتب الى أبي دلف العجلي وهلال الحضرمي بالانضمام اليه وأمدته بالاموال والرجال شيئاً بعد شيء . وقد خرج ابن ماهان بمحملة من هنا والناس يتوهمون أنه ظافر لا محالة لكبر سنه . ولما ذهب لوداع زبيدة أم الامين على جاري العادة كان همها وصايتها ان يرفق بالمأمون اذا قبض عليه فقالت له « يا علي ان أمير المؤمنين وان كان هولدي واليه انتهت شفقتي فاني على عبد الله ( المأمون ) متعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى وانما ابني ملك نافس أخاه

في سلطانه الكريم يا كل لحمه وبقية غيره فاعرف لعبد الله حق ولادته وأخوته ولا تجبه بالكلام فانك لست بنظيره ولا تفتسره افتسار العبيد ولا توهنه بقيد ولا غل ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً ولا تعنف عليه في السير ولا تساوه في السير ولا تركب قبله وخذ بركابه وان شتمك فاحمل منه ، ثم دفعت اليه قيداً من فضة وقالت « ان صار اليك فقيد بهذا القيد » فقال لها سأفعل مثل ما أمرت وأوصاه الامين أيضاً بمثل ذلك . وقد علمت أن مولانا المأمون بعث في استقدام أهل بيته اليه ولا يلبثون أن يصلوا اليكم وانت تتوقع أن ترى ميمونة معهم فلا يشق عليك أن لا تراها فانها باقية هنا ولم أخبرك من قبل حتى لا أشغل بالك عليها . وأما الآن فلا سبيل الى كتمان ذلك عنك لانك ستعلمه من دنانير أو غيرها . فاعلم ان ميمونة مقيمة في بيت الخليفة ولا خوف عليها وسبب مجيئها اليه طويل ستقصه عليك دنانير شفاهاً ولا يزعجك ذلك طالما كنت في منصي حريص على سلامتها والسلام » اهـ

فلما قرأ بهزاد الكتاب اسودت الدنيا في عينيه رغم ما حواه من الاخبار البشيرة بالنجاح بسبب ما جاش في صدره من عوامل الغيرة على ميمونة اذ تصور انها في بيت عدوه وتقم على سلمان لسكتان ذلك عنه ووقع في حيرة لا يدري ماذا يعمل أخرج من مرو الشاهجان لملاقة ابن ماهان في الري أم يمكث حتى تأتي دنانير ويستفهمها عن خبر ميمونة فغلب عليه هواه — والمحب مغلوب على أمره — ومكث ينتظر مجيء أهل المأمون ليطمئن على ميمونة قبل ذهابه للحرب . وعلمت والدته بذهاب الجند الى الري وعجبت لبقائه عندها فقالت له « ان الخنجر في هذا الصندوق ومتى أنت ذاهب ؟ »

فخجل وتناول الصندوق وقال « اني ذاهب الساعة وقد جئت لوداعك فادعني لي »

فكشفت عن صدرها وولت وجهها الى السماء وبسطت ذراعها وصاحت « ان الله عونك على القوم الظالمين الذين قتلوا جدك غدواً وسلبونا حقوقنا وحرموننا من ثمار اعمابنا » ونهضت حتى ضمت بهزاد الى صدرها بحرارة

وقبلت عنقه وطال عناقها له . ثم أحس بماء ساخن ينحدر على عنقه ونفسه  
حار يهب حوله فعلم أن والدته تبكي فآثر فيه ذلك كثيراً وكاد يبكي معها ولكنه  
تجدد وقال « لماذا تبكين يا أماء ؟ »

فرفعت رأسها عنه وقد تكسرت أهدابها من البكاء وبان الحزن  
والسكابة في وجهها وقالت أبكي يا ولدي لاني لا ادري هل أراك ثانية ،  
قال « ارجو ان اعود سالماً ظافراً واراك في صحة وعافية وتفرحني بما  
أصنناه من الانتقام لجدى »

قال ذلك وقبل يديها وما بين يديها وتناول الصندوق فأخرج الخنجر منه  
فتقلده ولبس ثياب السفر والتف بالعباءة فوق القباء والسراويل وتلمثم  
بالكوفية فوق القلنسوة وجيء اليه بفرسه فركبه واراد أن يأخذ الصندوق  
معه فامسكت به امه وقالت « دع هذا الصندوق هنا وفيه رأسان عزيزان فاما  
ان تشفعهما برأس أو غير رأس من رهوس اعدائنا قتلة جدك او ان يبقى  
الرأسان هنا فنستأنف البكاء عليها حتى نموت »

فآثر قولها في نفسه وقال « بل أرجو ان لانستأنفوا البكاء يا أماء » وترك  
الصندوق عندها وحول شكيمة جواده ومضى ولم يسر مسافة حتى انتبه لنفسه  
ورأى انه سيق الى ذلك الرحيل خجلاً من والدته وقلبه لا يطاوعه على ترك  
مرو قبل مشاهدة دنانير واستطلاع حال ميمونة وتقم على سدان لانه لم يبسط  
خبرها في كتابه

ظل بهزاد راكباً وهو يسير في أسواق مرو والجواد دليله حتى خرج  
من المدينة فلما صار خارجها أصبح يعلل نفسه في ملاقات اهل بيت الأمون  
قادمين بقافلتهم في أثناء طريقه لان نفسه لم تطاوعه على الرجوع الى مرو بعد  
أن ودع والدته واخبرها أنه مسافر

## الفصل التاسع والخمسون

### حديث دنانير

قضى في طريقه أياما وعيناه شائعتان الى الافق وكما رأى قافلة أو فارسا أو جماعة ظن أهل بيت المأمون قادمين وما زال في ذلك حتى أصبح على بضع مراحل من مدينة الري حيث يقم عسكر طاهر بن الحسين . وأصبح ذات يوم وهو على مقربة من قافلة عرف عن بعد أنها تحمل نساء من أهل البيوتات لما فيها من الهواجج واحمال الثياب والحيام وما في خدمتها من الغلمان والعبيد فدنا منها وسأل مقدمها فأخبره انها تحمل بعض أهل المأمون فطلب مشاهدة دنانير فاخذوه اليها وهم يخافونه على ان بعض الغلمان عرفوه فدلوه على هودج دنانير فلما رآته امرت القوم في اناخة الاحمال قليلا فاناخوها وترجل بهزاد وأخذ في الاستفهام عن ميمونة فقال « كتب الى سلمان ان ميمونة في بيت الخليفة فما الذي ذهب بها الى هناك »

فقصت عليه خبرها كما وقع تماما منذ جاءها الشاكري الى ان عادت هي وزينب من عند الامين خائبتين .. »

فقال « وماذا جرى لها بعدئذ ؟ »

قالت « لا بأس عليها في بيت الخليفة فقد وعد الامين ابنة اخيه أن لا يسمح بسوء يصيبها واظن سلمان خادمك حريصا على راحتها ولا بد ان يتعدها »

فظنها بهزاد تعرف اين هو سلمان فقال « وهل تعلمين اين هو سلمان » قالت « لا ادري من امر هذا الرجل شيئا . . وربما غاب اشهرآ ثم يظهر بغتة وقد رأيت قبل سفرنا وأوصاني أن اطمئنك عن ميمونة ولعله كتب اليك فوصل كتابه قبلنا لان الكتاب يرسل على هجين ونحن نسير بالاحمال والانتقال »

فلم ير بهزاد بدا من سرعة المسير الى بغداد للبحث عن ميمونة ولكنه

تذكر مهمته والحرب فقال « وهل رأيتم جنود الأيمن »

قالت « رأيناها وراقناها معظم الطريق »

قال « وأين هي الآن ؟ »

قالت « هي على عشرة فراسخ من الري وبلغني أن قائدها ابن ماهان مغرور بنفسه ومعز بكثرة جنده وإذا كان ما بلغني صحيحاً كان الخوف على طاهر شديداً »

قال « وما ذلك »

قالت « بلغني أن جند ابن ماهان يزيد على ٥٠٠٠٠ مقاتل ولا يزيد جند

طاهر على ٤٠٠٠ »

فاطرق بهزاد ثم قال « ليست الغلبة للكثرة وإنما هي للشجاعة والصبر »

قالت « ان الغلبة للشجاعة ولكن اربعة آلاف كيف يقفون أمام خمسين ألفاً وعدت أيضاً أن طاهراً خرج بجنده القليل من مدينة الري وعسكر على خمسة فراسخ منها . ولو بقى في المدينة لكان له في حصونها ما يعضه من الهزيمة »

قال « قد أحسن ابن الحسين لانه يخاف أهل الري اذا انهزم مثل خوفه جنود الامين . واذا أحسن الرأي بادر الى الحرب قبل ان يعرف عدوه قلة جنده »

فقالت « ويظهر انه عازم على ذلك وكنت احسب عمله خطأ فلم أصدق الخبر عنه وذلك أن بعض اصحاب طاهر قال له « ان جندك القليل قد هابوا هذا الجيش الكثير فلو أخرت القتال الى ان يشامهم أصحابك ويأنسوا بهم ويعرفوا وجه المأخذ من قتالهم » فقال « إني لا أوتي من قلة تجربة وحزم ان اصحابي قليل والقوم عظيم سوادهم كثير عددهم فان أخرت القتال اطلعوا على قلتنا واستألوا من معي برغبة ورهبة فيخذلني أهل الصبر والحفاظ ولكني ألف الرجال بالرجال وأقحم الخيل على الخيل وأعتمد على الطاعة والوفاء وأصبر صبر محتسب للخير حريص على الفوز بالشهادة فان نصرنا الله فذلك الذي نريده ونرجوه وان تكن الاخرى فليست بأول من قاتل وقتل وما عند الله أجزل وأفضل »

فأعجب بهزاد ببسالة طاهر وحزمه وأحب الفراغ من الحديث فقال  
 « فالآن اتم ذاهبون الى مرو... »  
 قالت « نعم . وانت ؟ »  
 قل « انى سائر الى الري ثم الى بغداد ... أين أم حبيبة ؟ »  
 قالت « في هودجها هل تريد ان تراها ؟ »  
 قال « كنت أود ذلك لولا العجلة أهديتها سلامي واسمحي لى بالانصراف »  
 قال ذلك وركب فرسه وودعها وانطلق يتنازعه عاملان — يدعوهم  
 الواجب الى نصره طاهر في حرب ابن ماهان ويستحشبه قلبه على السعى في انقاذ  
 حبيته من بين يدي أعدائه وقد زاد رغبة في ذلك بعد ان فهم من خلال  
 حديث دنانير ان السبب في انتقال ميمونة الى بيت الامين رغبة ابن الفضل  
 في التزوج بها — وكيف يصبر على ذلك وان اكدت له دنانير ان الرجل  
 لم يبق له سبيل اليها طالما كانت في بيت الامين وان الحب كثير المخاوف  
 سيء الظن

## الفصل الستون

### ساحة الحرب

ما زال سائراً على فرسه وقد التف بالعباءة وتلمم بالكوفية وتقلد الخنجر  
 تحت العباءة فضلا عن السيف ومر بالرى في الضحى وتأكّد من أحاديث  
 القوم ان طاهراً ينوى المبادرة الى القتال قبل أن يكتشف عدوه قلة  
 رجاله . ولم يسر طويلاً حتى سمع قرع الطبول للحرب وقد علت الضوضاء  
 وتصاعد الغبار فصعد الى اكمة أشرف منها على سهل فرأى الجيشين قد تأهبا  
 للقتال والفرق بينهما كبير فأوجس خيفة على جند طاهر وصمم على ان لا  
 يبرح المكان حتى يرى النصر لجند المأمون ولو كلفه ذلك حياته . وكان ابن  
 ماهان قد عبأ جنده ميمنة وميسرة وقلبا وعبأ عشر رايات مع كل راية مائة

رجل وقدمها راية راية وجعل بين كل رايتين غلوة سهم وامر امرأها اذا قانت الراية الاولى وطال قتالهم أن تتقدم التي تليها وتتأخر هي حتى تستريح ووقف ابن ماهان نفسه مع شجعان أصحابه

أما ظاهر فانه عبأ أصحابه كراديس كل كردوس كتيبة بصفوفها وكردوس طاهر في الوسط ومشى بجنده على هذه الصورة وهو يحرضهم على القتال والصبر . ولحظ بهزاد ان جماعة من رجال طاهر فروا الى ابن ماهان فشق ذلك عليه ولكنه لو علم سوء تدبير ابن ماهان وانه بدلا من ان يكرم اولئك الفارين ليرغب غيرهم في المسير اليه امر بجلدهم واهانتهم وتمذيبهم مما اغضب الباقيين عليه . وظل بهزاد واقفاً وعيناه شائعتان وقلبه يخفق رغبة في الاشتراك في تلك المعركة ولكنه لبث يترقب الفرصة المناسبة

وبهزاد واقف على تلك الصورة اذا بطاهر بن الحسين على فرسه قد خرج من جنده حتى اشرف على جند ابن ماهان وبيده رمح قد اشعره وفي رأسه رق كبير علم من شكله انه صورة البيعة التي اعطيت للمأمون . فوقف طاهر بين الصفيين وطلب الأمان من ابن ماهان حتى يتكلم فامنه ورفع الرمح بيده والبيعة معلقة به وقال « ألا تتقي الله عز وجل اليس هذه نسخة البيعة التي اخذتها أنت خاصة ؟ . اتق الله فقد بلغت باب قبرك »

فغضب ابن ماهان لهذه الاهانة وأمر بالقبض على طاهر فلم يستطع أحد ذلك . ولم يسمع بهزاد شيئاً من كلام طاهر لبعده ولكنه فهم خجواه . وما عثم ان رأى الجيشين يتحركان للالتحام فهجمت ميمنة ابن ماهان على ميسرة طاهر فانهمزمت هذه هزيمة منكورة وفعلت ميسرة ابن ماهان مثل هذا الفعل على ميمنة طاهر فازالوها بخفاف بهزاد وتحركت حميته واوشك ان يسوق جواده الى وسط المعركة لينصر طاهرا ولكنه تجلد ليرى له مدخلا نافعا . وما فتىء يستجمع الهاربين ويردم ويحرضهم على الرجوع وهو يجول على جواده ملثما ويخاطب الفارين بالفارسية بكلام محمس ويعيرم بالفرار ويحقر ابن ماهان ورجاله في اعينهم فكان لكلامه وقع شديد على نفوسهم فاخذوا يرتدون

وكان طاهر من الجهة الاخرى يحرضهم على الثبات والصبر فصبروا واجتمعت قلوبهم وحملوا على عدوم حملة شديدة من جهة القلب فهزموهم واكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض فانتفضت ميمنة ابن ماهان وكانت ميمنة طاهر وميسرته قد تشددتا من كلام بهزاد وعادتتا الى المعركة فتشدد قلب طاهر وقوى جنده كأن بهزاد بث فيهم روحاً جديدة فتقهقر جند ابن ماهان تقهقراً قبيحاً

فلما رأى ابن ماهان تقهقر جنده اخذه الرعب وخاف الفشل فنهض بنفسه وأقبل يحرض رجاله على الثبات ويعدم بالمال ويقبح عمل طاهر ورجاله فرأى بهزاد الفرصة قد آنت للعمل وان هذا الانكسار لا يكون قاضياً باناً إلا اذا قتل القائد السكبير فكر بنفسه كالصاعقة وبده على خنجره لا يبالي بما يتساقط حوله من النبال أو يتكسر من الحراب حتى دنا من ابن ماهان وصاح فيه « قف ايها القائد ولا تقل إني أخذتك غدراً »

فتحول ابن ماهان نحو بهزاد ولم يعرفه من تحت اللثام لكنه استل سيفه وضربه نغلاً بهزاد من الضربة واستل خنجره كالبرق الحاطف وطعنه في صدره نغراً قتيلاً ورجع بهزاد من المعركة وقد اكتفى بما فعله ولم يعد يراه أحد . وشاع في العسكر أن ابن ماهان قتله أحد رجال طاهر بسهم ثم احتذ بعضهم رأسه وحمله إلى طاهر وشدت قدماء إلى رجليه كما يفعلون بالدواب وحمل على خشبة إلى طاهر فأمر به فالقى في بئر . واعتق طاهر من كان عنده من غلمانة شكراً لله تعالى وتمت الهزيمة على جند الامين ووضع أصحاب طاهر فيهم السيوف وتبعوم فرسخين واقموم فيهما اثنتي عشرة مرة في كل ذلك ينهزم عسكر الامين وأصحاب طاهر يقتلون ويأسرون حتى حال الليل بينهم وغنموا غنيمة عظيمة . ونادي طاهر « من التي سلاحه فهو آمن » فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم ورجع طاهر إلى الري وكتب إلى المأمون وذي الرياستين « بسم الله الرحمن الرحيم كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس عني ابن عيسى بن ماهان بين يدي وخاتمه في اصبعي وجنده مصرفون تحت أمري والسلام » فورد الكتاب مع البريد في ثلاثة أيام وبينهما نحواً

من خمسين ومائتي فرسخ. فدخل ذو الرياستين على المأمون فبأنه بالفتح وأمر  
الناس فدخلوا وسلموا عليه بالخلافة ثم وصل الرأس بعد الكتاب بيومين  
فطيف به في خراسان

## الفصل الحادي والستون

### موكب زبيدة

ولمعد الى ميمونة فقد تركناها في بيت الامين ببغداد كأنها على  
مقالي البحر وحيدة غريبة لم تر سلمان ولا عرفت مقره حتى ظنته مات أو  
لحق بهزاد واشتافت الى جدتها واستوحشت لبعدها وهي لا تعرف مكانها  
فكانت تقضي نهارها منفردة تتظاهر بأحرف في صحتها أو دوار في رأسها  
فاذا خلت بنفسها استخرجت كتاب حبيبها وقلته وكررت قراءته استثناساً  
بصاحبه . وكلما كررت ما قاله من عبارات النعمة على العباسيين وتهديده  
ايام بالانتقام يخلج قلبها في صدرها حذراً من وقوع ذلك الكتاب في يد  
بعض أعدائها ولكنها كانت حريصة على اخفائه لا تثق باحد ممن حولها من  
الجواري أو الوصائف . ولم تكن تثق بغير فريدة قهرمانه القصرلات  
دنابير قد اوصتها بها وهي من صديقات دنابير العجيين بتعلها وحكمتها .  
فكانت ميمونة ترتاح الى فريدة ولكنها تخافها على سرها لعلمها بنفسى  
الجانسية فلم تطلعها على شيء من أمر الكتاب أو بهزاد على أنها مع  
ذلك لم تعد تسمع شيئاً عن بهزاد ولا سبيل الى أخباره الا على يد سلمان وهذا  
لم يعد يظهر لها ولا هي تعلم انه في ذلك القصر على قاب قوسين منها وانه اختفى  
عنها لغرض في نفسه

قضت في ذلك أياما لا تدري ما يصير اليه أمرها ولا تنبأ بما تراه  
في جواري القصر ونسائه من الاشتغال باللهو والضحك أو سماع  
الغناء أو الضرب بالآلات أو غير ذلك فاذا رأتهم في مجلس انس انفردت

في غرفتها واستخرجت كتاب بهزاد وأخذت تقرأه فإذا سمعت وقع خطوات أو صوت متكلم أخفت الكتاب في جيبيها . واتفق مرة أنها أحست بالوحشة وأرادت الاستئناس بذلك الكتاب فأرادت تناوله من جيبيها فلم تجده فأحست كان قلبها سقط بين قدميها وأعدت البحث جيداً فلم تقف له على أثر تخافت خوفاً شديداً وزادت وحشتها من الانفراد هناك وأحست بافتقارها الى رفيق يؤنسها فلم تجد خيراً من أن تستدعي جدتها اليها فكتبت الى دنانير بطاقة تشكو فيها استيحاشها وتسال عن جدتها وتوسلت الى القهرمانة في إيصال تلك البطاقة الى دنانير في قصر المأمون وكانت فريدة تتمنى القيام بخدمة وفاة لحق دنانير فأسرت في ارسال البطاقة سرّاً

فلما وصلت البطاقة الى دنانير اهتمت بها كثيراً لأنها تحب ميمونة وتحب لها الراحة فسمعت في ارسال جدتها اليها بعد أن أطلعته على بطاقتها فقالت عبادة « ارسليني اليها ودعيني أموت عندها وكنت أحسبها يطلق سراحيها في بضعة أيام فاذا هي باقية الى أجل غير مسمى »

فقال دنانير « هل تذهبين اليها متكررة ؟ »

قالت « أخاف اذا عرفوني أن يزيدوا التضييق على ميمونة »

فقال « أرسلك الى صديقتي فريدة وأخبرها انك مريية ميمونة وأوصيها

أن تقيمك معها ولا أظنها الافاعلة »

فأثنت عبادة على غيرتها ولبست ثيابها وودعتها وركبت حماراً نحو مدينة المنصور والرسول يسير معها حتى أتيا قصر المنصور فدفع الرسول كتاب دنانير الى القهرمانة فأدخلت عبادة الى القصر ولم تخف عليها حقيقة حالها كما انها لم تكن تجهل من هي ميمونة لكنها تجاهلت في الحالين رغبة في اخفاء ذلك عن سائر أهل القصر لأنها كانت من جملة الذين غمرتهم نعم البرامكة وحملوا على كتمان شكرهم . ولانسل عن سرور ميمونة بجدتها حتى أصبحت لا يهمها احتباسها هناك اذا طال . ولم تجد بدا من اطلاعها على ما دار بينها وبين بهزاد وما تبادلاه من عواطف المحبة حتى بلغت الى الكتاب فاخبرتها بضياعه ولم تكن عبادة غافلة عما بين الحبيبين ولكنها كانت تتجاهل أحيانا وقد ساءها

جداً ضياع كتاب بهزاد في ذلك القصر وأصبحت تخاف عاقبة ضياعه  
أما سلمان فكان في أثناء ذلك يسعى في اغراء الامين على خلع أخيه بواسطة  
الفضل بن الربيع وابن ماهان . فالج الفضل على الامين بخامه خدمة لمصلحة  
نفسه لانه كان يخاف انتقام المأمون منه اذا أفضت الخلافة اليه . وكان الامين  
يتردد في الأمر ان لم يكن خوفاً من العواقب حفظاً للعهد او عملاً برابطة الاخاء  
فلما سمع مشورة الفضل مال الى العمل بها وبقي عليه ان يشاور والدته زبيدة  
لانه كان شديد الاعتقاد بسداد رأيها وهي تقيم يومئذ في قصرها دار القرار  
بقرب قصر الخلد فتردد بين ان يركب اليها او يستقدمها اليه في قصر المنصور

فكر في ذلك حيناً ثم غلب عليه اللهو فاشتغل بصيد السمك من بركة كبيرة  
في حديقة القصر فيها سمك مجلوب اليها تحمل قصبه فيها صنارة وجعل يصطاد  
السمك من تلك البركة وحوله جماعات من الوصفاء الحصيان بالبسة النساء  
يعدون بين يديه في تهيئة الصنارة او تنفير السمك من بعض اطراف البركة  
الى حيث التي صنارته وبعضهم يحملون شبكا وآخرون يعدون القصب او  
الصنانير او غير ذلك وهو مشتغل بهواه معجب بنشاطه يداعب الوصفاء اظهاراً  
لقوة عضله فيلقط احدهم بيده ويرفعه حتى يلقيه في الماء فيضحك الباؤون منه  
ويطرون قوة امير المؤمنين ويعاجزون عن الاتيان بمثلبها وبالْحَقِيقَةُ ان الامين  
كان قوى البدن كثيراً حتى ذكروا انه صارع الاسد وصرعه

وهو في لهوه جاء بمض الغلمان يقول ان موكب مولاتنا والدة امير  
المؤمنين قادم ،

فسره قدومها وتذكر رغبته في استشارتها فامر باعداد ما يلزم لاستقبالها  
فاخذ قيم القصر وقيمتها في ترتيب الوصائف والوصفاء صفوفاً وفي جملتهم فرقة  
من الجوارى المقدودات الحسان كانت والدته زبيدة قد اهدتهن اليه لما رأت  
اشتغاله بالخدم والغلمان عن النساء فانخذت هؤلاء الجوارى والبستين لباس  
الغلمان فعممت رءوسهن وجعلت لمن الطرر والاصداغ والاقفية والبستين  
الاقفية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت اردافهن وبعثت بهن اليه

فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس (١) من الخاصة والعامّة فقلده بعضهم في ذلك . فلما سمع يقدم والدته في ذلك اليوم علم أنه اذا لاقاها بصفوف بينها صف من أولئك الجوّاري تسر منه فامر القيم بترتيب الغلمان صفوفاً يرأسها كوثر الذي اشتهر بافتتانه به (٢) فصفت فرق الحصيان والجوّاري فضلا عن الغلمان الجرادية والحباشان الغراية وكل فرقة بلبس خاص وأوان خاصة ومن أشكال الالبسة القصير والطويل بين أحمر وازرق وسماوي ووردي وأصفر وفيهم الغلمان باللبسة النساء والنساء باللبسة الغلمان يتخللهم العوادون وأصحاب الطنابير والمزاهر

فاصطف الخدم على هذه الصورة من باب القاعة إلى باب القصر الخارجي صفوفاً وبين يدي الصفوف غلمان بعضهم يحرق البخور وآخرون يحملون الازهار وآخرون ينددون الاشعار ومشى الأمين بين الصفيين لاستقبال والدته الى باب القصر . وكانت في قبة من خشب الصندل منزلة بالفضة والآبنوس عليها ستائر من الوشي معلقة بكلايب الذهب والفضة . والقبة قائمة على هودج يحمله بغلان عليها سرجان من الفضة يقودها غلمان عليهم أقبية من الديباج المزركش وقد نقشت عليها اشارة الدولة لانهم من الجند . وقاحت رائحة المسك عن بعد

فلما وقف ذلك الهودج بباب القصر تنحى الوقوف إلاكبير الحصيان فاعان السيدة زبيدة في نزولها فتقدم الامين وقبل مابين ئيديها فقبلت رأسه ومشت بحقيقتين مرصعين بالجواهر (٣) وعلى رأسها نقاب محاك بالذهب في حاشيته صور مرصعة بالحجارة الكريمة ويلوح من خلال النقاب عصابتها المرصعة وعقود الجواهر في عنقها والقراطق في اذنيها . وعلى كتفها مطرف ذهبي اللون التفت به فغطى منكبيها وجنبها وظهر سائر ثوبها تحت ذلك من الحرير الوردي يغطي قدميها من الخلف ولا يغطيها من الامام لتظهر خفافها المرصعة وهي أول من رصع الخفاف في الاسلام . على أن من يلقي زبيدة لا يشغله لباسها

الفاخر الثمين عما في عيائها من الجمال الجاذب وما يتجلى فوق ذلك من ملامح العظة ودلائل الابهة والجلال

وَم تَطَّأ قدماءها باب القصر حتى انتشر خبير قدومها فبلغ عبادة فارتعدت فرائصها وحقق قلبها وأحبت الانزواء لكسلا يظهر ذلك عليها أما ميمونة فكانت كثيرة الشوق لمشاهدة موكب أم الخليفة وقد طالما سمعت عنها وعن عظمتها فأطلت من جملة المظلمين من كوى القصر خفية فأعجبت بجمال تلك امرأة وهابت جلالها

## الفصل الثاني والستون

### خلع المأمون

ظل الامين ووالدته سائرين الى قاعة خصوصية عملا باشارتها لانها تحب مخاطبة ابنها في شأن خاص فسره هذا الطلب لانه يحب مشاورتها أيضاً وقبل جلوسها جاءت المواشط فنزعن عنها بعض ما يثقلها من الالبسة ووقفت بعض الوصائف والغلمان يروحن بالمذاب بين يديها واشتغل آخرون باعداد الشراب والطعام . أما هي فقالت « أحب أن أراك يا محمد على انفراد ولا أرب لي في الطعام »

فاشار الامين بفرج الجميع ولم يبق إلا هو ووالدته جلست على السرير وأشارت الى محمد ان يجلس بجانبها يجلس وهو يقول « ما أسعد هذه الساعة يا أماء ... كأنك جئت على موعد فقد كنت في هذا الصباح ام بالذهاب اليك أو استدعائك إلى لاستشيرك في بعض الشؤون فإذا انت قادمة الى من تلقاء نفسك فتفاءلت بذلك خيراً »

فابتسمت مسيرة لابنها والغضب باد في عينيها وقالت « خيراً ان شاء الله ولكنني جئتك لأمر آخر يهمني ويهمك . . . »

فاهتم الامين بقولها وقال « وما ذلك يا أماء ؟ »

قالت « ألا تزال تلك البقية الضالة عندك ؟ »

فلم يفهم مرادها واستفهمها قائلاً « ومن تعنين ؟ »  
 قالت « اعني ابنة عدونا الذي تعمد خلعتك من ولاية العهد وأغرى أباك  
 الرشيد على مبايعة ابن مراجل »

فادرك انها تعني ميمونة بنت جعفر فقال « نعم ياسيدتى لا تزال بين  
 جوارى القصر »

قالت « وكيف أبقيتها ولم تخف شرها ؟ »

قال « لأنني وجدتها يتيمة مسكينة لا ضرر منها وقد أوصتني ابنة  
 أخي بها خيراً بعد أن يئست من اطلاق سبيلها فأبقيتها هنا اتقاء ماربعا  
 نخشاه منها »

قالت « يتيمة مسكينة ! تباً لها من خائنة غادرة . . . وأغرب من ذلك  
 أن تقبل شفاعة ابنة أخيك بها واخوك أشد عداك من أعدائك . . . ألم  
 يستعن عليك بالخراسانيين ! واذا أتيح له أن يخلعتك عن هذا العرش ألا  
 تظنه يفعل ؟ ومن أوجد هذا الفرور في نفسه اليس جعفر بن يحيى والله هذه  
 الفتاة ؟ وكان أبوك رحمه الله أدري منك باقدار الرجال فقتله شر قتله ولو لم  
 يبادر إلى قتله ماجلست أنت هذا المجلس . . . وتقول بعد ذلك انها يتيمة مسكينة  
 وان ابنة أخيك أوصتتك بها خيراً ؟ ان أخاك غلب فيه دم الفرس على دم  
 الهاشميين فأخذ من أمه مراجل أكثر مما أخذ من أبيه الرشيد ولذلك رأيت  
 يستعين باخواله علينا »

قالت ذلك وقد حمى غضبها وامتقع لونها وذهب احمرار شفيتها وتورد  
 وجنتها وظهر الغضب في عينيها ووافق ذلك ما يجول في خاطره من خلع  
 أخيه فلراد أن يجعل ذلك برأيها فقال « ألم يكن والدي بايع لى ولأخى عبد الله  
 بالخلافة بعهد علقه بالكعبة ؟ . . . »

فقطعت كلامه وقالت وصوتها محتق من الحنق « لاقيمة لتلك العهد  
 لانه كتب باغراء ذلك الوزير الخائن رغبة في إخراج الخلافة من بني هاشم  
 على يد أخيك هذا وهل يصلح أبناء الجوارى للخلافة إذا وجد أبناء الاحرار

يقاس ابن الجارية مراحل بابن زبيدة بنت جعفر؟ . . اتعلم من هي مراحل  
وكيف انصت بأبيك حتى ولدت عبد الله؟  
قال « لا »

قلت « أنا أقص عليك خبرها . . كانت مراحل من جملة جوارى مع  
مارية وفاردة وغيرها فرأيت والدك رحمه الله مشتغلاً عن زيارة مغنية كانت  
ليحي وزيره اسمها دنانير كان يقضي أكثر أوقاته عندها فشكوته إلى أعمامه  
فشاروا على أن أشغله عنها بجوار أهديين إليه فاهديته عشر جوار منهن  
مراحل (١) هذه وهي فارسية فولدت له عبد الله فرباه جعفر من صغره على حب  
الفرس حتى جرى مآتمه . فكيف يكون هو في مقامك؟ وهذا العهد الذي  
أشرت إليه في الكعبة ابعث من يأتي به ومزقه لأنه كتب خداعاً »  
فسري عن محمد وقال « إذا أنت ترين أن اخلع أخى عبد الله من  
ولاية العهد »

قالت « أولم تخاعه بعد؟ اخلعه قبل أن يخلعك »  
فاعتدل في مجلسه وقال « قد كنت عازماً على استشارتك في ذلك فوافق  
رأيك رأى وزيرى الفضل »

قالت « اخلعه وباع لابنك موسى وان كان صغيراً فتكون الخلافة أعرق  
في بني هاشم لأنه لم يولد لبني العباس خليفة والداه هاشميان إلا أنت فأولادك  
أعرق في النسب الهاشمي من سائر العباسيين »  
فانبسطت نفس الأمين وسكت وهو مطرق فابتدرته زبيدة  
قائلة « ولنعد الآن إلى تلك الفتاة الخائنة فما جدرك أن تقتلها  
وتتخلص منها »

قال « أقتلها؟ واي ذنب انت وما الذي نخافه من بقائها حية؟ »  
قالت « انك غافل يا محمد عما يجري حولك وقد شغلك اللهو عن  
دسائس الملقين . . أما أنا فساهرة على مصالحتك اعلم ما يجري في قصرك وفي  
غرف منامك . . وقد قلت لك ان بقاء هذه الفتاة في قصرك أكثر خطراً

عليك من بقاء ولاية العهد لاختك . . . اقتلها . . . فاستغرب الأمين تشديدها وهو لم ير في الفتاة ما يوجب ذلك فقال « لاشيء على اذا قتلها ومثلها مئات بل الوف في قصرى ولكنى وعدت أم حبيبة باستبقائها و . . . »

فلم تتمالك زبيدة عند سماعها قوله عن النهوض غضباً وصاحت انك لا تزال ساذجاً تجوز عليك الالاعيب . . . ولو كنت ذا دهاء لكان لك بتوسط بنت عبد الله يبقائها عندك ما يبعث على الشك فيها . . . اعلم ان ميمونة هذه غطوبة لا كبر أعداء العباسيين وبينها وبينه مكاتبة تشف عن تعمدته الانتقام لابي مسلم الخراساني وجعفر بن يحيى وهو يعد العباسيين خائنين غادرين واذا لم تصدق قولى فاقرأ هذا الكتاب « قالت ذلك واستخرجت من جيبها لفافة فيها كتاب بهزاد وناولته الى الامين

فتناول الامين الكتاب وطفق يقرأه ولم يصل إلى آخره حتى ارتجفت يدها وارتعشت أنامله لما حواه من الطعن في العباسيين والنعمة عليهم وتهديدهم فنظر الى والدته وكانت قد قدمت واتكات على الوسادة وأخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً فالتفت اليه وقالت « رأيت هذه اليتيمة المسكينة ! وهذا خطيبها يقول اننا غلبنا بالعدو والخيانة وانه سينتقم لوالدها وانه ذاهب إلى خراسان لهذه الغاية فكيف تبقى هذه هنا في قصرك وبين جواريك تطلع على أحوالك ومساعدك ألا يكون مكثها هنا خطراً على تديرك وأسراك ! »

فدهش الامين لسهر والدته على مصاحته وقال « كيف توصلت الى هذا الكتاب ومن أتاك به »

قالت « أتيت به من وسط قصرك لاني ساهرة وأنت نائم ولا فائدة من الكلام . . . »

فتحمس « وقال انى أمر بالقائها في قاع دجلة الساعة »

قالت « أتلقيها في دجلة بلا سؤال ولا جواب ؟ »

قال « وأتخلص منها »

قالت « ما أبسط قلبك ! ان مثل هذه قبل أن تقتلها يجب ان تستظلمها

مانعها من احوال أعدائها اذ لا يخلو أن تكون مطلعة على اسرارهم ومتى نلت

مرادك منها اقتلها أو اغرقها أو كائنشاء »

قال « أدعوها اليك الساعة ونسألها معاً ؟ »

قالت « افعل »

فصفق بجأه احد الغلمان فقال « الى الجارية ميمونة »

وكانت ميمونة منزوية مع جدتها في ابعث غرف القصر خوفاً من ان تراها زبيدة . وعبادة تتوسل إلى الله ان ترجع زبيدة قبل ان تراها واذا بالغلام جاء يدعو ميمونة الى امير المؤمنين . فلما سمعت عبادة قوله سقط في يدها وتحققت ان زبيدة انت لتحرض ابنها على الايقاع بها بعد مقابلتها تلك فندمت على ذهابها اليها . ولم تجد ميمونة بدا من الطاعة فتبعت الغلام حتى آتى القاعة فدخل وقال « الجارية بالبواب يا مولاي »

قال « تدخل »

فدخلت وهي مطرقة خجلا وركبتها تصطكان من الخوف فوقع نظرها على زبيدة وهي متكئة وقد زادها النضب هيبة ورهبة والامين جالس بجانبها كأنه بعض غلمانها فوقفت وحيث فابتدورها الأمين قائلاً « تقدمي يا ميمونة »

فمشت نحوه وهي تنظر الى الارض وقد اخذتها الرعدة من الخوف فاذا هو يمد يده وفيها الكتاب ويقول « أتعلمين لمن هذا الكتاب ؟ » فلما وقع نظرها على الكتاب عرفته حالا وأيقنت بافتضاح سرها فلم تعد يدها تطاوعها على استلامه من شدة الارتعاش فتناولته وأناملها ترتعد فسقط من يدها فأنحت لالتقاطه عن البساط فسقطت واهنة القوى ولم تعد تستطيع الوقوف وانحدرت دموعها على خديها وحاولت التجاهل والتشاغل بمطالعة الكتاب فلم تستطع وغلب عليها البكاء فتربعت عند قدمي الامين تقبلهما وتبكي ولا تفوه بكلمة

فصاحت زبيدة فيها « ويلك ما بيكيك ؟ أتظنين البكاء ينجيك . . من هو هذا هزاد أليس حبيبك حمل سيف النعمة على العباسيين ؟ » ثم استدركت أنها يجب أن تحتال في كشف سرها فعمدت الى الملاينة فقالت « ولكن لانخافي

إنما ينجيك الصدق . . . قولي لنا أين هو جيبك الآن وما الذي تعرفينه من  
أحوال الخراسانيين فاذا صدقتنا اطلقنا سراحك وأبقينا عليك والا فانك  
مقتولة »

فالتت وصوتها يتقطع من البكاء « تقى ياسيدي . . . انى لا أعلم شيئاً  
غير ما فى هذا الكتاب وقد تفهمين من تلاوته انى . . . لم أكن أعرف هذا  
الشاب قبل هذا الكتاب وأقسم برأس امير المؤمنين انى لم اعد اعرف شيئاً  
عنه بعد تلاوته »

فضحكت زبيدة ضحك الاستخفاف وقالت « وتقسمين برأس امير  
المؤمنين ؟ »

قالت « أقسم به . . . لاني صادقة فى قسمى »  
فقال « الامين اصدقينا يا بنية ولا خوف عليك واذا لم تقولي الصدق أننا  
برئيس المنجمين فى هذه الساعة فيكشف مكنونات صدرك . . . فاذا اطلعنا على  
شيء تنكرينه كان جزاؤك العذاب الاليم »  
قالت « الامر لأمير المؤمنين وليس عندي غير الذي قلته »

## الفصل الثالث والستون

### المدل

فصفق الامير وأمر الغلام أن يستدعى رئيس المنجمين فذهب الغلام وكانت  
ميمونة قد وقفت متأدبة فامرها الامين بالجلوس فجلست ولم تكن تعلم ان رئيس  
المنجمين هو سلمان نفسه وكانت تظن سلمان هرب او مات لطول غيابه عنها  
وبعد قليل اقبل الملقان سعدون بعمامة الكبيرة السوداء وجيته الطويلة وتحتها  
الثوب العسلي وقد تمنطق بزناى غرس فى الدواة ولبس حية كشيفة مسترسلة  
دب فيها الشيب تتصل من الجانيين بسالفين كشيخين وغير ذلك من قيافة الخراسانيين  
هل الذمة وهى تخالف ما تعرفه ميمونة عن سلمان ولو خامرها شك فى ربما  
عرفته من عينيه وانفه

ودخل سعدون وحيا ووقف متأدبا وقد تأبط الكتاب وعيناه تختلسان النظر الى اهل ذلك المجلس فرأى ميمونة وزبيدة وعرفهما ووقع بصره على كتاب بهزاد بن يحيى الامين فعرفه حالا لانه هو الذي حمله الى ميمونة فأدرك لأول وهلة سبب طلبه وتجاهل . فأمره الامين بالعود بلا حجاب او سترينهما فقامت جاثيا وعيناه لا تتحولان عن الارض فابتدره الامين قائلا : دعوناك يا مفلان سعدون نطلب اليك ان تستطلع لنا سر هذه الجارية فقد سألناها فأنكرت وهددناها باستطلاع سرها على يدك . . . فاصدقنا .

وكانت زبيدة جالسة تنظر الى المنجم ولا تتكلم ريثما ترى علمه . وكانت قليلة الايمان بمقدرة النجمين وانما رضيت باستدعاء المنجم ساعتئذ ارهاها بميمونة لعلمها تعترف بما عندها خوفاً من العقاب . أما سعدون فاستخرج كتابه واتمس ان يؤتى اليه بكانون فيه نار من خشب الزيتون زعم ان المدل لا يتم إلا اذا كانت من ذلك الخشب وهو هين في بلاط الخلفاء فاتوه بالنار في شبه مبخرة من الفضة وضعوها على طبق بين يديه وهو يشتغل بالقراءة والتمتمة وسائر الحضور سكوت . ثم اخرج من جيبه قطعة بخور القاها في النار وطلب قدحا فيه ماء فاتوه به فاخذته بيساره بين الابهام والسبابة وتفرس في الماء حيناً ثم استأذن الخليفة في ميمونة ان تتقدم نحوه وتضع يدها على كتابه فتقدمت وهي ترتعد خوفاً ووضعت كفها على ذلك الكتاب . وتناول سعدون يدها الاخرى وقرأ اسرارها ثم رفع يدها عن الكتاب واجلسها وفتح الكتاب وقرأ همسا وهو يتسم ابتسام الفائز ويهز رأسه ثم نظر الى الامين قائلا : ان لهذه الفتاة حديثا طويلا وان لها لنا .

فضحكت زبيدة استخفافاً بهذه النبوة لانها لاتدل على معرفة فأدرك سعدون غرضها فنظر اليها وهو يتعاشى التفرس في وجهها تأدبا وقال : لا أقول ذلك تعمية أو ابهاماً ولكنني اعني انها ليست من عامة الناس بل هي من أصل عريق في الكرامة والوجاهة وان كانت اليوم في جملة الجوارى فقطعت زبيدة كلامه قائلة : اذا كنت على ثقة مما تقول فانبئنا عن حقيقة حالها بصراحة . . .

قال « واقول ذلك بوجودها ؟ »

قالت « قل »

فاعاد النظر الى القدر ثم نظر في وجهها وقال « انها بنت وزير مات مقتولا »

فلما قال ذلك اقشعر بدن الفتاة وامتقع لونها والتفت الامين الى امه لفتة ظافر بصدق ظنه فراها لا تقل دهشة عنه ولكنها تجاهلت وقالت « ربما كنت مصيباً بما قلته » ومدت يدها الى كتاب بهزاد وقبضت عليه بكفها وقالت « وما الذي بيدي ؟ »

قال « كتاب »

فقهرت وقالت « بورك بمهارتك . . ان الاطفال يعرفون ذلك ولكن اذا كنت رئيس المنجمين كما يسمونك قل ماهو حقوى هذا الكتاب »

قال « يسوؤني يا سيدتي استخفافك بعلمي وقد يجدر بي بعد ما سمعت ان اسكت عما أعلمه ولكنني أقول لك انك تقبضين على كتاب من نار بل النار أخف وطأة على هذه اليد اللطيفة من حقوى هذا الكتاب . . ان بيدك كتابا من رجل فارسي الى هذه الفتاة وفيه من نصره الفرس والغض عن مقام العباسيين ما يسوؤك ويسوء مولاي أمير المؤمنين . واذا لم يقنعك هذا الاجمال فصلته تفصيلا — ان هذا العلم لم يكذبني من قبل ولا أدري اذا كان قد صدقني الآن »

فبغتت زبيدة ولم تعد تستطيع غير الاعجاب فقالت « صدقت أيها الملفان واذا قد علمت سر الكتاب اعلنا عن صاحبه أين هو الآن؟ »

قال « هو بعيد ياسيدتي . . انه في خراسان »

قالت « وما علاقة هذه الفتاة به ؟ »

قال « انها علاقة قرية العهد واذا ادعت غير ذلك فانها كاذبة . . ولا يجوز ان تسئل عما حواه الكتاب من عبارات التهديد او الانتقام لانها كانت خالية الدهن منه حين وصوله اليها ثم لم تعد تعلم شيئاً عن صاحبه » وكانت ميمونة أكثر استغرابا لما سمعته من الجميع لان الرجل

قرأ ما في ضميرها ولو أرادت هي أن تعبر عن احساسها لم تستطع تبيانه  
بإوضح من ذلك فأشرق وجهها وبانت الطمأنينة في عيائها ونظرت الى الامين  
نظر الاسترحام وظلت ساكنة ،

أما زبيدة فخفت نغمتها عن ميمونة وان كانت لا تزال تكرهها فقالت  
لسعدون « اتعتقد برأة هذه الجارية ؟ »

قال « هذا ماظهر لى بالمنديل وعهدي بهذا العلم أن يصدقني ولو سألت  
أمير المؤمنين لأيد قولي بما علمه بالاختبار »

فأشارت الى ميمونة أن تخرج فخرجت وهي لا تصدق أنها نجت ، ثم  
التفتت زبيدة الى الملقان سعدون وقالت « أي واثقة بملك أيها الملقان ولكن  
قلبي لا يزال واجساً من امرها »

قال « لانك تكرهينها ولا عجب فان والدها أساء اليك والى سيدى أمير  
المؤمنين واذا شئت ان أعيد المنديل في فرصة أخرى فعلت . واذا أذن أمير  
المؤمنين أن أجالسها مرة أخرى على انفراد زدته تفصيلاً عن احوالها »

فقال الامين « لك ذلك ايها الملقان » ونظر الى والدته وأشار اشارة  
فهمت غرضه منها وكان سعدون يتشاكل بجمع ما تفرق بين يديه من  
ورق كتابه استعداداً للخروج فابتدرته زبيدة قائلة « أما وقد بدلنا منك  
هذا العلم الواسع في استطلاع الغيب فأخبرنا عما يحول في خاطري وخاطر أمير  
المؤمنين »

فأدرك أن أم ما يمكن ان يخطر لها حينئذ التأمون واحزابه في خراسان  
فقال « يحول في خاطر كما أشياء كثيرة اهمها يتعلق برجل في خراسان تحذرونه  
وهو يحذركم وقد تخافونه وهو أشد خوفاً منكم »

فوافق قوله ما في نفسها فقالت « صدقت .. وماذا ترى بعد ذلك فاعاد  
النظر في الكتاب طويلاً حتى ظهر الاهتمام في جبينه وتصيب العرق منه ثم رفع  
نظره اليها وقال « لا ارى مناصاً من تجريد السيوف »

قالت « ومن يجردها »

قال « انما يظفر السابق وعلم المستقبل عند الله »

فالتفت الى الامين ولسان حالها يقول « ألم أقل لك بادر الى خلعه قبل ان يخلعك ؟ »

فقال الامين « قد اشار وزيرنا الفضل بخلع عبد الله فاذا لم يدعن حملنا عليه بالجيوش فهل نغلب ؟ »

فتناول الكتاب ثانية وقلب عدة صفحات ثم قرأ ونظر الى السماء من نافذة في تلك القاعة واخرج قلماً من منطقتة وغطسه في المداد وكتب وحسب ثم قال « قلت لمولاي ان علم المستقبل عند الله وليس لى . ولكن يظهر لى من هذا الحساب أن الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة باذن الله »

## الفصل الرابع والستون

### كشف السر

فتمكن اعتقاد الامين من صدق سياسة الخلع وعزم على خلع اخيه فائى على الملقان سعدون وأمر له بجائزة فلم انه قد آن خروجه فجمع اوراقه ودواته وخرج

ثم نهضت زبيدة للخروج فأتها المواشط فألبسها ما خلعتة عند وصولها ولما ودعت ابنها نصحت له ان يخرج للاقامة في قصر الخلد قريباً منها فوعدها بذلك فعادت بموكبها إلى دار القرار

وأقر الامين بعد خروجها على خلع أخيه وتولية ابنه موسى وبعث الى خراسان بذلك كما تقدم ثم جند جنداً أراد ان يجعل الفضل قائداً عليه فرغبه في ابن ماهان ففعل وخرج الجند لمقاتلة طاهر بن الحسين في الري كما رأيت . وبعد ارسال الجند انتقل الامين الى قصر الخلد ونقل معه بطاتته . أما ميمونة وسعدون فأبقاهما في قصر المنصور وأمر بالاحتفاظ بهما

وكانت ميمونة قد خرجت من حضرة الامين وهي ترقص فرحاً ودهشة حتى أنت جدتها وكانت تنتظرها على مثل الجمر فقصت عليها ما جرى واثنت

على مهارة رئيس المنجمين فاستغربت عبادة ما سمعته وقالت « جزاء الله خيراً  
ان الله قد سخره لانقاذنا من هذا الخطر العظيم ولولاه ما رضيت تلك الملكة  
الظالمة بغير قتلنا »

فقالت ميمونة « قد نخلى سلمان عنا فأرسل الله لنا من يأخذ بيدنا انه  
سبحانه لا يترك المظلوم حتى ينصره »

ومكثتا في ذلك القصر بعد انتقال الامين الى قصر الحلد لا يعلمان شيئاً  
نما يجري من الاحوال السياسية وميمونة قد ذهبت تسليتها بندهاب كتاب  
بهزاد ولما طال غياب سلمان عنها كادت تنساه لولا ارتباط ذكره بذكر بهزاد .  
وكيف تنساه وهو خليفة بهزاد عليها وقد حمل اليها كتابه وكانت في شوق  
كثير لمعرفة مكان حبيبها لتطلعه على حالها لعله يسمى في انقاذها . وأنى لها ذلك  
وهي محبوسة بين اربعة جدران لا تسمع خيراً ولا ترى رجلاً وكانت عبادة  
تحاول التخفيف عنها جهد طاقتها

وكانتا جالستين ذات يوم فجاءتهما قهرمانة القصر تقول « ان رئيس  
المنجمين يطلب مشاهدة ميمونة » فبغت الفتاة وصعد الدم الى وجهها وقالت  
« ما شأنا معه »

قالت « ان امير المؤمنين اوصى ان لا يؤذن لاحد بمشاهدتك غير رئيس  
المنجمين متى شاء ولا بأس عليك منه »  
فتحولات بغتها الى سرور وقالت في نفسها « اذا آنت منه لطفاً أسأله  
عن سلمان أو بهزاد لعله يهديني الى مكانهما » فقالت للقهرمانة « هل هو آت  
الينا أم نحن نذهب اليه »

قالت « طلب أن يراك على انفراد في غرفته »

فاجفلت وقالت « أنفرد به في غرفته ؟ وهو رجل غريب .. »

فقالت عبادة للقهرمانة « هل تأذنين أن أكون أنا معها في تلك المقابلة  
قالت « حسناً »

فنهضتا وتنقبتا وأرسلت معهما غلاماً أوصلهما الى غرفة اللفان سعدون  
في بعض أطراف القصر وقرع باب الحجره وأنبأ اللفان وصول ميمونة

ورجع . ففتح الملفان الباب وهو بقيافته الممهودة ورحب بالفتاة وجدتها وأدخلهما الحجر وأقفل الباب وراءهما . فلما وجدت ميمونة نفسها في ذلك المكان استوحشت وتلفتت فلم تجد حولها الا أدوات وأشياء لا تفهم لها معنى من أنابيب وأقداح مختلفة الاشكال والالوان وألواح عليها رسوم وخطوط بعضها يقرأ وبعضها طلاس لا يقرأ . وكان قبل دخولها قد نزع جبينه وبقي بالازار ( القفطان ) العسلي وحوله الزنار وعلي رأسه عمامة صغيرة فأشار الى ميمونة وجدتها بالعود على طنفسة بجانب طراحتة فقعدتا وهما لا تتكلمان .. فقعد هو بين يديهما وخاطب ميمونة قائلاً « هل تعدين ياميمونة أي أنقذتك من القتل ؟ »

فدهشت لما سمعته يذكر اسمها وقالت « نعم ياسيدي وانى لا أنسى لك هذا الجميل جزاك الله خيراً »

قال « انى لا أكافك على ذلك اجراً واتقدم اليك أن تصدقيني في سؤال أقيه عليك . . هل تفعلين ؟ »

قالت « نعم وهل أستطيع غير ذلك وأنت تكشف مكنونات القلوب »  
قال « هل تحبين بهزاد كثيراً »

فتوردت وجنتاها جفاة وأطرقت حياء فابتدورها قائلاً « لا ينبغي أن تستجبي مني . . . قولي »

فتهدت وظلت مطرقة ولم تجب فاجابت عبادة عنها « أظن رئيس المنجمين فهم جوابها بدون أن تنطق به »

فوجه خطابه الى المعجوز وقال « وهل أنت لا تزالين تعرفين الحب ودلائله رغم ما سر بك من الالهوال ؟ »

فلم تستغرب عبادة اشارته الى حالها بعد ما بلغها من اعجازه في كشف الضمائر فسكتت . فالتفت الى ميمونة ويده على لحيته يمسطها بأنامله وقال « قد علمت انك تحبين بهزاد ولكن هل هو يحبك ؟ »

فرفعت كتفها وهي مطرقة كماثها تقول « لا أعلم »  
فابتدورها قائلاً « لو كان يحبك لم يتركك في هذا القصر ويذهب .. وربما

بقيت فيه الى آخر حياتك . . فغيرة على راحتك قد دبرت لك طريقة للنجاة  
والسعادة فاذا اطعني افلحت »

قالت « وما هي ياسيدي »

قال « انى اعرف شيئاً هو خيرة شيان بغداد وأكبر وجيه فيها يحبك  
حياً مبرحاً وأنت لا تحبينه » وتوقف عن الكلام وتنحج فأدركت أنه يشير  
الى ابن الفضل فلم تتمالك عن الاشتزاز والتفتت الى جدتها كأنها تكلفها أن  
تجيب عنها فهمت عبادة بالكلام فقطع سعدون كلامها قائلاً « انى اعرف الجواب  
ولكن رفضك لا ينفعك لان الرجل صاحب النفوذ الاكبر واذا طلبك من أمير  
المؤمنين دفعك اليه فالاحسن أن تقبلي من تلقاء نفسك وهذه نصيحتى لك فان  
بهزاد بعيد ومن يدري هل ترينه بعد »

فضاق صدر ميمونة عند ذلك وانحبت عواطفها ولم تتمالك عن البكاء  
فنهضت عبادة وانحنت للملغان وقالت بصوت الاستغاثة « أما وقد اطلعت  
على سرنا وعرفت حقيقة حالنا فأتوسل اليك أن تكون عوناً لنا لا علينا »  
وغتت بريقها

فاشار اليها ان تقعد وقال « ماذا تريدن ؟ »

قالت « ان الغلام الذي تشير اليه لانصيب له عندنا وأنت تعرف السبب  
والموت أهون علينا من إجابة طلبه . . وإنما أتقدم اليك ان ترشدنا بعلمك  
الى أمر مهمنا »

قال « وما ذلك ؟ »

قالت « أضعنا عوناً كبيراً خلفه لنا بهزاد عند سفره وهو الذي أوصل  
كتابيه الى ميمونة ثم لم نعد نراه ولا نعرف مكانه فهل تكشف لنا خبره  
بالمندل ؟ »

فضحك وقال « أظنك تبحثين عن سلمان ؟ »

قالت « نعم »

قال « ان الوزير سألتني عنه أيضاً »

فقلت عبادة « هل هو في بغداد ؟ »

قال « نعم انه في هذا القصر »

فبغتت ميمونة وقالت « في هذا القصر ؟ »

قال « وفي هذه الغرفة »

وأحست عبادة عند ذلك كأن غشاوة انكشفت عن عينيها وتذكرت

ميمونة صوت سلمان فصاحت سلمان ! سلمان !

فقال « لا ترفعي صوتك إني سلمان نعم وانى رئيس النجمين »

فلم تستطع الامساك عن الضحك وبان البشر في وجهها وخفق قلبها وأحست كأنها لقيت حبيبها بهزاد لاستبشارها بالاطلاع على أخباره فلم تعد تعرف كيف تسأل سلمان أو تستفهمه وأرادت التكلم فتلجلجت فسبقها الى الكلام قائلاً « ستلوميني على اختفائي كل هذه المدة ولكنني لم أحتف الا رغبة في مصلحتك فلما رأيت في الظهور منفعة لك ظهرت وأظني أفدتك »

فقلت عبادة « إنك انقذتنا من الموت جزاك الله خيراً و... »

وقطعت ميمونة كلام جدتها فقالت « وأين بهزاد الآن ؟ »

قال « في بغداد أو حولها »

فصاحت « في بغداد ..؟ ألا يأتي الينا ؟ »

قال « وهل تظنين ظهوره سهلاً ؟ انه لا يظهر إلا إذا آن الاوان .

ولكن أحوال بغداد تغيرت منذ وطئها لأن الاحزاب السرية عادت الى عملها برأيه فكثرت العثرات في طريق هذا الغلام القابض على قضيب الخلافة »

فقلت « بورك فيك يا سلمان .. يا الله ما أكرم نفسك .. بهزاد آتى من

خراسان هل رأيتته ؟ »

قال « نعم رأيتته وحادثته »

قالت « أين شاهدته وكيف ؟ »

قال « لنا مكان نلتقي فيه لا يعرفه احد سوانا »

قالت وقد أشرق وجهها « إذن هو هنا وسراه؟ أى متى يكون ذلك؟ »  
قال « لكل شيء وقت لا تكونى لجوجة »  
قالت « حسناً .. كما تشاء والآن ما الذي تنوى فعله بنا؟ »  
قال « تقيان كما كنتما وتكتهان ما رأيكما عن كل انسان حتى يأتى الوقت  
المناسب وأظنكما تتقآن بما اقوله »  
فقالت عبادة « مضى علينا زمن لم نسمع فيه خبراً عن المأمون ولا عن  
الامين ولا عن الحال بينهما »

قال « اطمنئك يا سيدتى أن الله سينتقم لك ولنا . إن الامين خلع أخاه  
المأمون من ولاية العهد فخاضه هذا أيضاً وقام الفرس لنصرة المأمون لأنهم  
أخواله وجرّدوا جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين وجرّد الامين جيشاً بقيادة  
ابن ماهان الذى كان صاحب الشرطة فالتقى الجيشان في الري فانتصر جيش  
المأمون وقتل ابن ماهان وأشتت جيشه ولما وصلت هذه الاخبار الى الامين  
وقع في حيرة وبعث اليه فذهبت اليه في قصر الخلد واستشارني فأشرت  
عليه ان يرسل الفضل بن الربيع في الحملة الثانية وأنا اعلم ان الفضل لا يذهب  
وجعلت نجاحه في الحرب مشروطاً بارسال الفضل وابنه فألك ذلك الى اختفاء  
الفضل ولم تفلح الحملة الثانية فضعف حال الامين فاستخف به رجال دولته حتى  
هموا بخلعه فلم يستطيعوا لأن سلمان لم يكن معهم . . . ولو شئت لخلعوه  
ولكنني أردت ضعفه فقط »

فأعجبت ميمونة بدهاء سلمان وسرت بما دبره للفضل وابنه . ثم قال  
سلمان « فامكثا في قصر المنصور هذا برعاية قهرماتته وربما ذهبت الى الخليفة  
ومكثت في قصر الخلد أياماً » وصدق فأنى غلامه فقال له « اذهب بهما الى  
قصر وسلمهما الى القهرمانة فريده وقل لها انى أحب أن أراها »  
فمضى بهما . وم سلمان بلبس ثيابه وأمر الغلام أن يعد له بغلته ليركب الى  
قصر الخلد ويتحول بطريقه الى القهرمانة ويوصيها بالمرأتين . فركب ومر بالقهرمانة  
وأوصاها ان تحتفظ بهما فأشارت مطيعة فتحول يطلب قصر الخلد والغلام في  
ركابه والناس ينظرون اليه ويوسعون له اعجاباً بما اشتهر عنه من معجزات التنجيم

## الفصل الخامس والستون

### مقرطة الامين

وما زال سائراً حتى أتى قصر الخلد فوجد بالباب جماعة من العيارين يخفرونه بدلا من الجند وعرفه أحدهم فنهض وحياه ووسع له فدخل بيغلتته الى ردهة القصر واذا هو بالهرش رئيس العيارين خارجاً على فرسه وحلما وقع نظره على الملقان سعدون أووقف فرسه وسلم عليه . فسأله عما رآه من وجود رجاله بالباب بدلا من الجند فقال « ان الجند غاضبون على أمير المؤمنين »

قال « لماذا ؟ »

قال « ان خبر ذلك يطول ولا استطيع بسطه ونحن راكبان ولا اظنه يخفى عليك ولكنني أقول بالاختصار ان طاهراً وأصحابه لما أفلحوا في واقعة الري وقتل ابن ماهان ضعفت عزائم جنده وهربوا وتقدم طاهر فاستولى على أعمال الجبال فوجد الامين حملة أخرى فعادت خائبة وضعفت سطوة الخليفة حتى تجرأ قواده على خلعهم ثم عادوا عن ذلك كما تعلم وظل طاهر يتقدم في جنده حتى أتى الاهواز ثم استولى على واسط فللدائن ونزل أخيراً في صرصر وهي على مقربة منا وكان أمير المؤمنين يخرج الاموال ويفرقها في رجاله . وبلغ ذلك رجال طاهر فطمعوا بالاموال فجاء منهم جماعة الى الامين فاعطاهم وغلف لحاماً بالغالية واكرمهم كثيراً فغضب جنده لأنه لم يكرمهم مثل هذا الاكرام فتفرقوا عنه غاضبين فبعث الى وكلفني ان آتي برجالي لنصرتة . . . »

فضحك سعدون وقطع كلام الهرش قائلاً « رب مصيبة على رجل يستفيد منها جاره واطن الامين بذل لكم الاموال فغنمتم . . . وانت تعلم انه يسرني ما يسرك وانك أهل للعطاء أكثر من أولئك القواد الخائنين حتى الوزراء فهذا الفضل بن الربيع بلغني انه لما رأى الامر استفحل على مولاه

اختلف مع انه سبب هذا البلاء كله ، فاني ذلك وودع الهرش وساق بغلته  
فاستوقفه الهرش قائلاً : انك داخل على الخليفة ومتى رأيت حاله زال تعجبك  
مما بلغ اليه امره .

فلم يفهم سعدون قصده ولكنه ما لبث ان تحول عن بغلته عند الباب  
الذالك من أبواب القصر ودخل الحديقة حتى ادرك السر ولم يكن غافلاً عنه  
وذلك انه سلم البغلة لعلامة ومشي في الحديقة وهو يتوكأ على عكازه  
وينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى الا غلماناً يتراكضون وبعضهم  
حفاة مكشوفو الرؤوس فأوجس سلمان خيفة من هذا المنظر وظل ماشياً في  
بعض طرق الحديقة حتى أشرف على بركة كبيرة في وسط الحديقة بين يدي  
القصر وقد تكأ كآ حولها الغلمان ونزع بعضهم ثيابه وغطس فيها وآخرون  
واقفون يتفرسون في مائها ثم رأى الأمين نفسه مقبلاً كالواله وعليه ثياب المنادمة  
وقد ذهبت القلنسوة عن رأسه من لهفته فترجع لسعدون ان دسيمة ظهرت  
في القصر يراد بها قتل الامين وان الغلمان يفتشون عن صاحبها وتوهموا انه  
نزل البركة التماساً للفرار الى دجلة — لان البركة متصلة بقناة تمر من تحت  
السور فاذا اقلت الابواب على هارب وكان يحسن السباحة استطاع الخروج  
بالقناة الى دجلة لايترضه الا شبكة كالمصفاة منصوبة عند مخترق القناة من السور  
لا يصعب عليه نزعها

ثم ما لبث ان سمع الامين يصيح قائلاً : ابن مقرطتي ابن ذهبت . . من  
أخذها . . يا سعيد . . يا جوهر . . يا كوثر . . يا . . تعالوا أظنها في البركة . .  
ابحثوا عنها . . القوا الشباك . . .

فلما سمع كلامه فهم مراده وتذكر قول الهرش لأنه رأى السبب في تلك  
الحركة والغوغاء ان الامين أضاع مقرطته وهي سمكة كانت قد صيدت له  
وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما جتا در (١) كثيراً ما كان يلهو  
بها في جملة لهوه فاتفق عند قدوم سعدون انه كان قد أضاعها وشغل أهل

القصر بالفتيش عنها . فلما رأى سعدون ذلك تنحى جانباً ريثما يفرغ الامين من لموه أو يجد مقرطته وقال في نفسه « كيف تستقيم دولة هذا م خليفتها فهل يعجب الناس من فوز أخيه الساهر على مصلحته ومعه جند يستهلكون في نصرته ؟ وهذا انما يحيط به المتملقون طمعاً بالمال — تلك عاقبة البغي ولا يمضى زمن طويل حتى تنتهي هذه الدولة ويغلب الحق على الباطل »

وهو يفكر في ذلك رأى الامين ينظر اليه وقد تحول مجونه وتهتكه الى جد واهتمام وأشار اليه ان يتبعه . فمشى سعدون في أثره حتى دخل باب القصر الداخلي واتصل منه الى دهليز ينتهي بقبة يسمونها طارمة مصنوعة من خشب الصندل والعود مساحتها ١٠ اذرع في ١٠ قد اتخذها فراشاً مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من انواع الابريسم ورأى رجالاً وقوفاً ياب الطارمة عليهم سماء الوجاعة وسعوا للامين عند دخوله لم يعرف منهم الا اثنين احدهما ابراهيم بن المهدي عم الخليفة والآخر سليمان بن ابي جعفر المنصور من شيوخ بني هاشم فلما دخل الامين الطارمة أشار الى سعدون بالدخول وصرف الباقيين فترك سعدون عكازه ونعاله بالباب ودخل . جلس الامين على دكة في صدر القبة وأشار اليه ان يقعد فقعد وهو يتعجب من تغير حاله . ووقع نظره على آثار مجلس شراب وغناء كان منعقداً هناك قبل مجيئه فرأى الفداح مبعثرة والاباريق متفرقة بين فارغ ومملوء وأطباق الفاكة مصفوفة وفيها الاثمار بأنواعها . ورأى بين يدي الامين قدحاً من بلور يسع شراباً يند مقداره خمسة أرطال وقد قلب وانكسر . ورأى قدحين مثله بين يدي وسادتين كان عليهما اثنان من خاصته الجلاس لعلمهما سليمان بن المنصور و ابراهيم بن المهدي وهما ارفع مقاماً من سائر جلاسه

فادرك سعدون حالاً ان الامين كان في مجلس الطرب ثم علم بضياح مقرطته فاسرع للبحث عنها . ولكنه استغرب انقلابه من اللهو الى الاهتمام فلبث ساكتاً حتى يبدأ الامين بالكلام . أما هذا فانه أزاح كسر القدح من بين يديه ونظر إلى سعدون وتهند وقال « لم يبق لي صديق أودعه سري سواك لان رجالى تفرقوا عني ولم أجد بينهم خلصاً لانهم انما يطلبون مالي

وقد أعجبني علمك واطلاعتك على الحفايا فأحببت ان استشيرك فبعثت اليك  
ويسوءني انك جئتني ورأيت اشتغالي بعث الفلمان ثم دخلت هذا المجلس  
ورأيت ما فيه من آثار الندمان مع ما نحن فيه من أسباب القلق وبواعث  
الاهتمام . . . ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال « ولكنتي أفعل ذلك لاذهب ما بي من  
اليأس فبعثت الى بعض أعمامى جفاؤا إلى بالمغنيات والشراب فشربنا وسمعنا ولم  
يذهب شيء مما في نفسي بل زادت يأساً وكدرأ لما سمعت الجواري يغنينه من  
ايات الشؤم لا أدري فعلمن ذلك عمداً أو اتفاقاً كقول احدهن :

م قتلاه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مراربه (١)  
ووالله لأخشى ممن حولي وم مثل مراربه كسرى ليس فيهم من يهمه  
أمري حق الفضل وزيري فانه تخلى عني وتركني واخفى . . . وزادني تشاؤماً  
أن احدى المغنيات قامت لغرض فعثرت بهذا القدح فكسرتة وهو قدحى  
الخاص ما برحت أشرب به منذ أعوام لم يصبه عطب . فهل الأم اذا تطيرت؟  
قال ذلك وصوته يكاد يخفق

فقال سعدون « لا بأس عليك يا مولاي . »

فقطع الأمين كلامه قائلاً « حتى أنت لم تصدقني هذه المرة أو أن تنجيمك  
لم يصدق »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « أتذكر حديثك في قصر المنصور لما سألتك عن نتيجة القتال بيني  
وبين أخي فبشرتنى بالنجاح ؟ »

فأطرق كأنه يفكر ثم قال « لو راجع مولاي ما قلته يومئذ لتحقق صدق  
قولي . فقد قلت ان العلم يدلني على أن الفئة التي فيها الفضل هي الغالبة فهل ذهب  
الفضل في تلك الحملة ؟ »

فانتبه الأمين لذلك وقال « لم يذهب وأردت ان ارسله مع الحملة الثانية  
فتنصل ولما آانس مني الاحاح خاف تحميلة التبعة فاخفى ولم اعد أراه ولا اعلم  
مقره »

فهز سلمان رأسه واطهر الاستغراب ثم أطرق هنيهة وهو يحك جبينه بسبابته وقال « بل ارى المنديل قد صدقني من وجهه آخر . تذكرت الآن ان وزير اخيك في خراسان اسمه الفضل ايضاً وهو اقوم على نصرته من قيام هذا الفضل على نصره أمير المؤمنين . . اني واثق من صحة ما أعلمه واذا ظهر خطأ فأنا يكون الخطأ في فهم ما يظهر لنا من النتائج »

فصدق الأمين قوله وزادت ثقته به وقال له « والآن لا أخفي عنك أن يدي فرغت من الرجال وخزائني فرغت من الاموال حتى ضربت ما في قصوري من آنية الذهب والفضة نفوداً واعطيتها لرجالي وبعث الآنية الثمينة وفرقتها فيهم وجمعت ما استطعت جمعه من أموال التجار (١) لاسترضى جندي فلم استفد شيئاً واصبحت كما ترى » قال ذلك وغص بريقه . ورأى سعدون دموعين تتلألأ في عينيه فلم تتحرك شفقتة او حنوه وان اظهر ذلك فأنا يظهر احتيالا للوصول الى غرضه . ومن أقصى رغائبه استفحال الامر بين الاخوين حتى لا يبقى للصلح مكان لأنهما إذا تصالحا ذهبت مساءى الفرس عبثاً فأبدى أسفه لما سمعه من حال الأمين وقال « ألم تبحث عن المال في قصر اخيك فقد علمت بما لحفظه نوفل خادم القصر من ايام مولانا الرشيد . . . »

فقطع الأمين كلامه قائلاً « كان عند نوفل المذكور ألف ألف درهم أخذناها وقبضنا الضياع والغلات . . »

فأطرق سعدون وقد سره تضعع الأمين ثم قال « انت تطالب المال لارضاء الجند وفي بغداد جند يحارب بلا عطاء ويأخذ عطاءه مما يغتنمه . . »

قال « أظنك تعني العيارين والشطار »

قال « نعم وهؤلاء يحاربون عراة وسلاحهم المقاليع وغالي الخوص يحملون بها الحصى يرمون بها الناس فتؤذيهم أكثر مما تؤذيهم السيوف والرماح وفي بغداد اليوم من هؤلاء نحو خمسين ألفاً فائمه زعيمهم ان يحندم » (٢)

قال « أنظني غافلاً عن ذلك ؟ كان المرش عندي الساعة وقد أمرته باعدادهم

(١) ابن الاثير ٦ سير الملوك (٢) المسعودي وابن الاثير

فوعدني انه فاعل واضنه سيجمع ما تصل اليه يده من باعة الطريق واهل  
البحون والأوباش والطرارين واهل السوق . . وهؤلاء اذا قاموا خربت  
مدينة . ولكن . . . وسكت

فادرك سعدون انه يكتم شيئاً يخاف التصريح به فظل ساكناً ينتظر ما يبدو  
فعاد الامين الى الكلام فقال « أشار على بعض خاصتي الباقين على ولائي ان  
اخرج من بغداد بمن بقي من رجالي وعم سبعة آلاف فارس من الأبناء فأخذهم  
وافر ليلاً من احد ابواب المدينة حتى آتى الجزيرة ار الشام فيفرضون الفروض  
ويجبون الخراج ويكون لي مملكة واسعة هناك واترك بغداد لأصحابها حتى يقضي  
الله بما يشاء فما رأيك ؟ »

فلما سمع سعدون ذلك تحقق انه الرأي الصواب لكنه خاف إذا عمل  
الامين به ان يعرف مل ساعي الفرس لان بقاء الأمين حياً في مملكة اخرى يفسد  
عليهم سعيهم فقال « هل يرى امير المؤمنين فائدة من الفرار . . ومن أي باب  
يخرج بسبعة آلاف فارس وبغداد محاطة بالاعداء من كل جانب شرقاً وغرباً  
وشمالاً وجنوباً . فاذا وقع في يد اعدائه — لاسمح الله — وهو هارب استحلوا  
منه ما لا يستحلونه في حال اخرى »

فقال الامين « ألا نجد لنا مخرجاً من بغداد ؟ »

قال « اذا شاء امير المؤمنين صعدنا إلى احدى المنائر العالية وأشرفنا على  
بغداد وأرباضها فترى اما كن العدو رأي العين والامر بعد ذلك له »

## الفصل السادس والستون

### قلبا دليلها

فاستحسن الأمين اشارته ونهض وهو يقول وفي هذا القصر منارة عالية  
هلم بنا اليها بغير ان يعلم بنا احد ، فهض سعدون في اثره حتى صعد المنارة  
وأطلا منها على بغداد وقصورها (١) فالتفتا اولاً نحو الشرق وقال سعدون

(١) في ابن الاثير ان الامين عاد آخر أيام الحصار الى مدينة المنصور

الاترى ياسيدي مضارب هرثة بن اعين عند نهر بين وراه دجلة؟ وهذه مضارب عبيد الله بن وضاح في الشامية ومعه جنود عظيم وقد حفظ الجسر الأعظم . وجد هرثة يحرسون طريق خراسان فهل من سبيل للفرار من هذه الجهة؟ واما من جهة الغرب فهذا ظاهر وجنده في البستان قرب باب الأنبار وكافى ارام يقتربون بأعلامهم . . ارام دخلوا عملة الكرخ وحول باب الكوفة وما يليها وسائر الارياض الغربية الجنوبية وكادوا يحصروننا والعيارون يدفعونهم بالمقاليع الاترى الحصى تتطاير فوق البيوت؟

وكان الامين ينظر إلى ذلك وقلبه يختلج وامتعق لونه وتعقق من ضياح امره فلم يجب ولكنه وجه نظره نحو الحربية في الشمال فرأى النار قد لعبت بها فصاح « ويلاه ما هذا؟ . . »

فقال سعدون « اظن الأوباش واهل السجون اغتتموا اشتغال الناس بالحرب فألقوا النار في البيوت ليتمكنوا من السرقة والنهب . . انزل ياسيدي الى قصرك فانك آمن فيه وهو حصن منيع »

فنزله الامين وسعدون في اثره حتى اذا بلغا الى الدار رأيا اهلهما في هرج ومرج يركضون ذات اليمين وذات الشمال كأنهم يفتشون عن ضائع وحالما وقع بصرم على الامين أجفلا وصاحوا « هذا مولانا أمير المؤمنين . . هو هنا ، وما عثم ان رأى والدته زبيدة تعدو نحوه حتى ضمته الى صدرها ودموعها تتساقط وهي تقول « ولداه أين كنت . ؟ قد شغلت بالى لغيابك الساعة وقد قيل لي انك كنت جالسا هنا لم يجدوك وقالوا انك لم تخرج فطار صوابي لتغيبك في مثل هذا الوقت »

فأثرت لهفة أمه به تأثيراً شديداً ولم يتمالك عن البكاء ولكنه تجلج وأظهر رباطة الجأش وقال « وما الذي يخيفك يا أماه؟ . . اتنا في خير ان شاء الله . وانما كنت في شاغل مع رئيس النجمين . . ما الذي جاء بك الآن؟ »

فأمسكت الامين ودخلت به غرفة ودخل في أثرهما سعدون وأقفلا الباب عليهم وقالت « جئت لأمر هام . . أنت تعلم اني لم أغفل عن التفكير في مصلحتك وقلبي يدلني على خطر يهددنا من يد ذلك الخراساني بهزاد . وما زلت أبت العيون

للبحث عنه حتى قيل لي انه في بغداد ولكنني لم أقف على مسكنه وبينما أنا أتوقع الوقوف عليه حملت حلاً مزعجاً لا أقصه على أحد بل أنا أريد نسيانه .. على انني لم أعد استطيع صبراً على بهزاد هذا وإذا استطعنا القبض عليه فكأننا هزمتنا نصف الجيش لانه منذ وطىء هذه الديار تغيرت حالنا وقوي جند طاهر لان بهزاد زعيم كبير وله نفوذ على كبار البغداديين وقد قلت لك مراراً انه رئيس عصابات سرية أعضاؤها من أكبر تجار بغداد وأهل النفوذ فيها . . . قالت ذلك وقعدت

قعده الامين وهو يشير إلى سعدون أن يقعد وقال لوالدته « واين هو ؟ » قالت « لا ادري أين هو . . . ولكنني سأبعث إلى تلك الفتاة أستقدمها إلى لعلها تعترف بمكانه فيهنون علينا القبض عليه »

فالتفت الامين إلى سعدون كأنه يستطلع رأيه فأشار برأسه وشفقته ما مؤداه « قد تكون مولاتنا مصيبة » فقال الامين « مالنا ولتلك الفتاة وهذا رئيس المنجمين عندنا »

فقالت وهي تعتدل في مجلسها على الوسادة بجانب ابنها « اخبرنا أيها الملقان عما يدلك عليه علمك عن ذلك الخراساني » فاستخرج كتابه وقرأ فيه على عجل ووضع قطعة من البخور في فيه مضغها قليلاً ثم قال « انه في بغداد يا سيدتي » قالت « هل تعرف مكانه تماماً ؟ »

قال يظهر لي انه بين مابين ولكن ليس في النهر . على ان تحقيق ذلك يحتاج إلى وقت أوسع وجو أصفي أما تلك الفتاة فلا تعلم مكانه وكيف يتأني ذلك وهي محبوسة في قصر امير المؤمنين لا يراها أحد ولا ترى أحداً »

فاطرت زبيدة هنية وقالت « علمت ان ابن الفضل يهواها وهي لا تريده ولولا اختفاء والده لزوجته بها رغم ارادتها » وسكتت هنية ثم قالت « والفضل هذا خاننا عند الحاجة اليه انه أصل هذه المصائب وهو الذي حرض محمداً على خلع أخيه والتجريد عليه . . . لعنه الله من خائن . . . »

قالت ذلك وغصت بريقها كأنها شعرت بالخطر المحقق بابنها ثم استأنفت الكلام وبدأ على وجهها الاهتمام وقالت « ولكنني حسنة الظن بالفضل وسأرى » وأحس الامين بما نضمه من الخوف عليه فاحب مغالطتها فقال وهو يظهر التجلد وينكف الابتسام « لا تلعني أحداً وسوف يلقي الخائن جزاءه فاذهي يا أماء الى قصرك الآن واظمئي وادعي لنا بالنصر.. ولا يغرنك ما ترين من كثرة جند الاعداء فاننا غالبون باذن الله ولنا من العيارين أكبر معين » فعلمت أنه يريد انصرافها فنهضت ولما همت بالخروج أحست بما يجب اليها البقاء وقابها لا يطاوعها على فراق ابنتها كأنه أندرها بالخطر عليه فارادت الرجوع الى مقعدها فخافت أن تكدر ابنتها فوقفت هنيئة تتردد وهي تتشغل باصلاح مطرفها وعصابتها ثم اكبت على الامين وقبلته في عنقه قبلة حارة فاحس بسخونة الدمع ودفنها بلطف وقبل ما بين ثدييها وهو يغالب عواطفه ويخاف أن تخونه دموعه . أماهي فأسرعت في الخروج وشعرت ان قلبها خلع من صدرها وانصرفت في موكبها الى قصرها

وكانت الشمس قد مالت إلى المغرب فظهر سعدون رغبته في الانصراف فقال « هل يأمر مولاي بانصرافي »

قال « امكث .. لا تفارقتي . انى سأحتاج اليك الليلة »

فتوقع سعدون من وراء ذلك نبأ جديداً فتفرس في وجه الأمين فرأى اضطراباً لم يعهده فيه من قبل فهم سعدون بالخروج الى بعض غرف الاضياف فأشار اليه الامين أن يمكث ثم صفق لجأه غلام فقال « الى الشراب وانز الشموع » فلما خرج الغلام نزع الامين عمامته عن رأسه وزفر زفرة سمع لها دوي وقال « يلومونني على تعاطي الشراب وماذا يفعل اليأس في مثل هذه الحال ؟ ان الشراب ينفس الكرب ويذهب الغم حتى يقضي الله بما يشاء » أما سعدون فجلس متأدياً وهو يظهر الاحترام ويتجاهل ثم جاء الغلمان بمائدة الشراب والفاكهة وأناروا الشموع الكبيرة المعروفة باسم الامين فصاح الأمين بالغلام قائلاً « هل عمي ابراهيم هنا ؟ » يريد ابراهيم بن المهدي الملقب قال « كلا يا مولاي »

فأشار إليه ان يملا له قدحا ففعل فتناول الأمين القدرح وأشار اليه ان يملا  
قدحا آخر وقال لسعدون « ألا تشرب يا مملقان »  
قال « اذا أمرني أمير المؤمنين أطعته ولكنني لم أشرب قبل الآن والشرب  
لا يوافق صناعتي »

فقال الأمين للساقى « دعه لانسفه . . اتنا في حاجة الى علمه وصناعته  
الليلة . وأه من صاحب بابنا اذا جاءنا رسول أن يوصله إلينا حالا ولو في نصف  
الليل »

فازداد سلمان رغبة في استطلاع ما يضمرة الامين وليث ينتظر ما يبدو  
منه فلم يشرب الامين بضعة أقداح حتى سري عنه فالتفت الى سعدون وقال  
« أتدري لماذا استبقيتك هنا دون سواك ؟ »  
قال « كلا ياسيدي »

قال « لو أردت كشف هذا السر لكشفته لبعض خاصتي ولكنني أصبحت  
لا أثق بأحد من أهل بطانتي بعد ان تكشفوا لى عن أعداء بئباب الاصدقاء  
وما منهم الا من يطمع بمالى أو بخيائى . وبكفيك مثلا منهم وزيرى وهو سبب  
هذا الحصار بينى وبين أخى . . وهو الذى حرصنى على ذلك فلما رأى اشتداد  
الازمة خاف على حياته واخفى ولم يبالي بما يهددني وهكذا فعل سائر أهل  
دولتى فانهم لم يزالوا معي حتى انفقت أموالى وبعث جواهرى وآبئى ودفعتها  
فلما علموا بفراغ يدي تخلوا عني . . وشدد اولئك الاعداء الحصار علينا فتمنوا  
الاقوات عنا ، وكانه خاف ان يبدو عليه الاجهاش للبكاء فتناول قدحا وقطعة  
فاكته يتشاغل بهما وناول سعدون قطعة وهو يقول « فمن كان هذا شأنه  
من رجال بطاتته كيف يرجى فلاحه ؟ »

فاستبشر سعدون من تلك الشكوى وتحقق سقوط هذه الدولة ولكنه  
أظهر استغرابه وقال « لا ييأس أمير المؤمنين ان الله ناصره فليتوكل عليه »  
فقال « طالما خدعتنى الآمال واستخف بي الغرور وصدقت التملقين أهل  
الفساد حتى وقع ما وقع بينى وبين أخى ثم رأيت رجاله أثبت من رجالى وقواده  
أثبت من قوادي ورجعت الى رشدي فاذا أحببت أن أصلحه لا أجد من

يتوسط بيني وبينه .. اعلم أنني أطلعك على سر ضننت به على اهل دولتي . وعلى  
والدني «

فأشار سعدون الى أنه موضع ثقته فقال الامين « لا أخفي عنك أنني لما  
تحققت فراغ يدي من الرجال والمال وامتناع الخروج علي بعثت الى هرثمة في  
البر الشرقي أطلب الأمان وأنا في انتظار الجواب .. فهل فعلت حسناً ؟ »

## الفصل السابع والستون

### الفرار

فاظهر سعدون الاسف ثم رفع حاجبيه وقال « قد فعلت الصواب وما في  
الامان عار لا سيما وانك ستكون في امان أخيك والدم لا يتغير ولا يخون ..  
ولكن .. » وسكت

وكان الامين يصغى لكلام سعدون ويده تفاعه يقشرها فلما رآه توقف  
قال « ولكن ماذا ؟ »

قال « لا أدري الحكمة في مغابرة هرثمة دون طاهر وهو صاحب الجند  
المحاصر لهذا الشطر من بغداد »

فتهد الامين ورمى التفاحة من يده وقال « لا .. لا أذهب الى طاهر  
فاني أتظير منه واكرهه وقد رأيت في منامي كأنني قائم على حائط من آجر  
شاهق في السماء عريض الاساس لم ار مثله في الطول والعرض وعلي سوادي  
ومنطقتي وسيني وكان طاهر في اصل ذلك الحائط فما زال يضربه حتى سقط  
وسقطت قلنسوتي عن رأسي . فتشاءمت منه اما هرثمة فانه من مواليينا وهو  
بمنزلة الوالد وانا اشد اინاساً به وثقة اليه »

فقرص قلب سعدون طرباً لهذه البشارة وأظهر تصويب رأي الامين وقال  
« الرأي لمولانا »

وهما في الحديث جاء الغلام يقول « ان رسول أمير المؤمنين بالباب »  
فظهرت البغته على الامين وقال « يدخل حالا »

فدخل الرجل متكرراً ببياب التجار فوقف له الامين وقال له « قل ما وراءك ؟ »

قال « أقول كل شيء ؟ »

قال « قل لا بأس »

قال « لقيت هرثة وعرضت عليه ما أمرتني به فقال أسمع والطاعة وانه يعد نزول أمير المؤمنين عنده شرفاً كبيراً ولكنه يفضل ان يكون الخروج اليه في الليلة القادمة وليس في هذه الليلة و... »

وكان الامين مقبلاً بكليته يسمع كلام الرسول ونسى للهفته ان يأمره بالجلوس فلما سمع قوله أشار اليه ان يقعد وقال له « وما بعد ذلك قل لا تخف ما الذي بعثه على تأجيل الذهاب ؟ »

فقعد الرجل متأدياً وقال « لانه على ثقة من ان ذهاب امير المؤمنين اليه يسوء ظاهر بن الحسين وهو قريب من هذا القصر وانما شدد الحصار على هذه الصورة رجاء ان يختار امير المؤمنين الخروج بأمانه اليه فيفتخر بالفوز على يديه وله عيون مبثوثة في هذه الاطراف وأخبرني أنه شاهد على الشاطيء أمراً رابه فهو حريص على حياة أمير المؤمنين »

ففهم الامين تهديد ظاهر فقال « بل أذهب الى هرثة . . . ولا بد من الذهاب الليلة لاني أصبحت منفرداً وقد تفرق عني الناس والموالي والحرس وغيرهم ولا آمن اذا انتهى الخبر الى ظاهر ان يدخل على فيأخذني »

ونهمز وقد بان الانقباض في عيائه وأمر فجاء اليه ببياب بيض وطيلسان أسود فلبسها وتعمم عمامة خفيفة ثم صاح في الغلام أن يأتيه بولديه . فوقف سعدون وسكت تهيئاً واحتراماً وقال للامين « يأمر مولاي بخدمة أفضيها فان نفسى فداؤه »

قال « لا تفارقني حتى أخرج إني أرى وحشة » ثم جاءوه بولديه فضمهما اليه وودعهما وبكى وقال « استودعكما الله عز وجل » ومسح عينيه بكفه ومشى إلى بغلة أعدوها له فركبها وسعدون واقف الى جانبه فأشار اليه مودعاً فقبل سعدون ركابه وقال « سر بحراسة الله » فأوصاه بأهله خيراً

وخرج راكباً إلى الشاطيء . وكانت حراقة هرثمة في انتظاره هناك فنزل فيها لحوّل ربانها الدفة نحو الشاطيء . الآخر وكان في الحراقة هرثمة نفسه وجماعة من رجاله . فلما دخل الامين قاموا له وجنا هرثمة على ركبته واعتذر اليه من تقرس به ثم احتضنه وضمه اليه وجعله في حجره ليؤنسه . وكانت ليلة باردة — لأنه خرج في مساء الاحد خمس يمين من المحرم سنة ١٩٨ هـ وهي توافق ٢٨ سبتمبر سنة ٨١٣ (١) وأمر هرثمة النوتية أن يسرعوا في التجديف لانه شاهد حركة على الشاطيء . واذ بزوارق لظاهر كانت راسية هناك قد أسرعت الى حراقة هرثمة وتقبوها ورموا فيها بالآجر والشباب فدخل الماء الى الحراقة فترقت وسقط هرثمة والامين الى الماء فشق الامين ثيابه وخرج إلى الشاطيء ، ونجا هو وهرثمة . فاركبوا الامين حملاً وساروا به يطلبون مخبأ وهم لا يصدقون أنهم نجوا

أما سلمان فلما ودع الامين أصبح همه أن يقتله لأن بقاءه حياً يجعل سبيلاً للمصالحة فلا يستفيد الفرس شيئاً . فترع ثياب التنجيم وسبق الامين الى الشاطيء . واخبر رجال طاهر ان الامين خارج الساعة الى حراقة هرثمة فترقبوا قدومه ولما رأوا الحراقة تتحرك قلبوها كما تقدم . وكان سلمان معهم فنزل في جملة من نزل للبحث عن الامين وعلم أنه بقي حياً فرافق الذين فروا به الى المكان الذي خباؤه فيه ثم رجع الى بهزاد

وكان بهزاد منذ وصوله الى بغداد يحرض رجال الشيعة على الاخذ بناصر أخوانهم وفيهم جماعة الحرمية كما وعدوه قبل سفره ولكنه لم يكن يظهر لطاهر ولا يعلم طاهر بوجوده هناك على أنه كان يفتنم الفرص لمساعدة الجند بمثل ما اتاه في واقعة الري ولكن نفوذه على الحرمية ببغداد كان عوناً كبيراً لرجال المأمون حتى تضرعت أحزاب الامين وضعف أمره واضطر للتسليم . ولم يكن بهزاد يرى ان يأخذ الامين اسيراً وإنما كان همه ان يلتقي به في معركة ويبأرزه ويقتله بنخجره ليتمم وعده لوالدته فيرجع اليها برأسه ظافراً غامراً . وكان في أثناء اقامته ببغداد او ضواحيها يقابل سلمان ويسأله عن

(١) ابن الاثير في التقويم العام

الاحوائى وخصوصاً عن ميمونة وهو يطمئنه ويبالغ في طمأنته لئلا يشغله داعي الغرام عن اتمام مشروعه . واطمأ هذا المشروع بهم سلمان كما بهم بهزاد ولكن غرضه ومطمح أمله في خراسان وليس في بغداد . وربما حسد بهزاد على اجتماعه بحبيته فلذلك كان يبذل جهده في ان لا يجتمعا فكان يطمئن بهزاد عن ميمونة ويطمئنها عنه وبهزاد يرضى بالابتعاد ولا يلح باللقاء خوفاً من أن يبعثه داعي الغرام على ما يحول دون الغرض الاصلى من مهمته

## الفصل الثامن والستون

### القتل

قضى بهزاد في هذه الحال مدة طويلة حتى اشتد الحصار كما علمت وبلغه حديث الناس عن الامين فتوقع قرب تسليمه . وكان ذات ليلة في منزل أحد الحرمية بالكرخ وقد دنا نصف الليل ونزع ثيابه وعلق سلاحه فوق رأسه ونام فجاءه أحد العلمان ينبئه بقدم سلمان فعلم انه لا يأتيه في ذلك الحين الا لامر هام فنهض وأمر بادخاله فدخل سلمان وعليه ثياب لاهي لرئيس المنجمين وللخادم سلمان ودلائل التعب بادية في وجهه فصاح فيه « ما وراءك يا سلمان » قال « ابشر بالنصر »

قال « اني مستبشر به وواثق من الحصول عليه ولكن ماذا حدث ؟ »  
فقص عليه الحديث كله إلى ان قال « فالامين الآن محتبىء في بيت لبعض الناس على الجانب الشرقي وقد تركه عرياناً وليس عليه من الثياب الا سراويل والعمامة وعلى كتفيه خرقة خالقة ومعه احمد بن سلام صاحب المظالم لانه لقيه في فراره واتفق وجودها هناك وسمعت الامين يسأله عن اسمه فلما عرفه واستأنس به قال له ضمنى اليك فاني أجد وحشة شديدة . فضمه اليه وكانت عنده مبطنة القاها عليه ثم سمعته يقول له : يا احمد ما فعل أخي . وقال له : هو حي ؟ فقال . قبح الله بريدكم كان يقول قد مات . كأنه يعتذر

عن محاربتيه وأنا واثق أنه عارف ببقائه حياً — فأجابه ابن سلام : قبح الله  
وزراءك . وسمعتك يقول أخيراً ما ترام يصنعون بي أيقتلونني أم يفون لي  
بأمانهم . فأجابه : بل يفون لك — وقد كذب فأله . . . » وتنحج سلمان  
فادرك بهزاد من ذلك أنه لا بنوي الوفاء له بالامان فقال « وماذا تعنى  
ياسلمان . . . أتري ان تنكث عهد الامان ؟ »

قال « وهل تريد أن يبقى هذا الرجل حياً . . . ؟ فإذا حمل الى أخيه  
تصالحا فيذهب سعينا عبثاً . . . لماذا حملت هذا الخنجر معك من خراسان ؟  
وقد قلت انك نذرت ان تنتقم به لأبي مسلم وجمعه فكيف تنتقم لهما وقد  
سحنت لك هذه الفرصة وهذا الرجل في قبضة يدنا وفي قتله ختام فوزنا أنتركه  
يفلت منا ؟ »

قال بهزاد « انت تعلم أنى أول ناظم على هذه الدولة وقد كرت حياتي  
لمقاومتها ونجحت في مساعي والحمد لله . ومن أقصى رغائبي أن أقتل هذا  
الحليفة بيدي وبخنجرى لأضيف رأسه الى الرأسين اللذين تركتهما في مرو . .  
نعم اريد ان أقتله في ساحة الوغى . . . اقتله وهو مسلح بالمبارزة وليس  
غدرأ وخلسة وهو أعزل خائف وقد دخل في أماننا . . انتكث ونحن انما  
نقمنا على هذه الدولة لانها نكثت العهد وغدرت ببعض رجالنا ؟ . والغادر  
تمود عاقبة غدرة عليه » قال ذلك وبان الحماس في عينيه . فتكدر سلمان لهذه  
الاريجية لانه لم يكن يفهم مغزاها وانما هو رجل ماكر داهية يهيمه تنفيذ  
مآربه لا يبالي بما يعترضه ولا يهيمه ما يأتيه في سبيل ذلك من أساليب الكذب  
والمسكر والغدر . لا يخاف ضميراً ولا يراعي ذماما ولذلك اختاره صاحب  
الامر بخراسان للعمل الذي يحتاج إلى هذه الحصال بخلاف بهزاد وهو رئيس  
شريف وكل اعماله تؤيد ما طبع عليه من الاريجية وصدق الالهجة والبسالة

فلما سمع سلمان اباه لم يستغربه وندم على تكليفه ذلك وتظاهر أنه اقتنع  
بقوله وقال « صدقت يا بهزاد بورك في بطن حملك » وأظهر ميله للرقاد من  
كثرة التعب فنام ونام بهزاد وهو يفكر في ما انتهت اليه هذه المهمة وما عساه  
ان ينجم عنه . وهو راقد في أواخر الليل سمع خربشة فاستيقظ حالا وفتح

عينه فرأى شبعا واقفا بجانب فراشه وهو يتناول الى الحائط فنهض والتفت ولم يدعره ذلك وقال « من هذا ؟ »

فرأى شيئا وقع من يد الرجل على الفراش فتوسمه فاذا هو خنجره والرجل سلمان فقال « ماذا تفعل يا سلمان ؟ »

قال « لا أفعل شيئا وقد فعلت ما أريده وهذا خنجرك خذ »  
فمد يده الى الخنجر فرأى عليه اثر الدم فقال « ماذا فعلت . . هل قتلت الرجل ؟ »

قال « قتلناه لا اقامه الله . . وأنت تريد ان يبقى عثرة في طريقنا فقد مات واسترحنا منه »

فصاح به « ويلك قتلته ؟ وبخنجري ؟ »

قال « لان خنجرك منذور لهذا الامر كما قلت فاحببت ان أتحمّل انا ذنب القتل واترك لك فضل الاباء والنزاهة والاريجية وكبر النفس ( وهز رأسه )  
تريدون انشاء الدول بدون نكث ولا غدور ولم نر صاحب دولة استغنى عن ذلك حتى ابو مسلم الخراساني لو لم يغدر لم يفلب والمنصور لو لم يغدره لم تثبت دولته والرشيد لو لم يغدر بجمفر كان في خطر على خلافته . بل ارجع بذلك الى صدر الاسلام تر علياً وابناءه لم يفشلوا في سياستهم الا لانهم توخوا الحق والوفاء وبالغوا في البعد عن الغدر والدهاء - ولو لم يعكروا معاوية ويغدره لم ينشأ دولة ولا اقام سلطانا . وتوارث العلويون حب الحق والتدقيق في الوفاء من على فكان حظهم الفشل مثل حظه . ونحن في حاجة الى الغدر الآن - ومع ذلك فلم أكلفك ارتكاب هذه الجريمة فتحمّلت الذنب وحدي »

فاعجبه اعتذاره ولكنه قال له « ومع ذلك فان الغادر تعود عاقبة غدوره عليه والتاريخ أصدق شاهد » وسكت وقد سره التخلص من الأمين على غير يده بدون أن يتحمل دمه فقال « وكيف فعلتم ؟ . . كيف قتلتموه ؟ . . قبحكم الله »

قال « سرقت خنجرك وتزييت بزى جند الفرس وأسرعت الى المكان الذي تركت الأمين فيه وقد مضى نصف الليل والظلام شديد فلقيت يبابه

بضعة رجال من العجم معهم السيوف مسلولة فاختلفت بهم ودخلت معهم على الامين فوجدته قاعداً ولما رآنا قام قائماً وقد أخذ الرعب منه مأخذاً عظيماً وقال « انا لله وانا اليه راجعون ذهبت والله نفسي في سبيل الله . أما من مفيت أما من أحد من الابناء ؟ » أما نحن فظللنا داخلين عليه وكان بيد الامين وسادة تترس بها وهو يقول « ويحك أنا ابن عم رسول الله أنا ابن هارون أنا أخو المأمون الله الله في دمي » فخفت أن تدرك القوم رأفة له فيفسد علينا أمرنا فالحجت على رجل أمامي سيفه مسلول بيده وقات عليك به فضربه بالسيف على رأسه فرماه الأمين بالوسادة فتقدمت أنا وطعته بهذا الخنجر في خاصرته فكانت القاضية فصاح « قتلني قتلني » فدخل سائر القوم فذبجوه من قفاه واخذوا رأسه ومضوا به الى طاهر (١) وجئت أنا بالخنجر اليك - فان كنت ترى اني أستوجب الفصاص فاحكم على »

قال « يظهر أن الرجل كان مقتولا لاعمالة ولكنك جعلت لخنجري دخلا في القتل حتى يصح النذر . . . رحم الله الامين وهنيئاً لنا فقد انتهت مهمتنا »

قال سلمان « فاذا نحن راجعون الى خراسان غداً اذا شئت »

قال « ولماذا هذه العجلة »

فقال وهو ينظر اليه شزراً « قد فرغت أنت من عمالك وضمنت مستقبلك وهذه ميمونة تحت أمرك لو مكثت هنا أو غير هنا فأنت مطمئن اما أنا فلي مأرب في خراسان لم أتوثق منه لذلك أحببت سرعة الرجوع »

قال بهزاد « وميمونة ألا تخرجها من المكان الذي حبستها فيه »

فضحك وقال « صدقت . . هي في قصر المنصور وفي الغد أسلمها اليك مع جدتها . . ألا يكفيك ذلك »

قال « بلى . واني شاكر لك كثيراً وقد آآن لنا أن نتعامل كالاخوة فانت

أخي وصديقي منذ الآن وقد انقضى زمن الخدمة بانتهاء هذه المهمة »

فاننى سلمان عليه وباتا بقية ذلك الليل ونهضنا باكراً فقال سلمان « اني

ذاهب الساعة بلباس رئيس المنجمين حتى يسهل على الدخول الى قصر المنصور  
واحضار ميمونة وأنت ماذا تفعل ؟  
قال « أسير في ظلك او انت تسير في ظلي حتى لا نضيع فرصة »  
قال « حسناً »

## الفصل التاسع والستون

ابن الفضل

وتزيا سلمان بزى رئيس المنجمين وركب بغلته وركب بهزاد جواده  
وعليه القباء والقلنسوة والسراويل كانه أحد كبراء الفرس فمرا بأسواق  
السكرخ وقد لاح الفجر وتحولا من ناحية باب الكوفة فهالهما ما شاهداه  
من ازدحام الاقدام واستغرابا كثرة ما يتساقط عليهما من الحصى التي كان  
يرميها العيارون من الاسوار ولم يباليا بذلك وقبل وصولهما الى الباب  
المذكور رأيا جماعات من الناس وفيهم أهل الاسواق فضلا عن الجند الخراساني  
يتسابقون نحو البستان الذي كان ظاهر معسكراً فيه واذا برأس مرفوع على  
قناة علم سلمان لاول وهلة أنه رأس الامين قد جاء به طاهر وغرسه على  
برج فوق حائط البستان . ولما رآه الناس أسقط في أيديهم وهلمت قلوبهم  
أو اعلمهم فرحوا بالفراغ من الحرب فاستلفت انتباه بهزاد فلما وقع نظره  
على الرأس كبر واستعاذ بالله وقال « سبحان الحى الباقي اليوم سقطت  
دولة وقامت دولة أخرى — اذا عرف الفضل بن سهل الانتفاع من هذا  
النصر »

فقال سلمان « ما ظنك بطاهر يفعل بهذا الرأس »

قال « أظنه يرسله حالا الى المأمون في خراسان ومعه البردة والخاتم  
والفضيب لتطمئن القلوب ويتحققوا النصر وينال طاهر عليه جائزة كبيرة  
ويصبح المأمون الخليفة الوحيد »

أما قصر المنصور فقد غادره سلمان بالامس واهله غافلون عما يجري

في قصر الخلد وكانت القهرمانة فريدة في مساء الامس مشتغلة بشؤونها فجاءها الحاجب يقول « ان ابن الفضل بن الربيع بالباب يطلب مقابلتك » وكانت تعرف ابن الفضل ومنزلته عند الامين فظنت ابنه قادما بأمر هام فأذنت بدخوله . وكان قد مضى عليه مدة وهو مختف مع أبيه لاسباب تقدم ذكرها لكنهما لم يفارقا بغداد فكانا على بينة مما يجري فيها فعلم ابن الفضل في ذلك المساء ان الامر قد استفحل ولا تلبث بغداد أن تسقط في ايدي الحراسانيين . وكان يراقب حركات ميمونة ويعرف امرها وقد سعي جهده في الحصول عليها حتى ذهب الى زبيدة في صباح الامس واقنعها انه يقدر ان يستعلم منها عن محل بهزاد ولمح انه يحبها فقالت « اذا استطعت معرفة مكان الرجل فاني املكك اياها » فطلب منها أمراً للقهرمانة أن تأذن له بمقابلتها . ولما رأى اضطراب الحال في ذلك المساء أتى ببعض العيارين واستأجرم لاختطاف ميمونة اذا لم تأذن القهرمانة بتسليمها اليه وجاء الى قصر المنصور

فلما دخل على القهرمانة قابلته احسن مقابلة وسألته عما يريد فدفعت اليها كتاب زبيدة فتذكرت ان سعدون كان قد أوصاها ان لا تأذن لأحد باخراجها فلم تر بأساً من ان يقابلها ابن الفضل فدخلت عليها واخبرتها ان ابن الفضل يريد مقابلتها وكانت جدتها عبادة معها فصاحت . . « لا شغل لنا معه »

فقالت « ولكنه جاءني بأمر من مولانا زبيدة »

فلما سمعت عبادة ذلك الاسم اضطربت جوارحها وتشاءمت وتوسلت الى القهرمانة أن ترد عنها هذا الشاب فلم تفعل

فأقبل ابن الفضل على الغرفة وقد انبرت بها الشموع وجلست ميمونة بشوبها الاسود وقد تغير لونها من توالي المصائب وأصابه شحوب زاده رقة فدخل وهو يتسم ابتسامة الاستعطاف وفي وجهه أمارات الحب فلما رأته أشعر بدننها وظلت جالسة مطرقة فتقدم نحوها وحياها وقال « الا تعرفيني يا ميمونة ؟ »

قالت بنفرة وجفاء وهي تحول وجهها عنه «كلا»  
 قل «الا تعرفين شاباً يهواك الى حد التلف؟ الا تعرفين ابن الفضل؟»  
 قالت «أعرف هذا الاسم بالسمع وذكره يؤلمني لأن أباه البسفي هذا  
 الثوب»

فقال وهو يتلطف بتعبيره «اذا صح فإني أتكفل ان اعوضك منه ثوباً  
 أبيض وأن ابدل ايامك السوداء بأيام بيضاء كالثلج...»  
 قالت وهي تنظر اليه شزرراً «قد تعودت السواد ولم أعد اشتبهى سواء»  
 قل «البسفي ما تشائين وافعلي ما تشتهين ولكن تعطيني على فقي يحبك  
 حباً مبرحاً. انى احبك يا ميمونة ولكفي سوء الطالع لانك لا تحبينني...»  
 قال ذلك وجثا بين يديها واراد لمس يدها فجذبته منه كأنه عقرب تريد لدغها  
 فوقف وقد شق عليه جفاؤها وقال «جئت يا ميمونة اتوسل اليك باسم  
 الحب فاذا لم تشفقي على تذلي جثتك من سبيل آخر»  
 فقالت «لا اعرف لك سبيلا الى دعني وشأني وابحث عن سواي فان  
 النساء كثيرات»

قل «لم يقع اختياري على سواك ويدلك على ذلك ثباتي في حبك رغم  
 ما تظهرين من النفاق.. أتم بأن ان تعطيني»  
 فتحولت عنه وقالت «دعني يا رجل...»  
 فهض وقال مهدداً «قلت لك اذا ظلمات على هذا الجفاء عاملتك بالنسوة  
 ولو شق علي ذلك

قالت وهي لا تنظر اليه «لا تستطيع أمراً ونحن في قصر أمير المؤمنين»  
 قال «اني أستطيع حملك بالقوة فان معى فرقة من الجند وييدي أمر من  
 أم الخليفة»

وكانت جدتها جالسة تسمع ما يدور بينهما فصاحت فيه قائلة «كنت  
 أحسبك شهماً يؤثر فيك الكلام... أما كفاك ما سمعته؟. دع الفتاة وشأنها.  
 ولو كنت في مكانك وعلمت انها لا تحبني لتركته في أى حال»  
 قال «كنت اتركها ولا أبالي بها ولكنني يشق على أن اعود بالفشل بعد

الصبر زماناً طويلاً فالآن ولو كنت لا أحبها فاني أريد أن أعلمها من انا وان  
مثلي لا يعامل هذه المعاملة وفي بغداد مئات من بنات الأمراء والقواد يتمنين  
رضاي « والتفت الى ميمونة وقال « راجعي نفسك وثقي اني أنصح لك فلا  
تلجئيني الى القوة أن فرقة من العيارين في انتظار امري خارجاً »

فضاقت نفسها وتعلمت وصاحت « ويلاه أين الجند أين الحرس ؟ »  
فنهضت جدتها وقالت لابن الفضل « اكفنا أيها الشاب شرك ودعنا وشأننا ..  
اذا كنت تعرف من نحن فاشفق علينا وكفانا ما قاسيناه من البلاء »

وم في ذلك سمعوا جلبة في الدار فظنت ميمونة أن العيارين دخلوا للقبض  
عليها فصاحت « ويلاه ياربي . اذا لم يكن قد انتهى جبل مصائبى خذروحي »  
وظفقت تبكي ولم تتمالك لاضطرابها ولهفتها أن صاحت « أين سلمان . أين  
بهزاد ؟ أواه ما أشقاني » وكانت جدتها في أثناء ذلك واقفة الى جانبها تهون  
عليها والدموع تتساقط من عينيها

أما ابن الفضل فعلم ان الضوضاء ليست من العيارين فخرج ليرى سببها  
فسمع الخدم يقولون « السيدة زبيدة أتت »

فاستغرب الجميع مجيئها في تلك الساعة وقد مضى معظم الليل  
والسبب في مجيئها انها بعد ان خرجت من قصر الخلد في ذلك المساء وهي  
على ما وصفنا من الخوف على ابنها ذهبت الى قصرها وظلت مشغولة الخاطر  
وكان قلبها دها على الخطر القريب فذهبت الى الفراش ولم تم . وبعد منتصف  
الليل أيقظتها قهرمانه قصرها فنهضت مندعورة وسألت عن الخبر فقالت  
القهرمانه « ان بعض شاكرية قصر الخلد يسأل عن أمير المؤمنين »

فصاحت يسأل عن ابني ؟ يسأل عنه هنا . . أين هو ؟ اني تركته في قصر  
الخلد منذ ساعتين . أين الشاكري ؟

فادخلوه اليها فقالت « أين أمير المؤمنين ؟ »

قال « لانعم ياسيدي وقد بحثنا عنه في كل مظانه بالقصر فلم نجده ولا نعلم  
أين هو »

فنهضت والتفت بظرفها وركبت الى قصر الخلد وفقشت عنه هناك فلم

تجده في مكان فخطر لها أنه ربما ذهب في أمر وسعود فمكثت على مثل الجمر حتى كاد الفجر يلوح فحدثتها نفسها انه لعله دخل مدينة النصور للامتناع في قصرها فركبت اى هناك فقابلتها القهرمانة فسألتها عن الخليفة فقالت انها لم تره فقالت زبيدة « رأيت بالباب بعض المياريين فمن آتى بهم الى هنا ؟ »  
 قالت « ابن الفضل وقد جاءني بكتاب منك ليكلم الجارية ميمونة »  
 فلما سمعت اسمها اشتد غضبها وتصورت انها مصدر متاعها فصاحت « أين هي ؟ »

قالت « هي في هذه الغرفة » ولم تصبر زبيدة لتستدعيها اليها فتوجهت الى الغرفة ودخلت فجأة وقد أخذ الغضب منها مأخذاً عظيماً فلقبها ابن الفضل بالباب فتسحى فدخلت فرأت ميمونة واقفة وجدتها عبادة الى جانبها فلما رأت عبادة هناك لم تتمالك أن صاحت « وأنت هنا أيضاً ؟ تبك لك من عجوز شقية . انك سبب متاعبي وأصل بلائي ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »  
 فاطرقت عبادة وسكنت لانها لم تجد وجهها للكلام ولا عذراً للمجيء .  
 فوجهت زبيدة خطابها الى ميمونة وقالت « والآن ألم يئن لك أن تقولى لنا عن مكان ذلك الشقي الخائن الذي تسمونه بهزاد . . . قد علمت أنه في بغداد وكل بلائنا منه . . . أين هو ؟ »

فقالت وصوتها يخفق من الخوف « لا أعلم يا سيدتى لاني سجينه هنا ولا يصل الى خبر ولا أعرف من حوادث الدنيا شيئاً »  
 قالت « أتكذابين والملائق بينك وبينه لم تنقطع على يد خادم له اسمه سلمان ؟ »

فقالت « اسألى القهرمانة اني لا أرى خادما ولا أميراً بالله اشفقي على يا سيدتى وكفانى ما أقاسيه » وأغرقت في البكاء  
 قالت « اشفق عليك ؟ لماذا . ؟ . آه لو استطعت خنقك بيدي لم أتأخر »  
 ثم التفتت الى الخارج فرأت ابن الفضل لا يزال واقفاً فصاحت به « خذ هذه الجارية فقد ملكتك إياها افعل بها ما تشاء . وهذه العجوز النحس سوف أذيقها ما تستحقه »

فلما سمعت عبادة قولها جثت بين يديها وقالت « افعل بي ما تشائين وارفقى بهذه الفتاة فانها بريئة من كل ذنب . قد تضرعت اليك بشأنها قبل الآن فرددتني والآن أتوسل اليك وأنت والدة وتعرفين حنو الأمهات أن تترقي بهذه الفتاة .. وأما أنا فلا أسف على حياتي »

فلما سمعتها تذكر حنو الوالدات أحست بشيء أو هن عزائمها لعلها بما يهدد ابنها من الخطر ولا سيما في تلك الساعة إذا أضاعته ولا تعلم حي أم ميت — والانسان لا يشعر بمصائب الناس الا اذا أصيب بمثلها أو تعرض للاصابة بها . فكم يسمع العازبون بشكل الآباء أو الامهات فلا يهمهم ذلك كثيراً فاذا تزوج أحدم وربى ولدا أصبح اذا سمع صياح طفل من مغمص أو جوع تفتت كبده عليه وأسرع الى اعالته ولو م معه العازب لنقم على أهله وأشار بضربه . حتى الآباء لا يشتد شعورهم بهول الشكل إلا اذا أصيبوا به أو تعرضوا له كما أصاب زبيدة في ذلك اليوم — فقد سمعت عبادة تتوسل اليها قبل الآن بحياة ابنها فلم يؤثر قولها بها أما يومئذ فلما سمعت قولها دببت الشفقة في عروقها وسكنت كأنها أصيبت بالحرس وتساقت من عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها وهي تعالب عواطفها وتتجلد لئلا يظهر الضعف عليها فنهضت وتظاهرت بالغضب وقالت « قلت لك انه لا سبيل الى خلاصها الا اذا اعترفت بمكان بهزاد وإلا فهي ملك لابن الفضل » وأشارت اليه ان يأخذها

وكان الصباح قد لاح وم لا يشعرون فتقدم ابن الفضل الى الفتاة وهو يحسبها لانت فاذا هي تنوح وتبكي وتصيح « لا لا . لا أذهب اقتلونى في مكاني آه يا بهزاد اين أنت أواه هذه عاقبة الصبر ؟ »

## الفصل السابعون

### قضى الامر

وخرج ابن الفضل في أثناء ذلك لينادي العيارين ليقبضوا عليها ويحملوها قهراً فسمع الخدم يقولون « أتى رئيس النجمين ، فاراد ان يراه ويخاطبه

لعله يقنعها بالحسنى فقيل له « انه عند السيدة زبيدة » وكانت قد انفردت في القاعة الكبرى واخذت تفكر في ما أحاط بها وما يهددها وقلبا خائف على ابنها . فدخلت القهرمانة وأخبرتها بقدم رئيس النجمين فقالت « ادعيه إلى » وكان سلمان وهزاد قد وصلا القصر منذ هنيهة والمدينة قد سلمت وأهل قصر المنصور لا يعلمون . فلما أتيا ذلك القصر وجدا في ساحته جماعة من العيارين فلم يبالي سلمان بذلك فتقدم الى الباب فرآه موصداً وسمع ضوضاء من الداخل فقرعه فلم يجبه أحد فبالغ في القرع فأطل عليه خادم من كوة فوق الباب وقال « من الطارق ؟ »

فرفع سلمان بصره فرأى غلاما عرفه فصاح به « افتح حالا » فعرف الغلام انه رئيس النجمين فأسرع وفتح الباب فدخل يبغله ودخل هزاد في أثره الى فناء القصر وترجلا وسلا الدابتين الى الغلام فرأيا أهل القصر في هرج والحدم يدخلون ويخرجون من باب القصر الداخلي . فقال رئيس النجمين للغلام « أين القهرمانة ؟ »

قال « هي بين يدي مولاتنا زبيدة » فلما سمع ذلك تشام من وجودها هناك فقال « ادع لي القهرمانة الساعة . قل لها رئيس النجمين يحتاج إليك في أمر هام » فمضى وعاد وهو يقول « ادخل فان السيدة زبيدة تحتاج إليك » فالتفت الى هزاد وقال له « لا شك أنها ستسألني عن ابنها وعن مكانه وربما تسألني عنك فهل أذهب اليها وحدي ؟ »

قال « دعني أذهب معك » فقال سلمان للغلام « قل للقهرمانة ان مع رئيس النجمين رفيقا لا يدخل بدونه »

فعاد وقال « ادخلا الى القاعة فدخلا والغلام يمشي أمامهما الى القاعة . فدخل أولا سعدون وحياتم دخل بهزاد ولم تنتبه له زبيدة لاشتغالها بهواجسها وكانت قد تربعت ووضعت على حجرها وسادة أسندت اليها كوعيا واستلقت رأسها بين كفيها . غالما دخل سعدون رفعت رأسها وصاحت به « ويلك ؟ »

أين كنت وكيف أتيت في إبان الحاجة إليك ؟ ، ثم أشارت إليه بالقعود فقعده  
وقعد بهزاد وهي لا تراه

فقال سلمان « كنت مجدأ في البحث عن بهزاد حتى وجدته »

فأبرقت أسرتها وصاحت « وجدته ؟ . . . أين هو ؟ »

فأشار الى بهزاد وقال « هذا هو يا سيدتي »

فدهشت وأجفلت وصعد الدم الى وجهها ونظرت الى بهزاد وتفرست

فيه فرأت جمالا وإجلالا ووقاراً فلم تتمالك أن صاحت فيه « أنت بهزاد ؟ »

قال « نعم أنا هو »

قالت « كيف تجرات على المجيء الينا ألم تخف بطش أمير المؤمنين ؟ »

فقال بهدوء ورزانة « لم أخفه حياً فكيف أخافه ميتاً »

فذعرت واقشعر بدنهما ولطمت خديها وصاحت « أمير المؤمنين ؟ ابني

محمد . . . ماذا تقول .. تهزأ بي يا أنذل الرجال ؟ »

قال « كلا ياسيدتي إني أقول الحق . . . ويسوءني أن أقول ذلك في حضرته »

علمي انه يؤملك ولكنك سألتني فلم أكذبك »

فالتفتت إلى سلمان وهي تحسب نفسها في منام وقالت « سعدون قل الصحيح

قل أين أمير المؤمنين أظن الرجل يهذي .. اين ابني محمد . ولدي حبيبي اين

هو . . ؟ قل »

فأجابها ببرود « رأيت رأسه معلقاً على حائط البستان يا سيدتي وقد قضي

الامر » قال ذلك ونهض فلطمت زبيدة خديها بكفيها وصاحت وولولت . وسمع

بهزاد في تلك اللحظة صوت ميمونة تستغيث به وتقول « آه اين انت يا بهزاد

انجدني انقذني »

فوثب من القاعة ويده على خنجره وهو يقول ليك يا حبيبة »

فرأى جماعة من العيارين قد امسكوا بشعرها وأخذوا يجرونها وابن

الفضل واقف يقول « خذوا هذه الخائنة »

فلم يكذب بهزاد ان استل خنجره وطعن ابن الفضل طعنة قضت عليه وتحول

الى العيارين وصاح فيهم « أخسأوا يا أنذال قد جاءكم بهزاد فلما سمعوا صوته

ورأوا ابن الفضل مجندلا فروا هاربين - ولم تكن ميمونة تعلم بوجود بهزاد هناك ولكنها لما يئست من النجاة ورأت ابن الفضل يأمر العيارين بجرها استغاثت على غير هدى فلما رأت بهزاد ترامت عليه وانغمى عليها وأسرعت جدتها اليه وقالت « من أين اتيت ليتنا ايها الملاك ؟ . انى أخاف عليك من هؤلاء الانذال »

فقال « لاتخافي ياسيدي ان بغداد في قبضتنا ورأس الأمين معلق على الحائط يراه الناس »

فلما سمع أهل القصر ذلك ذعروا وفشلوا وترا كضوا الى زبيدة فرأوها في القاعة وقد حلت شعرها وأخذت في النحيب وهي تقول « وا ولداه . . قتلك البغاة الظالمون »

فسمعتها عبادة تقول ذلك فآثر قولها في نفسها فدخلت اليها ولما رأتها في تلك الحال غلب عليها الحزن وورقت لحالها فاكبت على يديها تقبلها وتقول « ارفقي بنفسك ياسيدي هذه ارادة المولى . . » وتذكرت مصيبتها بابنها فشاركتها في البكاء

وكانت زبيدة تتوقع أن تشمت عبادة بها فلما رأت مجاملتها وسمعت بكاءها خجلت ونظرت اليها نظر الانكسار والذل - ولا يذل مثل الموت - وقالت « صدقت يا أم الفضل ( عبادة ) لا يعرف قيمة الشكل الا الذي ذاقه . . آواه وا ولداه . . رحم الله جعفرًا والرشيد ورحم الله محمداً . . مات ؟ . . مات حقيقة ؟ . . قتلوه ؟ . . علقوا رأسه كما علقوا رأس ابنك ؟ . بالله ارفقوا بيدنه الغض إنه لم يتعود الشقاء . . لاطاقة له بحر الشمس . . كيف علقتموه انه لم يتعود غير الرفاه والنوم في الحرير . حرام عليكم . . انه شاب في مقتبل العمر . . ألم يكن الاولى ان اقتل انا وبقى هو حياً . . . . انزلوه وعلقوني مكانه . . صدقت يا أم الفضل اني لم أصغ لتضرعك لاني لم أكن قد ذقت الشكل . . » وأخذت في البكاء والنحيب وقد حلت شعرها وطففت تلمطم وجهها وهي تخطر في القاعة ذهابًا وايابًا على غير هدى حتى لم يبق أحد هناك إلا بكى ثم اشتغل كل بنفسه

أما بهزاد فلم يكن همه الا ميمونة فاحتملها بين العوغاء وخفف عنها وهي تحسب نفسها في منام . تنظر الى بهزاد ولا تصدق انها تراه وقد جاءها في ابان الحاجة اليه فانقذها من القتل . وبينما هي تمشي بالدار متكئة على ذراعه انتهت إلى جثة ابن الفضل ملقاة على الارض فقالت لبهزاد « انى آسفة لمقتل هذا الشاب فقد كان حسن الظن بي ولا يريد إلا خيراً ولكنه كلفني ان أحبه وقلبي لا يحب غير بهزاد حبيبي . . . »

فقال بهزاد « ولكنني رأيتك يتحرك ويهددك فلم أطق صبراً فقتلته . مالنا وللناس قد قضي الامر هلمى بنا . . . سلمان . . . هيا بنا »  
جاء سلمان فتناول عبادة وأخذ بهزاد ميمونة وخرجوا فركبوا دوابهم وانصرفوا وتركوا أهل قصر المنصور في ماتمهم

## الفصل الحادي والسبعون

### الموت الهنيء

وبمقتل الأمين انتهى الحصار بين الاخوين ودخلت بغداد في حوزة المأمون وأصبحت الخلافة له . ولكنه بقى في خراسان وأتاب عنه في بغداد وغيرها مما فتحه طاهر بن الحسين الحسن بن سهل أخا الفضل وكتب الى طاهر بتسليم ذلك اليه

أما بهزاد فلم يبق له شغل في بغداد وأصبح بعد ان أم مهمته راغباً في الرجوع الى والدته بمرو ليبشرها بالفتح ويخبرها بحبه ميمونة لئباركه وتزوجه بها . وفي اصيل اليوم الذي خرج فيه من القصر ركب هو وميمونة وعبادة وسلمان يريدون خراسان وميمونة لاتصدق انها مع حبيبها ولا ترتوي من النظر اليه وقد تجدد شوقها لمعرفة حقيقة حاله وما هو نسبه وما غرضه وما كان يحمله في ذلك الصندوق من الاسرار . وهمت ان تسأله في أثناء الطريق فمنعها الحياء ووجود جدتها . على انها عللت النفس بمعرفة ذلك عند وصولها الى خراسان

وكانت فاطمة والدة بهزاد وسائر أهل خراسان ينتظرون خاتمة هذه المساعي بفارغ الصبر وقد قضاوا في ذلك منذ توفي الرشيد بطوس إلى ان قتل الامين ببغداد نحو خمس سنوات والفضل بن سهل وزير للمأمون في خراسان يشير عليه ويدير شؤونه وقد سماه المأمون ذا الرياستين

فلما جاءم البريد بمقتل الامين وتسليم بغداد فرحوا واستبشروا ثم أرسل طاهر برأس الامين إلى المأمون ومعه البردة والقضيب والحاتم فوصل ذلك إلى الفضل فأدخله للمأمون على ترس فلما رآه سجد . وقد تمكن الفضل بما أراه من تمهيد الامور لارجاع سلطة الفرس بظل الشيعة إذ بايع المأمون لعلي الرضا زعيم حزب الشيعة بالخلافة بعده وأمر الناس بترك لباس السواد شعار العباسيين والاستعاضة عنه بلباس الحضرة . فكان لذلك وقع سيء لدى العباسيين في بغداد وكاتبوا المأمون يعاتبونه ويهددونه . ولكن كتبهم كان يتناولها الفضل بن سهل ولا يطلع المأمون عليها لفرط دالته ونفوذ كلمته

وصل بهزاد إلى مرو وقد نال ما يرجوه من ثمار سعيه ومحبوته معه . أما سلمان فقد قام بما عليه ولكنه لم ينل جزاءه بعد . فلما وصل بهزاد إلى مرو واستأذن سلمان بالذهاب إلى بيته مع عروسه فقال سلمان « لاتنس انك فرغت من مهمتك وأنا لا أزال أتوقع النتيجة »

فقال بهزاد « ستكون رئيساً لجماعة الخرمية وقد أوصيت لك بذلك من قبل . ألا يقنعك هذا الجزاء ؟ »

قال « كلا . . . وانما أرجو شيئاً آخر هو أم عندي من الرياسة فنكن ساعدي فيه كما كنت ساعدك في مثله »

قال « لم أفهم مرادك »

قال « ألم أكن نصيرك في الحصول على ميعونة فأنا أطلب الزواج بيوران بنت الحسن بن سهل وإذا شاء عمها الفضل فالامر هين وأظني أهلها بعد ما اتيتهم من المعجزات في نصره هذه الدعوة »

فاطرق بهزاد وأعمل فكرته في هذا الطاب فلم يجده بعيد المنال وتذكر ما دار بينه وبين الفضل بشأن بوران قبل عوده إلى بغداد فرأى في تزويجها

سلمان فضا للمشكل فقال « غداً ننظر في ذلك ولكنني أطلب منك خدمة هي  
حاجة أفضالك علي

قال « وما هي ؟ »

قال إني أحتاج الى رأس الامين .. هل تحتال في استخراجه الى من مدفه  
سراً كما استخرجنا رأس جعفر ورأس أبي مسلم ؟

فادرك سلمان غرضه فقال « ذلك هين علي فانتظرني الى الغد فأتيك بالرأس  
الى منزلك وافترقا

وسار بهزاد توا الى بيت والدته فاطمة ومعه عبادة وميمونة وهو يخاف  
ان تكون والدته قد دأمتها الموت في أثناء غيابه فقرع الباب وهو مصيح بسمعه  
فلم يجبه احد تخفق قلبه فقرع ثانية فسمع وقع اقدم في الداخل ثم فتح الباب  
وأطل الخادم الذي فتحة له في المرة الماضية وانس في وجهه تغيراً وانقباضاً  
فانتدبه قائلاً « كيف ماما ؟ »

فرحب به وقال « هي في خير . . . ولكنها تشكو ضعفاً من شدة شوقها  
إليك »

فأسرع اليها بعد أن أوصى الخادم ان يدخل الضيفتين الى غرفة ترتاحان  
وبها ودخل على والدته فوجدها ملقاة على سريرها وقد غارت عيناها وبرزت  
وجنتاها وبان فيها الهرم المتناهي فوقف بازائها وحياها بصوت ضعيف وهو  
يخشى ان تكون قد ماتت

فلما سمعت صوته أفاق وفتحت عينيها وأدارت رأسها يبطء لشدة  
الضعف وتبسمت تبسماً لا رونق فيه . جثا بجانب سريرها واكب على يدها  
وقبلها فأشارت اليه ان يدنو منها فقبلت جبينه ونظرت اليه نظرة مستفهم  
فقال « قد جئتك يا سيدتي بما تريدن فقلنا القوم الظالمين وقتلنا خليفتهم  
الغلام العر وأصبح ابن اختنا المأمون خليفة المسلمين وغداً يكون الخليفة علي  
الرضا صاحب الشيعة ثم تعود الدولة لنا . فما أني انتقم لجدي بخنجره كما  
امرت ، ومد يده فاستخرج الخنجر واراها أثر الدم على نصاله وقال « وانتقم  
لجعفر بن يحيى »

فبان السرور في وجهها وتهدت تهدمرتاج وتجلدت وقالت بصوت متقطع « بورك فيك يا بني . لقد زعت العار عن قومك وجبرت قلب والدتك » ثم تهدت وتعلمت وهي تتجلد وتغالب الضعف وقالت « أين الرأس الثالث ؟ »

قال « يكون هنا في صباح الغد وتدفن الرؤوس الثلاثة معاً حسب الوعد » فرفعت يدها نحو السماء كأنها تدعوه ثم لمست وجهه لتباركه فاحس ببرودتها وجفافها كان أصابعها من حديد بارد وأومات اليه فأعنى عليها فقبلته ثانية وهمست في أذنه بصوت لا يكاد يتميز « ادقنها معي غداً »

فنظر الي وجهها الشاحب الضئيل فرأى في عينيها دموعين تحاولان الانحدار ولا تجدان مخرجاً من المقلتين لشدة غورها وهي مستلقية فتتحقق قرب أجلها فابتدرها قائلاً « لقد باركتني يا أماء فانوسل اليك أن تباركي فتاة ستكون شريكة حياتي كما كانت شريكتي في المصائب » والتفتت فأشار الي الخادم أن ينادى الامراتين

فلما سمعت طلبه استفهمته بعينيها لان الضعف ربط لسانها فاستمهلها بالاشارة

وكانت ميمونة لما سمعت بهزاد يسأل الخادم عن امه ساعة وصولهم قد علمت أنها في منزله وأصبحت شديدة الميل الي معرفة نسبه فلما جاءت لمشاهدة امه ذعرت لما رآته فيها من الضعف والشيخوخة وبان ذلك عليها وادرك بهزاد ذعرها فابتدرها قائلاً « طالما احببت ان تعرفي نسي فاعلمى ان هذه الراقدة أمى وهي بنت أبي مسلم صاحب الدعوة . مؤسس الدولة العباسية الذى قتل غدراً كما قتل أبوك . وليس في خراسان من يعلم انى حفيد ذلك البطل الا هذا الخادم وأمي والناس يحسبون انى ربيها لاني ولدت بعد وفاة والدى وادعت هي انى ربيها ووقفتى على الانتقام لأبيها وسمتني كيفر . وقد آن لى ان أخبرك عما في ذلك الصندوق فاعلمى انه يحوي رأسين عزيزين هما رأس جدى ورأس ابيك »

فلما سمعت ميمونة ذلك أجفلت وتغير لونها فشغلها عن الدهشة بنام الحديث فقال « وقد حفظتهما في ذلك الصندوق هنا حتى أتيت برأس الامين وهو ثالثهما وسيؤتى به الينا غداً ويدفن الثلاثة معاً فاكون قد وفيت نذر والدتي وزدت على ذلك اني اتيتها بابنة جعفر حبيبا . . »

فقلت « انت اذاً حفيد أبي مسلم ؟ »

قال « نعم وانت بنت جعفر وقد قدر لنا الانتقام من أعدائنا »

وكانت فاطمة في أثناء ذلك مستغرقة في النوم لشدة ضعفها فلما فرغ بهزاد من حديثه امسك ميمونة بيدها وادناها من سرير والدته وهو يقول « هذه ميمونة بنت جعفر بن يحيى قتيل الرشيد قد اسعدني الحظ بلقيهاها واحببتها واحببني وقاست العذاب معي وقد فرحنا معاً وهي ستكون زوجتي فباركها »

فرفعت يدها وأشارت اليها ان تدنو منها فدنت قبلتها ومسحت وجهها بكفها وتمتمت وأشارت الى ثوبها الاسود وشفعت ذلك بإشارة النهي ففهمت انها تأمرها بنزع الحداد فأشارت مطيعة . ثم استقدم عبادة وكانت بجانبه وقال لها « وهذه ام الفضل والدة جعفر الا تعرفينها ؟ »

فتفرست فيها مع شخوص بصرها وجموده وتكلفت الابتسام كأنها تقول « عرفتها » فقالت عبادة « نعم اني اعرفك منذ صباي » وانحنت عليها وقبلتها فلمستها فاطمة بشفتيها كالتقيل وقد أخذ منها الضعف مأخذاً عظيماً واحست بضيق صدرها وسرعة تنفسها فعلم القوم انها في حالة النزاع ولكنها ما زالت مبتسمة ابتسام الفوز حتى فاضت روحها وهم ينظرون اليها وهي تفتح عينيها تارة بعد اخرى . فلما ارسلت نفسها الاخير بكوا عليها . وفي اليوم التالي جاء سلمان بالرأس فأضافوه الى الرأسين الآخرين ودفنوها جميعاً مع فاطمة كما اوصت

## الفصل الثاني والسبعون

### الحائن لا صديق له

وبعد ايام عقد لبهزاد على ميمونة ثم بعث الى سلمان فولاه رياسة الخرمية فذكره سلمان بوعدة التوسط لدى الفضل فأشار مطيما وفي اليوم التالي ركبا الى بيت الفضل بن سهل . وكان الفضل قد بلغ اوج سعده بما توفى اليه من استقلال المأمون بالخلافة والوصاية بها بعده لعل الرضا فأصبح الفضل الأمر الناهى تجرى ارادته حتى على المأمون . فلما انبأ الحاجب ان بهزاد وسلمان بالباب امر بادخالهما وكان مجلسه غاصا باصحاب الحاجات وفيهم الوجهاء والقواد إلا اخاه الحسن لانه سار الى بغداد كما تقدم . فلما دخل بهزاد رحب به الفضل ودعاه للجلوس الى جانبه على السرير وأشار الى سلمان بجلوس على كرسى بين الخاصة فلم يؤذ ذلك فأخذ الفضل يسأل بهزاد عن سفره وما شاهده فأخبره انه قادم من بغداد بعد ان شهد سقوطها فقال له « كنت فيها يوم مقتل الامين ؟ »

قال « نعم كنت مع صديقي سلمان وشاهدنا رأس الامين منصوبا على حائط البستان » فضحك ضحك الظافر وقال « على الباغي تدور الدوائر » ثم اشتغل في قضاء مصالح الناس وسكت بهزاد ريثما يفرغ المجلس ولم يتم ذلك الا بعد اذان الظهر فانصرف الناس ولم يبق غير بهزاد وسلمان والفضل فنظر بهزاد الى الفضل وقال « يسرني أن اخبرك بما أتاه صديقي سلمان من المعجزات في أثناء هذه الوقائع فانه كان من اكبر العاملين في تنميم رغائب ذى الرياستين بعقله وسيفه » . فابتسم الفضل وقال « سنكافئه بولاية عمل من الاعمال الهامة . . . أم هو مثلك لا يحب المناصب ؟ » فضحك بهزاد وقال « اذا قلته عملا فقد أسبغت عليه نعمك ولكني أحب أن ينال حظوة أخرى في عينيك يتشرف بها بين الاقران » فقال « وما ذلك » - قال « أن تزوجه بابنة أخيك »

فوجم الفضل ثم قال « وأي بنات أختي تعني ؟ » - قال « بوران »  
فترجع وتغير وجهه وهز رأسه وقال « هو يطلب ذلك ؟ »  
قال « بل أنا أطلبه له اذا شئت فانه من خير الرجال »  
قال « يعز على رد طلبك يا بهزاد فان بوران مخطوبة »  
فظن بهزاد لأول وهلة أنه يعني خطبتها له فأراد الاستفهام فسبقه سلمان  
الى الكلام وقال « لمن ؟ »  
فنظر الفضل اليه وقد امتعض من اعتراضه وقال « مخطوبة لاعظم رجل  
في الاسلام اليوم .. » فأدرك سلمان انه يعني للمأمون وتحقق ذهاب المروس  
من يده فاقبضت نفسه وهاج غضبه وقال يظهر ان ذا الرياستين نسي وعده  
قال « أي وعد ؟ » - قال « ألم تتواعد على شيء ؟ »  
قال وفي صوته جفاء وانتهاز « متى تواعدنا ؟ »  
قال « هل أقول ذلك الآن ؟ » - قال « قل ما نشاء »  
قال « تواعدنا عليه لما خلعت المجوسية واعتنقت الاسلام رغبة في  
المناصب وتواطأنا على السعي في هذا السبيل وأنت يومئذ لا تملك شيئاً وكانت  
بوران طفلة . أما الآن فقد تغيرت الاحوال وأصبحت ذا الرياستين  
وصاحب الامر والنهي فاذا ذكر أننا تعاهدنا على ذلك وأني قمت بما علي فهلا قمت  
بما عليك ؟ » فظهر الغضب في وجه الفضل لما يتخلل كلام سلمان من التعريض  
والتلميح وقال « لا اذكر شيئاً من ذلك . . . ولكن ما رأيك هل نرفض  
خطيها الحالى ونزفها اليك وفي كل حال فالامر في ذلك لوالدها وهو غائب »  
فوقع قوله في قلب سلمان وقوع السهم وامتقع لونه ورقص شارباه  
في وجهه وتحفز للنهوض فأدرك بهزاد تغيره فوقع في حيرة وأراد أن  
يستأنف الكلام فرأى الفضل يتناول مذنبته ويتحزح من مجلسه فلم  
أنه يطلب الانصراف فوقف بهزاد وسلمان وانصرفا بعد أن حياها الفضل تحية  
باردة . فلما خرجا أراد بهزاد ان يخفف من غضب سلمان فلم يمهله أن يقول  
كلمة وم بوداعه فقال بهزاد لا تغضب يا أخي لعل للرجل عذراً مقبولاً ،  
فقال وفي صوته خسة من الغضب لا عذره ولكنه ذئب الأصل لا يعرف

قيمة الرجال وسأريه عاقبة أمره ، ومشى مهرولاً . وظل بهزاد واقفاً حتى توارى سلمان عنه وهو يحسب لهذا التهديد ألف حساب لعله ان صاحبه ذو كيد ومكر لا يثنيه عن الاذى ضمير أو عهد ولا هو يراعي ذمة ولا جواراً .  
 أما سلمان فسار تواءً إلى قصر المأمون وطاب الخلوّة به فأذن له بها فلما اختلها قال سلمان « إني من موالى أمير المؤمنين ويسرني ان ما بذلناه في سبيل نصرته لم يذهب عبثاً فمن الله علينا ببقائه ونيله الخلافة وهو خليف بها ، فتوقع المأمون من وراء ذلك خيراً جديداً ولم يكن مغفلاً فاغتم هذه الفرصة وقال « إني شاكر لآخوالى الحراسانيين فانهم أصحاب الفضل بما نلتهم ، فتظاهر سلمان بالتردد حيناً وهو يبلع ريقه ويتنحج فقال له المأمون « قل ما بدا لك ولا تخف »

قال « أنا اعلم أنى معرض حياتى للخطر بما سأقوله ولكننى أقوله رغبة في حفظ حياة أمير المؤمنين ودوام دولته وأرجو ان يبقى قولى سرّاً عن كل انسان ، فاهتم المأمون وقال « أتوصيفى بحفظ السر وقد قامت دولتنا به ؟ قل سريعاً . لا تخف »

قال « ان وزيرك الفضل بن سهل يوهمك انه رد السلطة اليك وهو يدبرها لنفسه ، تخاف المأمون أن يكون الرجل آتياً بدسيّة من الفضل فقال « ان مثل الفضل أهل للتمتع بنفوذ الكلمة بعد الذي بذله في سبيلى »

قال « أرى مولاي يحاذر أن يظهر ما يحول في خاطره وهو غير بذلك ولستكنى أقول ان الفضل إنما اراد السلطة لنفسه ليس لمجرد النفوذ ولكنه يسعى في نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين لترجع الى الفرس ولذلك اشترط البيعة لعلى الرضا بعد أمير المؤمنين

فانتبه المأمون لمساعي الفضل من هذا القبيل ولم يكن غافلاً عنها من قبل ولعله اضطر اليها رغبة في التغاب على أخيه فقال « ولستكنى بايعت على الرضا باختياري لأنى لم أجد في بني العباس من هو أهل للخلافة »

قال « وهل تضمن أن يكون بنو على أهلاً لها . . وهب انك فعلت ذلك مختاراً فهل تضمن أن يصبر الفضل في نقلها حتى يستوفى أمير المؤمنين حظه منها

اعذرني اذا رأيتني أخاطبك بحرية وأنا واثق من بقاء ذلك سرّاً بيني وبين  
أمير المؤمنين ولا أطلب اليه الا الحذر من هذا الرجل على حياته ثم على دولته  
وإذا حسب قولي تطفلاً فاني أستمح منه العذر ،

فاطرق المأمون وقد جال في فكره خواطر كثيرة وحدثته نفسه بامور  
سكت عنها واكتفى بقوله « وما الحيلة ؟ »

فاستبشر سلمان بهذا السؤال وقال « اذا عهد أمير المؤمنين ذلك الى فاني  
أنقذه منه بجرعة عسل أو شربة ماء ،

فأعظم المأمون حسارة هذا الرجل وقال في نفسه « ان وجود مثل هذا  
الغادر خطر على أعدائه وأصدقائه . . لأنه بعد ان بذل نفسه في خدمة الفضل  
أصبح يسعى في قتله فلا بد لذلك من سبب حمله على التغير ولا يبعد ان يحدث  
ما يغيره على سواه ، ولكنه رأى فيه عوناً على التخلص من الفضل فسكت  
هنية ثم قال « سننظر في ذلك » - واكتفى سلمان بهذا الجواب لعله انه  
لا يجيبه على اقتراحه جواباً صريحاً لأسباب يعرفها مثله ،

وابدى المأمون اشارة الصبر فخرج سلمان من عنده ولبت المأمون بعد  
خروجه يفكر في ماسمه وهو يخاف ان يكون قد جاء يتجسس من قبل  
الفضل . . . فعزم على استطلاع رأي الفضل خلصة

وفي ذلك المساء جاء الفضل إلى المأمون كجاري العادة وقد أنبأ جواسيسه  
بدخول سلمان على المأمون في ذلك اليوم فظنه جاء ليوسطه في شأن بوران ولم  
يخطر له انه يجسر على الوشاية به في أصل مشروعه لما في ذلك من الايقاع بالفرس  
كافة. وتعمد المأمون الخلو بالفضل وتطرق بالاحاديث المتنوعة حتى ذكر سلمان  
فقال المأمون « قد بلغني عن هذا الرجل اعمالاً اتاها في بغداد يروح عليها ،  
فقال الفضل « نعم ياسيدي قد أعان حزبنا بمساع اساسها المسكر والحيانة  
وقد افادتنا ولكنه كبير المطامع كثيراً » - قال « ولا بأس من تقليده منصباً »  
فابتسم الفضل وقال « عرضت عليه ذلك فرأيتنه طامعاً بما يقصر امثاله عن  
نيله . . . لو علم أمير المؤمنين بمطعمه لاستغربه » - قال « وما هو ؟ »

قال « انه طامع بيوران ابنة أخي ولما قلت له انها مخطوبة غضب كأنه

اولى بها من أمير المؤمنين ، وكان المأمون قد خطب بوران من ايها سرآ  
فأدرك المأمون سر الخلاف وعلم ان الرجل لم يسبح بسر الجماعة الا انتقاماً  
لهذا السبب ولم يفت المأمون اطلاق الفضل على عبيد سلمان فأحب ان يذهب  
خوفه من تلك الزيارة فبرز رأسه احتقاراً لسلمان وسكت وترك المسألة للحجاري  
الطبيعة واطهر الاستغراب لما سمعه وغير الحديث فانصرف الفضل وهو مقتنع  
انه اوغر قلب المأمون على سلمان

## الفصل الثالث والسبعون

### عاقبة الغدر على الغادر

ولبت المأمون بعد ذلك يراقب ما يبدو من الفضل ليتحقق ما بلغه حتى  
جاء على الرضا ذات يوم لزيارته وهو ولي عهده على الخلافة فرحب به ودار  
الحديث بينهما فقال على « انما جئتك لأنبئك بما يخفيه وزيرك الفضل عنك ،  
قال « وما ذاك ؟ » - قال « ان اهلك في بغداد لما علموا انك بايعتني بمدك  
نقموا عليك اشياء وقالوا عنك انك مسحور مجنون وبايعوا ابراهيم ابن عمك  
المهدي مكانك وخلعوا بيعتك لاعتقادهم انها ستأول بمدك لي ،  
فاستغرب المأمون ذلك لأنه لم يكن بلغه فقال « لم يبلغني شيء من ذلك ،  
قال « لان وزيرك الفضل يتناول اخبار البريد ويخفيها عنك رغبة في  
مصلحته ، فشكر المأمون لعلى حرية ضميره وقال اذكر ان الفضل قال لي ان  
اهل بغداد أقاموا ابراهيم بن المهدي أميراً عليهم لاختيافة ،  
قال « ان الفضل قد كذبك والحرب قائمة الآن بين الحسن بن سهل  
وابراهيم والناس ينقمون عليك مكانه ومكان اخيه الفضل ومكاني ومكان بيعتك  
لي من بمدك » - فقال المأمون « ومن يعلم هذا ؟ »  
فسمى له رجالا اطلعوا على ذلك فاستقدمهم للمأمون وسألهم بعد ان اعطاهم  
الامان من الفضل وكتب لهم خطه به فأخبروه بالبيعة لبراهيم بن المهدي وان  
أهل بغداد قد سموه الخليفة السني وانهم يهتمون بالمأمون بالرفض لمكان على

منه (١) فلما سمع المأمون ذلك منه أثنى على علي فانصرف ولما خلا بنفسه اخذ يفكر في أمره فصمم على قتل الفضل ولكنه مازال خائفاً من بقاء علي الرضا ولياً تامهد وأنه اذا لم يقتل ظل موقفه حرجاً

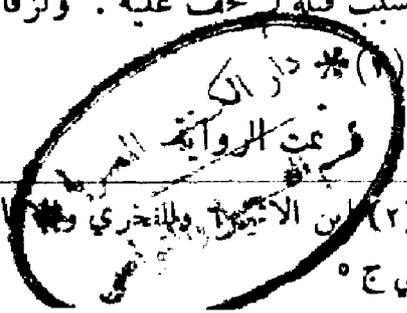
وبلغ سلمان ما كان من علي وما قصه على المأمون فعلم أن الطبخة قد استوت فدخل علي المأمون في خلوة فلمح له المأمون تلميحاً فهم مراده منه وانصرف بعد المكائد ويغتم الفرص

وسافر المأمون الى بغداد سنة ٢٠٣ هـ فلما وصل الى سرخس وثب قوم على الفضل في الحمام فقتلوه وكان ذلك بمساعي سلمان فحاكم المأمون الدين وثبوا عليه وقتلهم . وبعد ان وصل المأمون الى بغداد بقليل شاع مقتل عبي الرضا بأكلة عنب مسموم وتحدث الناس ان المأمون دس له ذلك العنب (٢) وانما دسه سلمان

فنجبا المأمون بذلك وظلت الخلافة في أهله ولكنه ظل خائفاً من سلمان فدس اليه من قتله خوفاً من انقلابه على المأمون فمات جزاء غدره فصح فيه قول بهزاد « ان الغادر تعود عليه عاقبة غدره »

أما بهزاد فلم يعد يرى سلمان منذ اترقا يوم خروجهما من عند الفضل ثم بلغه مقتل الفضل بن سهل وعلي الرضا فاسف لضياح مساعيه في نقل الساطة للفرس ولكنه تعزى بما توفى اليه من الانتقام لجده وحميه وعاش مع عروسه في راحة والناس لا يعرفون أنه حفيد أبي مسلم وأنها ابنة جعفر البرمكي . ثم بحث عن سلمان فعلم ان المأمون قتله خوفاً من غدره فقال في نفسه « ذلك جزاء الحيانة وتلك عاقبة الغدر »

أما المأمون فبعد ان جاء بغداد تزوج بيوران بنت الحسن بن سهل ترضية لأبيها عما لحق باخيه لان سبب قتله لم يخف عليه . ولزفاف بيوران احتفال محفوظ في بطون التاريخ (١)



(١) ابن الاثير ج ٦ (٢) ابن الاثير ج ٦ (٣) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥

(١) ابن الاثير ج ٦ (٢) ابن الاثير ج ٦ (٣) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥